رشيد بوجدرة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

التطليق

Seuil دار سوي للنشر

التطليق

صدر في هذه السلسلة

« نجل الفقير » : مولود فرعون

« محا المعتوه محا الحكيم » : الطاهر بن جلود

التطليق

٣١٢

ترجمـــة

صـالح القـرمـادي

راجع نص الترجمة

محـمد الشـاوش

دار سراس للنشر Seuil

نشر هذا الكتاب في طبعته الأصلية بعنوان
La répudiation عن دار Denoël

اطلع الكاتب على هذه الترجمة
ووافق عليها

© جميع حقوق النشر والطبع محفوظة
لدار سراس للنشر و Le Seuil
6، شارع مونبليزير — تونس
27, Rue Jacob - Paris VI^e

بذهاب الوهم والهلواس كان النور ينزل بردا وسلاما رغم ما في الوضع من تفتت وفوضى كانا يتفاقمان بعد مرور « الاعضاء السريين » . فكنا اذن قد اوقفنا غاراتنا (أأقول لها ان لفظة « ألقاراد » (1) الفرنسية أصلها عربي وهو الغارة وانه من المؤسف جدا انها لا تعرف حتى ذلك ؟ لعله من الافضل ألا أوقظ فيها تلك القطة الضارية العاصفة الرابضة في اعماق نفسها ...) . كنّا قد اوقفنا غاراتنا ولزمنا الهدوء والسكون . ترى لم كانت تلحّ عليّ في السؤال ؟ انها تبتغي ان نتحادث عن يماً (2) من جديد ولما كنت اصمد وارفض فقد كانت تعمد الى جسمي تدعكه بنعومة بشرتها المعدية فلا تبقي على بشرتي آثار بعض العطور الرقيقة الشذا وانما تخلف عليها برودة عليلة كانت نفسي المنكوبة في حاجة اليها ، برودة عليلة تذكرني ببعض روائح العنبية (3) وعود القرنفل يلتهبان فيفنيان في ثبات الذاكرة . وكنت في مثل تلك اللحظات أبعث من جديد فيعود اليّ فجأة صفاء في الذهن غريب قريب من حالة الوجد والذهول، ويتيه عقلي في مسبوة وهمية ملؤها الحيطة والحذر مثلي في ذلك كمثل البهلوان يسير على حبله الممدود في الفضاء وقد طهّر من شجاعته تطهيرا . كنت انقلب فأستحيل الى

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

شخص غير شخصي حتى انه كان يكفيني ان ارى احدى بنات وردان ناصبة قرني استشعارها على شكل قاطع ومقطوع علامة على العدوان تجاه عيني العشيقة الثائرتين ذعرا ، لكي أهرع لاغاثتها فأخلصها من شر تلك الدويبة الشنعاء . حتى اذا رأيت « سيلين » وقد فاضت على ملامحها علائم الاعتراف بالجميل أخذت في جس عضلاتي في غموض وابهام رغبة مني في [illegible] اخضاعها وحملها على الهيام بي وتدليلي تدليلا دائما . وعندئذ كان [illegible] بيننا [illegible] فضاء معشوشب متراص كثيف في هشاشته ومهدد على الدوام بانهيار زلزالي كنا لا ننى معا نرهب جسامته ونخشاها ونحن قابعان بصورة مخالفة للمعقول في صميم قلب تلك الحجرة امام البحر وقد هدأ بمفعول ارتداد امواجه فبلغ منتهى رتابته الذاتية الشاذة . كل ذلك ونحن ننظر فترى رشاش الماء يلطخ الميناء والرصيف في ابهة وبذخ ويغمرهما غمرا وقد اخذتهما غشية ثقيلة فتخدرا منذ مغادرة الصيادين لهما وريثما يجيء اليهما عملتهما من جديد . كل ذلك وكلانا يحملق في صاحبه كالملاكمين . يتهيآن لا [illegible] التعاضّ تعاضا تسيل معه دماؤهما .

الا ان ذلك كان امرا معتادا لدينا والحق يقال ، تأصل فينا تأصلا بالغا سرعان ما كنّا ننسى معه اننا [illegible] [illegible] بصورة رسمية منذ لحظات معدودات . وكنا عندئذ نخر [illegible] فتكون [illegible] تسري على جسمينا المحمومين البالغين من نفاذ الصبر أقصى حدوده حتى كانت رغبة كلينا في الوصال تنقلب من شدّة نفاذ صبرنا فاذا هي [illegible] وتهم كنا لا نأبه معهما للون بشرتينا وقد سرت عليهما حبوب [illegible] [illegible] الى البنفسجي كانت تنبئ سلفا بشدّة الملامسات الأليمة القادمة . وكنا نخشى تجدد الالتحامات الجسدية بيننا اذ لم تكن [illegible] بان يتناول كل واحد منا جسم الآخر بل كان من المفروض عوضا عن ذلك ان ينهش كلانا صاحبه نهشا يبلغ من الشدة والصرامة حدا ينشأ معه الكابوس . لا سيما عندما كانت الأنثى تتصدى منبثقة من نسغها الشخصي بالذات فتريك

وقد افرجت عما بين ساقيها لحمة متورمة مخربة تمتد حتى تتصل بحدود ذلك الاحمرار الطاغي على هذاك الركام المدلهم في مسحة من وقار ، هذاك الركام الذي كان يقطع النور المتدفق على الفخذين قطعا حادا فيدع لحمتي تعمه كالعمياء في البداية ثم تتدارك الامر فتأخذ في التحسس تحسسا منهاجيا منظما الى ان تصادف ثقبة من الثقب . بيد اننا كنا نقضي في تلك العمليات وقتا طويلا ، وكان لعاب فرجها يسيل على ساقي — خاثرا لزجا يجري من تلك اللحمة المتورمة الفظيعة التي كنت مع ذلك أستطيب الغوص فيها والانغمار ، الا ان كل ذلك لم يكن ليشفي غليلنا . وفعلا فقد كان من المفروض ان تغير لحمتي المسترخية على لحمة « سيلين » المسترخية فتكسحها اكتساحا . واذ ذاك كانت هي تبارك عملية الذهاب والاياب السافرة فتزيد في افراج ما بين فخذيها وقد استعدت استعداد المرأة الواثقة من نيل اعظم جزء من الكتلة لالتهام المجموعة الشاسعة بأكملها وذلك لا لكي تلتذ بها فحسب وانما لكي تركزها كذلك على ركيزة لحمها العريض فتسندها الى قاعدته اسنادا ، لحمها المضياف المتفتح على جميع ضروب الامومة والانجاب . كانت تصيح وتتأوه التذاذا فيالها من ولمة جنسية ملؤها اللزاجة والتلزق ؛ ترى أيّة آلة للضرب والصدم تكون قادرة على الاتيان على آخرها ! لم تكن العشيقة شاعرة بألمها النرجسي المولع بذاته بل كانت نفسها متفجرة متفرقعة وسط مضيق ولهها الذاتي فتطفق فجأة تريد امتصاص كل شيء من خلال فرجها وقد ارتخى ولان من جراء اللذة والسيلان ثم عاد فتصلب بسرعة لكي يتمكن من الانضمام على اللحمة المقابلة احسن مما فعل وكانت تلك اللحمة الى الاندهاش اقرب منها الى التلبّد وسط تلك الفجوة الضيقة ضيقا معيبا وذلك رغم ما كانت عليه من خصوبة لا حدّ لها بامكانياتها الكاملة على الدوام غير المتوقعة على الدوام . وكانت العشيقة عند انتهاء الالتذاذ تستغل فرصة الفترة الفاصلة بين الشعور بالكمال والشعور بالمرارة فتشكرني وتعبدني وتهش في وجهي وتختفي بي

وكنت أشعر أحيانا وأنا أطرح عليها نفس الأسئلة من جديد بأنني كنت أفسد بذلك كامل القضية غير انها كانت تعرف كيف تردني الى الجادة فتؤنبني في رفق وصبر . لقد وهبت موهبة اساسية هي القدرة على أن تجعل مني إنسانا عاطفيا منشرح الصدر ولذلك فقد كنت لا أصر كثيرا على موقفي لا خشية الاخلال بذلك التوازن المهلهل القائم بيننا بل لأني كنت دوما متخوفا من ان اصبح في حرج ومن ان اجد نفسي مرة اخرى في بلبلة وارتباك وجها لوجه امام الواقع . وكنت شاعرا شعور الحدس والتخمين أنه لو دفعني التذبذب والانذعار الى محاولة الاطلاع على ذلك الواقع اطلاعا كاملا لبان لي انه واقع مرعب مخيف.مهما كانت الحال وكنت ممنونا أحب في صاحبتي صمودها لهجماتي المفتعلة ولذلك فقد كنت اذا سألتني استئناف سرد القصة التي وقفت فيها بالأمس وسط جملة من الجمل استجيب لرغبتها بدون ان أدعها تلح علي كثيرا في السؤال وقد سعدت نفسي بالانفلات من الفخ وبتحقيق معجزة نفي نفسي لنفسي وآية فرار نفسي أمام نفسي (وكانت تقول ما أحمق هذا الخوف من التمزق !)

كنت أمقت رأفتها تلك بي وكانت لا تحسن اخفاءها إلا أنني لما كنت أرغب في تجنب عقد العزم واتخاذ القرارات كنت أترك هذه الحالة تسبح في ذلك الضباب الذي كان خاصية من خصائص علاقتنا الاساسية . لقد كنت أحلم بسجنها لا لكي احافظ عليها فتكون لي وحدي وأحميها من رعاية الاولئك الذكور المتسكعين في تلك المدينة المهجورة من النساء ، يجوبون الازقة باحثين عن فريسة نادرة الوجود صعبة المنال (لا لم أكن قادرا على الغيرة وانا في تلك الحالة من الخمول ومنتهى التذبذب التي تلت ــ أو سبقت بكثير ــ عملية القبض فالحجز التي قام بها الاعضاء السريون فحبسوني في « فيلا » شهرتها بين الناس تغني عن الزيادة في وصفها . لا لم يكن ذلك هدفي ولا غايتي بالمرة) بل كنت احلم بحبسها لكي اجعلها تلمس واقع تلك المدينة التي كانت تتوهم انها تعيش

فيها وقد تكون غرّتها ـــ بل قل هيجتها تلك النظرات المكفهرة المحمومة التي كان جميع الرجال يصوّبونها في بطء على ربلتي ساقيها المغمدتين في جوارب النيلون (فيضيف نيلونها الى الشهوة الحام إشهارا جنسيا من أسمج طراز) ، وتسيل على ردفيها الضخمين وعلى نهديها العجيبين في افتراقهما افتراقا واضحا جليا تحت أقمصتها الخبازية اللون أو الصفراء أو السوداء التي كانت تفضل ارتداءها ، وليس مردّ ذلك إلى انه كان لها أفكار ثابتة وآراء واضحة فيما يتعلق بنواميس التجميل النسائي «ببلاد البرابره» بل لأنها (وإن أقسمت مغلظ الايمان انها بريئة) كانت تريد بكل تأكيد أن تبعث الرّعب والبلبلة وأن توقظ شهوة الجماهير الجنسية تلك الجماهير الناعسة المتسكعة خلال أزقة مدينة الجزائر . وكانت تشق طريقها وسط تلك الجماهير برباطة جأش عسكرية أثرت في نفسي عندما رأيتها لأول مرة أيّما تأثير .

بيد أنه كان ينبغي أن أتسلح بسلاح الشجاعة وقوة العزيمة لأتزوج بها وأفرض عليها قوانين بلادي تلك البلاد التي كانت هي لا تزال تعتبرها ضربا من ضروب الجنة على الارض يتقاسمها البحر من جهة والأطلال الرومانية المتصبة بها كالاوتاد من الشرق الى الغرب من جهة آخرى والمخربشة على أرضها ـــ إن صح هذا التعبير ـــ أشكال وبناءات خربة تكاد تكون مجردة .

إنّه الغيظ الذي لا يطاق . إذ كانت « سيلين » تصل بي الى ذروة الغضب والاثارة عندما كانت تحاول أن تفهم لماذا كنت أجعل الاثار الرومانية قائمة دائما على ساحل البحر . وكانت تقول وتكرر مرارا وتكرارا : « تيبازا » تنطق بتلك اللفظة كما لو نطقت بأسم ثمرة من الثمار فتنخفض شفتها السّفلى الممتلئة المخضلة بالرّضاب انخفاضا ملؤه الشره والنهم . شفتها الممتلئة حيوية وسط مجموع وجهها الهادىء بل قل القريب من الوداعة والاطمئنان. وكنت عليما بأن رغبتي في حجزها رغبة قوية عارمة لكن لا طمع في تحقيقها ولم أكن أبتغي أن تتضارب أعمالي مع المبادىء التي

صنعتها في غضون الكوابيس التي كانت النساء يلعبن دائما فيها أدوارا جد هامة كذلك الحلم الشنيع الذي رأيت فيه أرنبا مسلوخا كانوا يصبون عليه بملء حفناتهم قصاعا من الدم وأمي بجانبه تحتضر من جراء حيض جنوني فاض عليها فما هو بمتوقف ولا هو بمنته . ولم أكن في أثناء هذا الكابوس لأربط الصلة بين الدم المصبوب على ذلك الحيوان المسلوخ وبين دم أمي ولم أدرك أن جميع ذلك الدم كان صادرا عن أمي وقد افرغت منه وملأ فمها الأنين والحشرجة الا عندما استفقت . كان لزاما علي أن أقي «سيلين» لأنها كانت هي الأخرى ضحية وهي في ذلك وسائر نساء البلاد التي جاءت تعيش فيها سواسية . لم يكن في وسعي تصور إمكانية حبسها في هذه الغرفة الصغيرة الحقيرة التي كنت أنثر فيها حبوب « النفتالين » منذ أن قرأت في إحدى المجلات بأن هذه المادة وان لم تكن قادرة على قتل الجرذان فانها تصيبها بداء الدوخة والدوار ولعلّ ذلك يجبرها على العدول عن شنّ غارتها الليلية في أرجاء الغرفة وعن صراعاتها الغرامية التي كانت نتيجتها الحتمية جولان الأنثى الحامل جولان الطاووس يتبختر زهوا وكان هذا المنظر يبعث في نفسي الاشمئزاز والنفور اذ كنت عاجزا عن تحمل رائحة الاناث الحاملات ورائحة النساء الحيليات .

لا ! . لقد كنت عاجزا عن سوء معاملتها والاساءة اليها . ولذلك فقد كنت أفضل الخضوع لقانونها فأهيّىء بذلك لنفسي الشعور بفشلي الذاتي ولم أكن قادرا على تحمل مسؤولية ذلك الفشل كاملا بل كنت أتحمل تلك المسؤولية جزءا جزءا حسب الأحداث وبمقتضى الظروف والأوضاع التي يضعني فيها جسمي ذلك الارث الشنيع الذي حملوه من «الفيلا» الى المستشفى ومن المستشفى الى سجن الأشغال الشاقة ثم من سجن الاشغال الشاقة الى هذه الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها والواقعة على أرصفة ميناء الجزائر العاصمة . ثم حملوني مرة أخرى من هذه الشقّة الى المستشفى بعد أن أنتابني المرض من جديد فكانت الانتكاسة القاضية . وكان الانسان

الوحيد الذي يعودني بالمستشفى هو « سيلين » وذلك رغم أني كنت أخجل منها بعض الخجل ورغم أن فساتينها الباهظة الثمن الزاهية الالوان في افراط كانت تهددني بمقاطعة سائر المرضى لي وكنت أحبّ فيهم ذلك التصلّب الفكري وذلك الرضا عن الذات المدمر لضمائرهم وقد نالت منها الحياة بعد ما نالت (وكانت تقول : دع عنك اجترار كل هذه الاشياء ... وحدثني عن أمك فذلك أحسن...). ولم أكن أستجيب لطلباتها الملحة إلا عندما كانت تصل الى حدود الصبر والاحتمال أي لما كنت آشعر في غموض وإبهام أنني لو أصررت على السكوت لتعرّضت لخطر إضاعة فرصة ذكر قصة منزل يمّا بدون رجعة . قصّة منزلها وقصّة طقوس القبيلة وخرافاتها . وعند ذاك كنت أسارع إلى إرضاء رغبة سيلين فأبسط عليها ذكرياتي بسطا كنت أشعر من خلاله شيئا فشيئا بلا واقع ليس هو بالعجيب الخارق للعادة بل هو لا واقع غير لائق ولا مناسب . ذلك أنّ رفضي للحديث لا يمكن تمديده وراء حدود ما ، وهي تلك الحدود التي تتمثل في درجة ضراوة العشيقة بل وحتى في سخريتها المحزنة . وكان نور الغروب المتسرب من النافذة قد رسم على جانب وجهها هدأة مؤقتة كأنما قدت من أعماق العصور الخوالي . وكان الظل الذي يظلل خدها قد مسخ جزءا من وجهها مسخا فبدت لي كأنها امرأة أجنبية لا عهد لي بها وذلك لأني لم أعد قادرا على تصور لا خدها الثاني ولا جانب جسمها الآخر . ترى هل كان في ذلك استهلال لاغماءة فآخر مغشيًا عليّ ؟ لا بل قل إن ذلك كان بداية فترة من الحذر الذّهبي أمام هذه المرأة ذات الوجهين وجه غمره الضياء فعاد إليه ضرب من المتانة والصلابة ومن واقعية لا عهد له بها بينما ظل الآخر في حالة من الغموض والابهام. شعرت أنا الآخر في ألم وعناء بشيء من ازدواج الشخصيّة على غرار ما تشعر به تلك المرأة وقد انتصبت أمامي مولية اياّي جنبها جالسة إما على الكرسي أو على السرير . ولكن أنّى لي أن أجد ما يلزم من شجاعة فأنهض وأمشي حتى أصل الى المرآة القائمة

صنعتها في غضون الكوابيس التي كانت النساء يلعبن دائما فيها أدوارا جد هامة كذلك الحلم الشنيع الذي رأيت فيه أرنبا مسلوخا كانوا يصبون عليه بملء حفناتهم قصاعا من الدم وأمي بجانبه تحتضر من جراء حيض جنوني فاض عليها فما هو بمتوقف ولا هو بمنته . ولم أكن في أثناء هذا الكابوس لأربط الصلة بين الدم المصبوب على ذلك الحيوان المسلوخ وبين دم أمي ولم أدرك أن جميع ذلك الدم كان صادرا عن أمي وقد افرغت منه وملأ فمها الأنين والحشرجة الا عندما استفقت . كان لزاما علي أن أقي «سيلين» لأنها كانت هي الأخرى ضحية وهي في ذلك وسائر نساء البلاد التي جاءت تعيش فيها سواسية . لم يكن في وسعي تصور إمكانية حبسها في هذه الغرفة الصغيرة الحقيرة التي كنت أنفر فيها حبوب « النفتالين » منذ أن قرأت في إحدى المجلات بأن هذه المادة وان لم تكن قادرة على قتل الجرذان فانها تصيبها بداء الدوخة والدوار ولعلّ ذلك يجبرها على العدول عن شنّ غارتها الليلية في أرجاء الغرفة وعن صراعاتها الغرامية التي كانت نتيجتها الحتمية جولان الأنثى الحامل جولان الطاووس يتبختر زهوا وكان هذا المنظر يبعث في نفسي الاشمئزاز والنفور اذ كنت عاجزا عن تحمل رائحة الاناث الحاملات ورائحة النساء الحبليات .

لا ! . لقد كنت عاجزا عن سوء معاملتها والاساءة اليها . ولذلك فقد كنت أفضل الخضوع لقانونها فأهيّىء بذلك لنفسي الشعور بفشلي الذاتي ولم أكن قادرا على تحمل مسؤولية ذلك الفشل كاملا بل كنت أتحمل تلك المسؤولية جزءا جزءا حسب الأحداث وبمقتضى الظروف والأوضاع التي يضعني فيها جسمي ذلك الارث الشنيع الذي حملوه من «الفيلا» الى المستشفى ومن المستشفى الى سجن الأشغال الشاقة ثم من سجن الاشغال الشاقة الى هذه الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها والواقعة على أرصفة ميناء الجزائر العاصمة . ثم حملوني مرة أخرى من هذه الشقّة الى المستشفى بعد أن أنتابني المرض من جديد فكانت الانتكاسة القاضية . وكان الانسان

الوحيد الذي يعودني بالمستشفى هو « سيلين » وذلك رغم أني كنت أخجل منها بعض الخجل ورغم أن فساتينها الباهظة الثمن الزاهية الالوان في افراط كانت تهددني بمقاطعة سائر المرضى لي وكنت أحبّ فيهم ذلك التصلّب الفكري وذلك الرضا عن الذات المدمر لضمائرهم وقد نالت منها الحياة بعد ما نالت (وكانت تقول : دع عنك اجترار كل هذه الاشياء ... وحدثني عن أمك فذلك أحسن...). ولم أكن أستجيب لطلباتها الملحة إلا عندما كانت تصل الى حدود الصبر والاحتمال أي لما كنت أشعر في غموض وإبهام أنني لو أصررت على السكوت لتعرّضت لخطر إضاعة فرصة ذكر قصة منزل يمّا بدون رجعة . قصّة منزلها وقصّة طقوس القبيلة وخرافاتها . وعند ذاك كنت أسارع إلى إرضاء رغبة سيلين فأبسط عليها ذكرياتي بسطا كنت أشعر من خلاله شيئا فشيئا بلا واقع ليس هو بالعجيب الخارق للعادة بل هو لا واقع غير لائق ولا مناسب . ذلك أنّ رفضي للحديث لا يمكن تمديده وراء حدود ما ، وهي تلك الحدود التي تتمثل في درجة ضراوة العشيقة بل وحتى في سخريتها المخزنة . وكان نور الغروب المتسرب من النافذة قد رسم على جانب وجهها هدأة مؤقتة كأنما قدت من أعماق العصور الخوالي . وكان الظل الذي يظلل خدها قد مسخ جزءا من وجهها مسخا فبدت لي كأنها امرأة أجنبية لا عهد لي بها وذلك لأني لم أعد قادرا على تصور لا خدها الثاني ولا جانب جسمها الآخر . ترى هل كان في ذلك استهلال لاغماءة فأخر مغشيًا عليّ ؟ لا بل قل إن ذلك كان بداية فترة من الحذر الذّهبي أمام هذه المرأة ذات الوجهين وجه غمره الضياء فعاد إليه ضرب من المتانة والصلابة ومن واقعية لا عهد له بها بينما ظل الآخر في حالة من الغموض والابهام. شعرت أنا الآخر في ألم وعناء بشيء من ازدواج الشخصيّة على غرار ما تشعر به تلك المرأة وقد انتصبت أمامي مولية ايّاي جنبها جالسة إما على الكرسي أو على السرير . ولكن أنّى لي أن أجد ما يلزم من شجاعة فأنهض وأمشي حتى أصل الى المرآة القائمة

الذات فوق « اللاقبو » وأنظر إلى نفسي مرتين أي من زاويتين مختلفتين فأقدّر أثر النور في وجهي وقد بلغ ذروة ضيائه خارج البيت فألتهب التهابة أخيرة تبشّر بحلول فترة من البرودة ؟ وأنّى لي ألا أثير انتباه « سيلين » وأستفزّ ارتباكها لو رأتني مركوزا أمام المرآة أحدق في جانبي وجهي الواحد تلو الآخر وقد بدا لي أحدهما أغلظ من الآخر وذلك من جرّاء عدم تناظر وراثي لم يكن يظهر لي إلّا عند النظر الى نفسي في المرآة . ولو رأتني العشيقة على تلك الهيئة لظنت أنّ نوبة جنونيّة قد انتابتني أو أنّ ما كنت أفعله هو حركة من حركات المتطيّرين المؤمنين بالشعوذة أو حتى مناورة منّي احتال بها للاساءة إليها أولقتلها .

لقد وقع الضوء المتصاعد من حوض الميناء والمتجه نحو نافذتنا المضاءة على أحد جانبي وجهي فاصبحت اشبه « سيلين » مما جعلني في الحين أشعر بأهمّية تساكننا كاملة ، وهو تساكن ليس بالغرامي ولا بالاجتماعي بل هو من قبيل التعايش البيولوجي . فـ« سيلين » أصبحت تشبهني ! فقد صرت مزدوجا، وهي كذلك. وقد أثر في نفسي ذلك أيّما تأثير لأني ما انفككت إلى ذلك الحين أعتقد صارم الاعتقاد أن ليس هناك ما من شأنه أن يصير أحدنا مثل الآخر . ورغم ما كان قد خامرني من واخز الرّغبة في القيام الى المرآة للتثبت من صحة هذا التشابه الذي أحسست به فجأة بيني وبينها لم أتحرك من مكاني بل مكثت أرقبها وهي تدخّن السجارة بعد الاخرى وأحسّ مسبقا بذلك الطعم التافه الذي سيكون لفم « سيلين » عندما سأقبّلها وأتكهن بأن الأمر سينتهي بها إلى القيام والاتجاه الى الصنبور ـــ لتلقي خيوط الماء العمودية الغزيرة الثّخنة في حفرة كفها وقد انقبضت وتكوّرت وهي في ذلك تمطط من شفتيها المطبقتين إلّا فرجة صغيرة مجعولة لاحتساء الماء ودخوله في فيها . ولكن « سيلين » لم تتحرك هي الآخرى من مكانها بل كانت كأنها تنتظر حدوث شيء ثم كررت فجأة

بصوتها الرتيب الأبح : « زدني من الحديث عن يمّا » .

هل أجعلها مهمومة ؟ لا . لأنّ ذلك أصبح شيئا لا يلهيني ولا يسليني . فهل أنافق وأتظاهر ؟ لو فعلت لانكمشت هذه المخلوقة وتقبضّت ولمات كل شيء فيها سوى عينيها المفتوحتين على مصراعيها والمصوبتين لنظرهما بلا رحمة ولا شفقة على الافتراءات التي أفتريها . ولكن لمّا لم أفه ببنت شفة فإنها لم يكن لها سطوة على ذاتي ولا على ذات افتراءاتي (وهو ما كانت تسمّيه « هذياني ») . لقد كنت اريدها خفّاقة. وكانت تقع في الفخّ الذي نصبته لها، تريدني فريسة من نوع خاص لا أيّة فريسة كانت . تريدني حيا ولا تحلم الا بانتزاع ذكرياتي مني ، لا لاستعمالها لغاية ما ، بل لافنائي وإذابتي من خلال ثرثرتي القاحلة التي لا ينضب لها معين ولافراغي من جنوني الملموس ولو حدث لها ما تحب لما بقي من ذاتي الا رواسب مبهمة الآثار ملؤها اللعاب والدخان ، تتواصل بعد ضلالي وبعد استلاب كلامي المجرّش المعنى المتشقق العلامات .

لقد استسلمت تلك المخلوقة وكان كلّ عمل نقوم به معا وكلّ فضاء نستعمله بأشتراك يمثل فغرة مصارعة تنذر من بدايتها بحلول الهزيمة الثقيلة الجامحة . وإذ ذاك كنا نتداخل من جديد ولشدّ ما كانت تشتهي ذلك وتحبه ! ويا للخوف من تلك القطعة الشنعاء من اللحّم آلمجدور المتدلي وسط آلفرج على هيئة مادة منهارة يذكرنا آبتلالها الخاصّ بصورة ملك الجعلان وقد تمدد في استدارة وسط سائله وذلك حتّى استنفاد كل إمكانية في التّصالح مع البيئة المعادية . ولكن يا للين الخشب الأبيض (خشب قطعة الآثاث الوحيد الموجودة في الغرفة والتي كانت تبحث على آلحلم وآلخيال) وذلك رغم الرؤيا التي سدّت طريق أسفل بطنها مرتع حبي ، العاري المدمّل ولكنّه مليء على كل حال بتلك الحكمة الحصباء الضرورية جدا لمن يريد أن يتعلم كيف يموت . لا ينبغي نكران الراحة . ثم جاء الخصام . ثم جاء دور الماء . وكان السقف ذو الفتحات مستمرّا رغم نزول

الليل في تصفية النور وسكبه علينا كما لو كان الخشب مادّة ناقلة للنور بعد الاحتفاظ به في صلبه ، تفوح منه رائحة الدهن المنهوكة بمفعول الحرارة المتصاعدة المتدفقة أمواجا محرقة لا من السماء بل من السقوف والسطوح الاخرى المبيضة بالكلس والمرسلة على غرفتنا الصغيرة المائلة السّقف إشعاعا أشدّ إضاءة وأشدّ فتكا .

يا له من امتزاج لقد كان في فطنة العشيقة شيء من الهمّ . ولشدّ ما كان الغيظ يحتد بي كلما سبقتني فاستجابت الى إشارة مني أو كلمة أو رغبة قبل أن أبدي من ذلك شيئا لقد كنت كمن أصيب بالعشى فكانت البرات تتخلّل جفنيّ فيأخذ كل شيء في التّكاثر والتفريخ أمام عيني في صلب شيء من البغض القلوي لا يمكن لأي شيء عدا جو البوالات العمومية أن يعبر عن شدّته المتصلبة القاسية في أبهتها وبهجتها الرسمية وكأنها ميلان شديد يتدفق منه ماء ثقيل حاد في نفس الوقت لقد كانت العاصفة على وشك الاندلاع بيننا ، فـ« سيلين » لم تكن تريد مفارقتي اذ كانت تعرف أنّها قد ترتكب بذلك غلطة خطيرة من شأنها أن تكون وخيمة العواقب (أهي المساومة؟) لا سيما أن سبب الافتراق المحتمل سبب واه ضعيف. لكم تتفنّن في الاغراب والتناقض الى أقصى حدّ. فماذا لو فقدتها بدون رجعة ! لقد كانت لا تبدي حراكا ولا ترد فعلا . إنّها حالة الانتظار . الخدوش المجردة المتولدة عن ذلك الجو السحري المنبعث من الغرفة. فلم يبق على حالته إلا الأشكال وهي أشكال نقيّة، ولكنها لا تنتسب الى أسلوب معين لأنها من آن الى آخر تبدو فظة غليظة ذات طبقات كما لو كانت مغشاة بالرّيش وبفلوس الاسماك . ها هي بقيقة الماء أسرع من ذي قبل : ذلك هو خروج الصيادين. وبقيت وفي نفسي رغبة في إيلامها بأن أحبسها في حجاب أبيض تتبرج داخله كالأخطبوط المتعدد الأصابع. آه لو حققت هذا الحلم الذي يخزني في ذلك العرين الذي كانت « سيلين » حرة فيه دائما في أعمالها وحركاتها ! ولكن الأفضل لها

أن تستمع اليّ وأنا اتكلم بدون أن تتجرأ حتى على مقاطعتي من حين الى آخر وشيئا فشيئا تتصور قصتي بيني وبين تلك الشقوق المتصدعة الملعونة التي كانت تبعث في نفسي الخوف بمجرّد ما كنت أميّز ذلك الفارق بين القول والواقع الذي لا يملأ فراغه ولا ينقص أبدا ورغم ذلك فقد كانت هي آلملكة على أيّة حال الملكة التي لا تنغّص لا تنكّد ولا ينتابها أي قلق ولا آنزعاج فتتناول جميع الامور متسلّحة بآلصّبر . وعندما كنت أخرج من أوهامي المذعورة كنت أعود فأعبدها فتبقى رغم كل شيء متضامنة معي . وكان في ذلك أيضا نهاية الشعوذة السحرية .

كانت « سيلين » تضحك كلّما سمعتني أطلق اللعنات والسب باللغة العربية . ولما كانت لا تفهم لعناتي العربيّة فقد كانت تحاول على سبيل اللعب واللهو أن تتكهن بمعناها من خلال التصويتات الحلقية الشديدة ثم اللطيفة اللذيذة الناتجة عن آستعمال الحروف المشأشأة الملبّنة التي تزخر بها لغتي التي كانت « سيلين » تنعتها بالمقدسة مع أنها لم تكن تبدو لي أجمل من اللغات الأخرى . وفي كلّ مرّة حاولت فيها « سيلين » تعلّم لغتي جرحت عبثا فمها وحلقها وضحكت لذلك . وكان ذلك يكفيني إذ كنت أشعر فجأة بالحاجة الى التصريح بصوت عال بحقائق بديهيّة (كان النهج أسفل غرفتنا ضيقا ينتهي إلى أرصفة الميناء . وبالأمس أكلنا بعض « الاربيان » (4) المشوي في مطعم شعبي بآلميناء عرضوا علينا فيه أن تدخن الحشيش . فأجبت بغتة لا ؟ فنظرت الى « سيلين » نظرة فيها شيء من الاندهاش والتعجب ولما رجعنا الى الغرفة غسلت قميصي باللّافبو) . كانت « سيلين » تضحك . والسيارات تجري على حجارة طرقات الميناء محدثة صوتا كاصطكاك الاسنان المخنوق . وكانت النافذة مفتوحة . وتواصل بريق السّطحات وقد ذهبت عنها الشمس بعد أن صقلتها طوال النهار، حتي أصبحت تبرق في شبه الظلمة. وكانت حزم العشب الأصهب البارزة من خلال السقوف بين القراميد ترسم في تلك

الدعة والطمأنينة شيئا كأنه خدش عابر . فكنت أشرع في الكلام مناجيا نفسي ، وأما العشيقة فقد كانت هي الأخرى مفتونة . فتنها صوتي الرتيب المتعب المليء منذ ذلك الوقت بالرغبة في النوم الذي سأحاول الاستسلام إليه بعد حين . وأما أنا فقد كنت محصورا بين الهذيان اللفظي والصمت الرهيب أخشى أن تسيل كلماتي فتعاكس في طريقها تيار ضميري المحدد بمادته الخاطفة ذاتها والذي قد عصره تسلسل الأحداث في زمن هو في نهاية المطاف زمن وهمي خدّاع (ولكنها كانت تقول : الكلام أمر أساسي) . كانت جالسة على السرير متربعة متصدرة وقد اندست رجلاها تحت فخذيها الغليظين ، وكانت تبدو لي في جلستها تلك كأنها أحد العميان يبحث عاريا عن قوته أمام إحدى محطات الحافلات العمومية . ياله من شخوص أسطوري ! لقد كان دأبها أن تجلس على تلك الهيئة كلما أخذت تستمع الى أحد يتكلم إنّه الاستعداد للمشاركة والاتحاد في الشعور).

لو قلت لك إني لم أكن أحب شهر رمضان لكنت من الكاذبين . لقد كنا نحسن ترصد القمر وكان انتظار ذلك الشهر المقدس ملؤه الخير والبركة . فقد كان زاهر ينقطع عن شرب الخمر مدة شهر كامل ويعاود يّما الأمل ويعم المنزل جو من الاحتفال. فكانوا يبيّضون بالكلس جميع الغرف وبالخصوص جدران صحن الدار ويخزنون زاد شهر كامل من نادر المأكولات والمشروبات وأبهظها ثمنا . ولم يكن الصيام الا تعلة للتّفنن والتكثير في الاكل مدة طويلة من الزمن إذ كانوا يتداركون ليلا ما امتنعوا عنه نهارا بصورة اصطناعية فى الواقع. ياله من تبذّخ في الأكل وافراط في النهم. وكانت تحل فترة من المسالمة مع الأعمام . وأما المأدبة الرمضانية فتقام كل يوم حسب طقوس مضبوطة لا حياد عنها . أما النساء فينتابهن الاهتياج كلما دنا وقت الغروب منذرا بالخلاص وأما الرجال فيؤمون المساجد ثم المقاهي حيث يقيمون الحلقات يلعبون بالورق أو بالدّيمينو . وأما نساء الأعمام فيغتنمن

الفرصة لزيارة الاقرباء والأحباب وإما أمي فتفوح منها رائحة شذية . وأما الأب فكان يطلق سبيلنا . وأما زبيدة امرأة أبي فقد كانت تكفّ عن مضايقتي ومناوشتي . وكانت الشوارع تكتظ بالناس بمجرد الفراغ من تناول طعام الافطار . يالها من خلائق وياله من عياط وزياط ويا له من ازدحام ومن « كافشانطات » ! هؤلاء السواح ينشدون الفرجة على رقصة البطن المستوردة من مصر عن طريق تونس . الأضواء وأشرطة الزخرفة وباعة سقط المتاع المتصائحون والاقزام والبهلوانات والسحرة والخيالات الصينية والكراكوز والسيناءات في الهواء الطلق . لكم ضاقت صدورنا في انتظار حلول أفلام « زورو » (5) فيكون التناجي والضحك و « لونابارك » (6) المتلألىء الانوار والاراجيح .

وكنا قبل الخروج الى الشارع نؤم المسجد وقد عقد كل واحد منا منديلا نظيفا على رأسه . وكنا نلفي أعواد العنبر والتّقوى الحقيقية وصفوف المؤمنين ولكن النساء كنّ وراء الرجال في عقر المسجد . وتكون الحصر والزرابي الفخمة الثمينة وزجاج النوافذ الصافي وصوت الامام الرخيم . وتكون الأبهة والرونق في الزخارف العربية وفي زخرفة زجاج النوافذ . وكنّا في طفولتنا نظلّ دائما معجبين مبهورين بهذا العرض للبذخ والنور . ثم يأتي القرآن نسمعه فترتعد فرائصنا . (أكان ذلك خوفا أم هل غادرنا الشّبق في ذلك المسجد الزاخر بالتقوى والورع؟ لا ابدا، لم يغادرنا الشّبق ولا الشهوة الجنسيّة . كنا نجلس وراء النساء ونقيم الصلوات بوله ، ونتمتم عبارات التقوى والابتهال ونعبد مع ذلك اللحم الأبيض الناعم وقد تراءى بسرعة في فترة من فترات اللّوعة والالتهاب ثمّ غاب عن بصرنا في فترة من فترات التموّج والعبادة ثم ها هو من جديد يعود لحما امرد يتقد اتقادا. ثم يرجعنا صوت الامام الى عالم الواقع فنترك الأحلام في براءة . لم يكن في نفوسنا أيّة رغبة في الكسب أو الربح وإنما كان ذلك منّا عبادة متعددة

الجوانب عبادة الخالق وعبادة المخلوقات في آن . يا لهن من نساء عنيدات . ويالها من صلوات والهة ! فقد كانت إقامة الصلاة تعمي بصائرنا لا سيما أن الحركة فيها ذات فتنة وجمال .

وعند مغادرة المسجد يكون النسيم العليل والماء نغرفه ثم نشربه في أوعية تفوح منها رائحة النعناع والقطران في شيء من المرارة المبشر بالخير فيروي ظمأنا في الحين . ثم يأتي دور التجوال : الاسواق . الشوارع الواسعة . الابهج الصغيرة . حارات المومسات . الجنود . كنا نتجول في كل مكان بلا شعور لا بالرذيلة ولا بالفجور. وكانت المومسات المزركشات كالأقراص يصحن فينا ويطردننا مستنكرات لوجودنا بينهن ولرائحة المسجد التي كنا نجرها وراءنا فنستاء للصدمة ونطلق عليهن اسم «الراقصات»، وربما كان سبب تلك التسمية ما في لباسهن من إفراط في البرقشة وما في زينة وجوههن من مبالغة. ثم تأتي الدروب المظلمة التي كان علينا اختراقها قبل الوصول الى السّاحة الكبرى وقد تحولت لمدة شهر كامل الى ملهى عملاق . كنا ننظر فنرى « براريك » الخشب المتلاصقة « واليانصيبات » المجعولة للسذج من البشر والحفلات الشعبيّة ، ومحلات الرماية بالبنادق والنساء نصف العاريات يستدعين المتفرجين للتفرج على المشاهد المعروضة بالداخل ونسمع الموسيقى والضوضاء ونرى الأقزام البهلوانيين (الا أننا كنا نخشى السحرة) والمقاهي الفائضة على الطرقات التي استحوذ عليها الزّاجلون والغبار والحرارة والماء المجعول للايهام وباعة المرطبات والفطائر المعقدة الأشكال. الركوم وخشبات المسارح و « الكفيشانطات » حيث تحتشد الخلائق لالقاء نظرة شهوانية على سرة بعيدة القعر في بطن راقصة سدّتها بدرة مزيّفة لكنها براقة رغم ذلك ونرى النشّالين يترصدون فرائسهم . ونسمع الأغاني القديمة تجتر اجترارا مصدرها بلاد مصر أو غيرها من البلدان . هنا البضائع المعروضة من كلّ نوع عجيب وبائعات مساحيق تلميع الاسنان ومساحيق

قتل الجرذان . وهنا المشعوذون والعرافون الملتحفون بالخرائر المتلألئة الألوان والجالسون القرفصاء على الارض مباشرة يتكهنون ويكشفون عن الغيب لغيرهم من الناس فيقرأون على الرمل مستقبل غيرهم كما لو انقطع رجاؤهم من مستقبلهم الخاص . وهنا الأزدحام والنساء الخرقاوات، الملتحفات بأخمرتهن هائمات في ليل الصيف جماعات جماعات يخترقن الفضاء مخفورات رافضات لكل مراودة أو إغراء يعشن في نفسك الاشمئزاز والتقزز وهناك الاحتفالات الشعبية. لقد كنّا نتسلّل بلا تذاكر إلى تلك «البارك» الصغيرة التي كانوا يعرضون فيها الأفلام الصامتة فنشاهد « شارلو » الخارق للعادة . فيا لسعادتنا الناتجة بالخصوص عن الدخول بدون دفع الثمن . وكنا نصفّر تصفيرا ما ان يحاول ذلك الرجل الساذج تقبيل إحدى معشوقاته البدينات ونصرخ محتجين مستزيدين كلما انتهت حصّة العرض التي تدوم ربع ساعة فكانوا يضطرون الى طردنا ومطاردتنا بألعصا . ولكننا نعود فندخل من جديد ولكن مع دفع الثمن هذه المرة ندفعه من النقود التي آستلبناها من النساء أو طلبناها من الفلاحين السذج الذين لم يكونوا كرماء إنّما تجاوزتهم الاحداث وذهلوا لما كنّا نروي لهم من خرافات لا تعقل . ونادرا ما كنا نتمكن من الانسلال الى حفلات الموسيقى الشرقية فنصرخ صرخة الوجد والغرام كلما رفعت إحدى الراقصات السمينات الشمطاوات فستانها الى فوق فتركتنا حالمين ضائعين تائهين في التخمين في مسألة الجنس وخصوص فرجها الذي يكاد يكون مكورا كالبطن والذي كنا نجهل وظيفته الجنونية . بيد أننا كنا في الخارج نخشى على كل حال المتسوّلين إذ كانوا يجدّون في مطاردتنا بسبب منافستنا لهم في مهنتهم لدى الاجانب الوافدين على المدينة . وهناك باعة الياسمين الممشوقين الخاطفين اللّاواقعيين . وهناك باعة الشايّ سودا مثل الابنوس الحالك معسولي العبارات والاشارات راقصي الحركات وباعة البخور والدوار والقلق . لقد كانوا في غرابة أطوارهم يتذكرون سحر المدينة

ونزواتها تلك المدينة التي تغير إيقاع الحياة فيها فرجعت إليها هيئة شيطانية حبست نفسها في إطارها طيلة شهر كامل متنكرة لمن عرفوها على هيئة مغايرة ، نابذة من لا يجرؤون على حصارها وكانوا باختلاف انواع لحيّهم ومنزلاتهم يذكرون تلك الاحتفالات الليلية التي لا يمكن لايّ زنديق أن يتصورها ولو في المنام . لقد كانوا يعرفون أشياء كثيرة فيرهقوننا برغبتهم في إقامة البرهان لنا في منعرج زقاق أظلم أو في قلب الساحة العمومية بأن متعتنا ليست بمتعة حقيقية وبأننا في الواقع لا نفعل شيئا سوى محاولة سد أدبار الذباب الذي لا يحصى والذي كان يجرح الليل الشخين المخنق بطيرانه المختلج بصورة لولبية. لقد كانوا يهزون أكتافهم إنكارا ويبصقون على الأرض ويتمخّطون بين أصابعهم ويلوحون في رياء بإبهاماتهم التي كانت سلامياتها الاولى ملطخة بالحناء ثم كانوا يختفون . فنلحق بهم ونتظاهر بالتعلق والاهتمام بحقدهم وبغضبهم طامعين في أكياس نقودهم فكانوا يفتحونها أمامنا بهيئة أقرب الى الحتميّة منها الى التمثيل المسرحي فكنا نلتقط الدراهم التي تسقط من أكياسهم وننصرف منشرحي الصدر . أما هم فكانوا يستمرون في هزّ أكتافهم وفي توبيخنا وتعنيفنا ملوّحين بعصيّهم متخلّلين الجموع اللاهثة بجوار المواخير . إنّهم لم ينسوا يقينا التخريب والدمار الاستعماريين فلم يكن هذيانهم مبالغا فيه عمدا البتة بل قل ربما كان مكيفا تكييفا ما فحسب . ولكن لا أحد كان يستمع اليهم لأن تهديدهم كان ينذر بوخيم العواقب. الشعب المحاصر بمقتضيات الحياة اليومية الملحّة في الطّلب .

وكنا ننصرف فنستعمل دراهم العرّافين والمتسولين وقد تحولوا الى مردة مزبدين مرغين، لمشاهدة السحرة فنترك في الخارج المبشّرين وقد جن جنونهم لأحتقارهم للمشعوذين احتقارا لا يرضون معه على دفع ثمن مكانهم والالتحاق بنا في ظلمة القاعة واغتيالنا في متسع من الوقت وذلك لأن الضوضاء على الركح كانت تبلغ من القوة المصمّة للآذان درجة لا يمكن لأي انسان معها أن يسمع صوت السكّين تخترق لحمنا . يالهم من جبناء

أنذال ! هم الذين لم يكونوا يجرؤون على نكث عهدهم الذي قطعوه على أنفسهم والقاضي بأن لا يدخلوا أبدا حانوت سحّار متحالف مع الشياطين المردة ومع قوى السلطة والنفوذ. فكانوا إذن ينتظروننا في الخارج، ولكننا كنا نعرف كيف نتملص من مطاردتهم فنضللّهم خلال الأزقة والمتاهات الملتوية حتى نصل الى جوار المدينة الاوروبية المتلألئة انوارا وقد غزاها رجال الشرطة بوجوههم الحمراء المتوهجة فعاثوا فيها فسادا . ولما كانوا يكرهون رائحة الخمر في أفواه الزنادقة فقد كانوا يفضلون العدول عن مطاردتنا والرجوع الى الحفل والازدحام لمدّ أيديهم للصّدقة . وكانت السهرات تطول الى ساعة متأخرة جدا من الليل فنغتنم فرصة هذه الاجازة رغم مساومات الكهول الذين كانوا يثقلون كواهلنا بالصيام . فقد كان في إمساكنا عن الطعام ، الذي كنّا نغالي فيه ونوصله الى أقصى حدود الطاقة مبعثا لهلعهم وكنا نتعمد الانتقام من وقاحة الصائمين بأن نعرض على الجميع مظاهر مرهقة ووجوها شاحبة . وكانوا يتوسلون إلينا بالانقطاع عن الصوم ولكننا نصيح ونصرخ : يا للفضيحة ! يا للعار ! يا للكفر والالحاد ! هل تريدون حملنا على عدم القيام بما أوجب الله ؟ كلّا وألف كلّا ؟ فكنا بذلك نبقى متحكمين في المساومة والمزايدة مع الاقبال خفية بنهم حتى التخمة على لذائذ المأكولات وبقايا المآدب التي كنا نختلسها في آخر لحظة من صندوق الفواضل الذي كان المتسولون يجتمعون عليه في الصباح الباكر . فكانوا اذ يجدونه فارغا مما يشتهون يتنغصون لذلك ويظنون أن في الامر خدعة أو أن سي زبير قد أفلس فيجعله ذلك في نظرهم وفي الحين فاقدا لكل عصمة . وكان سلوكنا يتأثر بهذا الصوم الكاذب العنيف في آن . فقد كنا نمنح حقّ السّهر الى ساعة متأخرة من الليل وذلك لأن رأس العشيرة كان يغلق الباب على نفسه في « فيلته » ولا يبارحها بالليل أبدا . هل كان معنى ذلك أن الوالد قد تاب ورجع الى الله ؟ أجل ولكن توبته تلك كانت تدوم شهرا واحدا فقط . أي ما يكفي من الوقت فحسب لاعطاء الله حقه وتملّ

نفسه زوجته الجديدة . أمّا بعد إنقضاء الشّهر فيستأنف قيلولاته الفاسقة المستهترة مع عشيقاته الاخريات .

الى جانب الاحتفالات كان هناك بقية الأمور الأخرى ، مثل غزو النساء وسيطرتهن طوال النهار على دار الاسرة وقد حكم عليهن بإرضاء شهوات الرجال الغذائية. فكنّا نطارد على سبيل اللعب واللّهو النساء اللاتي كنّ يأكلن خفية في شهر الصيام حتى اذا ما رأينا إرتعدت فرائصهن خجلا وارتباكا . أهو الحيض ؟ لا لم تكن هذه الحجة كفيلة بإرضاء حبّنا للتشفّي والعقاب إذ كنا نحتاج الى سبب أكثر جدية من ذلك . الا أننا والحق يقال كنا نخشى معرفة السبب الحقيقي إلى حد أننا كنا نفضل إيقاف اللعبة إيقافا مفاجئا عند ذلك الحد ، فيتعاظم لذلك يأس النساء الآثمات اذ لم نترك لهن متسعا من الوقت يستطعن فيه إتمام تفسيرهن لسلوكهن وتقديم الأسباب والأعذار . وأما زاهر فقد كان لا يريد أبدا مشاركتنا في مثل تلك الصبيانيات . كان أكبرنا سنا (ويصرخ قائلا لي : أتريد أن أرسم لك رسما بيانيا في الموضوع أم ماذا ؟) فكنّا نسكت عند ذاك ولكننا نشعر من جديد في صلب المؤامرة بذلك اليأس ـــ (وهو إما فطري أو مكتسب اكتسبناه من تعاليم زاهر المحكمة) ـــ نشعر باليأس المتولد عن عدم قدرتنا على فهم تلك الفوضى التي كان دم حيض النساء يثيرها في نفوسنا . فقد كن لا يصمن بسبب الحيض الشهري وكنا نعتقد أنهن بذلك خاسرات خسارة نهائية فكان علينا إذن الفرار منهن . وكانت يمّا يساورها القلق إذ ترانا نتحمّل مسؤولية مثل هذه المظلمة إزاء النساء ونفعل ذلك في مثل هذا المستوى من التنكّر . لقد أصبح إتقاء الدم أمرا أساسيا فكنا نرسم في جميع الأماكن فروجا متورمة ملطخة بالدم وذلك حتى نضعّف من مفعول هذا الوسواس الجنوني الغازي لأنفسنا المحاصر لها (ترى لم كنا نربط بين صورة الدم هذه وبين فكرة الموت المبهمة المفرطة

في التجرد إفراطا يجعلها غير قادرة على النّيل منّا نيلا حقيقيا رغم أنّها كانت تكتسب شيئا فشيئا عنفا يبلغ منا مبلغا نبقى معه مكسورين ملتهبين صردين الأسابيع تلو الأسابيع ؟) فكانت الدار تصبغ جدرانها بتلك الرسوم فتذهل لذلك النساء وقد شددن إلى قانون التنظيف بالماء شدّا. وكان زاهر من جهته يشنّ عليهن حملات مرعبة ويعرض علينا خطته الرامية الى التخلص من شر الحيض الذي كان يصرعهن بدون أي سبب ظاهر . فقد كان أخونا الأكبر في الواقع يائسا ومدفوعا الى نوع من العمى الفكري . وكان يخيف النساء الحاملات للدّم اللائي لم يكنّ يفهمن إنشغالاته الا نصف فهم . وكثيرا ما كان يردد : « اني لم أعد أرى شيئا » ويصطدم بأثاث البيت وكان عندما تحاول يمّا أن تشاركه في خطتّه تلك وأن تأخذ بيده على سبيل اللّطف لتوجهه خلال الدار المكتظة بالأشياء والحيوان يصرخ صراخا عاليا تختار له يمّا حيرة جدّية . « لا ينبغي أن تمس انثى يد ذكر قط » هكذا كان يقول لسامعيه .

وكان جو الاحتفال ينحلّ تدريجيّا في شيء من التوتر الجهنمي وذلك بسبب الريبة التي كان أخونا الأكبر يبثها في الجّو عمدا فيعوي في وجه إحدى أخواته وهو يتشمّم رائحة ذراعيها العاريين : « رائحتك رائحة الدم والصيام » ويضيف : « اغربي عن وجهي فأنت الحزن الكدر ! » ذلك لأنه يحبها كما كان يقول ولكنه لم يكن قادرا على احتمال موقفها المستسلم لذلك القدر الذي كان يشقّ النساء من أسافل بطونهن الى أردافهن ، وكانت سيدة تقول : « إنّه مجنون هذا الأخ ! أليس يعجبك ان أقبل نفسي كما خلقني الله ؟ » فيتمتم الأخ « زيّي ، زيّي ، ياخرا ! » لقد كانت تلك هي صورة ردّ فعله كلما اختلطت عليه الأمور أو كلما أفحم فلم يعد يدري ما يقول . وأما سيدة فقد كانت تقضي الأيام ثائرة في تيه وجلال تمشي كالعاهل العظيم فتضع قدميها الحافيتين بهدوء الواحدة تلو الاخرى على

البلاطات الباردة في الغرف الداخلية وترتفع فتسمو عن مشاجرات نساء الدار الأخريات وتتحدانا قائلة : (ترى هل ينم وجهي على أنني ممن يصومون رمضان ؟ يا لكم من تعساء يرثى لحالكم ، أنا لا أصوم إذن فدمي لا يسيل) تقول ذلك ناهقة فنطرب ونهتز. وأما زاهر فقد كان واعيا بالخطر الذي يهدده بسبب انجذابنا الى اختنا انجذابا لا جدال فيه ونحن أحسن أتباعه ، فكان يحاول أن يحوّل إندهاشنا ويغيّر مجراه فيطفق يسب الدين بعبارات بذيئة صائحا في وجه الأخت : « تنحّي من هنا وإلّا بلت على هين أمك القذرة ؟ » فتجيبه أختنا « يالك من صفر ومن لا شيء الاولى والأجدر أن تنظر الى ذاتك . أما أنا فلي ثديان والحمد لله !..» كانت حجتها تلك حجة دامغة وما عسى أن يكون رد فعل زاهر عليها . كان يحملق فينا ويزفر قائلا : « يالها من بائسة يرثى لحالها » يقول ذلك ونحن واجمون لا نبدي حراكا ننتظر ردّه لكي نحكم الحكم الفاصل . فيردد : «يرثى لها. إنها لا تفهم أنها مصابة مثل الأخريات تماما وأن آفتها فظيعة جدا لا سيما أنّها لا ترد الفعل . فألّا تصوم في رمضان ليس غاية في حد ذاته بل الغاية هي أن تربط فعلا كهذا بسائر أفعال الثورة . » وعند ذاك كنا نسترجع ثقتنا في أختنا الاكبر فقد فاز وانتصر لسبب واحد بسيط وهو أننا لم نفهم شيئا من خطابه المتشعب العسير . فكنا نصفق تأييدا ، ولكن أختنا كانت تبدو لنا خارقة للعادة على كل حال اذ تتصرف باحثة تحت قطعة عتيقة من الاثاث على بعض القراميل تصل بها شعرها الحارق للعادة طولا وسوادا حاملة لذلك الغضب البنفسجي اللون الذي كانت تعرف كيف تضمّخ نفسها به تضميخا. كانت يقظة منتبهة بالمرصاد على الدوام تناوش العالم المعادي المجاور لها عن طريق جيشان يخافه جميع من أراد ان يطاولها أو يباريها ولكن ترى ما هي الحجة التي خلقتها بصياحها وارعادها ؟ لا حجة البتّة . ذلك ان زاهر وان كان قد حصر مؤقتا بين أنياب الحجّة المتعلّقة بالثديين فاننا كنا عالمين علم اليقين بأن اية عملية تطعيمية من

شأنها في الواقع أن تسد فيه هذا الفراغ .

وكنا كعادتنا لا نبلغ أبدا حد المشادة العنيفة. ذلك أن زاهر كان يغادر المنزل ويغيب عنه طيلة عدة أيام ثم انه كان يعود من جديد على حين بغتة يجر معه وجها كوجه الصائم وهيئة عتيقة رثة ذات جلال ووقار تضفي عليه باطلا مظهر الانسان الذي حمّل ما لا طاقة له به . أما نحن فاننا لم نكن نتجاسر حتى على اتهامه بأنّه كان يؤدّي فريضة الصّيام قصد اتقاء العقاب في حين أننا كنا من التابعين المتسامحين معرضين بذلك أنفسنا في كل آونة الى الضياع. لا لم نكن نجرؤ على مهاجمة سيدنا بينما كانت سيدة تلك الآثمة العنيدة تعرف كيف تستغل انتصارها بدون غوغاء ولا تبجّح. فكان ذلك يوقع الأخ الأكبر في حالة من الخرور التام اذ كان يظنّ أنه لم يرجع الى المنزل الا لاثارة الخزي والسخرية . ترى ماذا فعل أثناء غيبته ؟ كان يقص علينا فيقول انه قد امتطى القطار (وكان من عادته بالفعل امتطاء القطار) وانه سافر كذلك على نفقة بعض العملة القبائليين العائدين من فرنسا استحسنوا اشهار محفظة نقودهم وقد اكتظت بالدراهم الى درجة الانفلاق بغية اثارة طمع بقية المسافرين البؤساء الذين لم يشربوا في حياتهم البيرة قط . وكان زاهر يعرف كيف يتملق كبرياءهم فيختلس منهم بضعة فرنكات يشتري بها وجبة متواضعة طالما طمع فيها الا انه كان يتهكم أمامنا بهم فينتقد ربطات عنقهم ومعاطفهم الصوفية الغليظة التي كانوا يستمرون في ارتدائها رغم حرارة صيف الجزائر الخانقة، غايتهم بذلك ان يقيموا البرهان الساطع في أعين سكان القرية على اثرائهم رغم ما فيه من مطلق التصنّع . وكان هؤلاء العملة في الحقيقة لا يرجعون إلا لمدة شهر الصيام فحسب فكان زاهر يمقت فيهم ذلك التزمّت اذ كانوا يتحدثون عن البلاد الفرنسية التي رجعوا منها بملء اشداقهم . ترى هل كان زاهر يعترف بأنه قد واظب على الصيام اضطرارا طيلة تلك الأيام التي قضاها مسافرا على متن القطار ؟ لا وانما كان يوهمنا بذلك مجرد الايهام

بدون ان تبدو على محياه هيئة من عذّب جسده بكبح شهواته. لقد كان متفننا في فن الايحاء الينا بأنه لو استفز القوم لعمل من الاعمال لتعرّض الى الاغتيال في الحال فكنا نهزّ رؤوسنا علامة على التصديق والايمان. بيد أنه لم تكن عالقة بذاكرتنا في عقر ضمائرنا الضيقة الا القطارات وقد اندفعت كالصاروخ خلال الحجارة والاعشاب مشوشة مظاهر المدن والتجمعات السكنية مخترقة بخطوطها سلام الشواطىء ووداعة البحيرات الساحلية وكان ذلك يمكننا من التخلص بدون ألم من كل الخيانات والتواطؤات التي كانت لرئيسنا ، وقد ارتد فالتحق بصفوف العدو لمدة بضعة ايام ذلك العدو الذي طالما أثبت أمامنا حماقته وتصرّفه المضحك . على ان سرده لقصّته كان يخلصه من العقبة والحمد لله فكان يسترجع سيادته التي وقع فيها النزاع برهة من الزمن في صلب جماعتنا . وكنا نهتف له ونصفق اذن لا لاعتقادنا بأنه قد قام بمعجزة مشهودة ولكن لاعترافنا بأنه قد أجاد التخلص من الورطة التي وقع فيها وذلك حتى ولو أن تنقلاته خلال البلاد لم تتركنا غير مبالين .

لم تكن « سيلين » ممن يتقنون الانصات الى الغير ولكنها كانت تعرف كيف تحفظ باستقامتها الاصلية فلم يكن ليردها عن ذلك شيء حتى ولو كان ذلك الشيء اهتمامها في الظاهر بقصتي الاخطبوطية التي لم تكن ترى خطرها اذ كانت تحسبني مدعاة للشفقة والرثاء وانسانا صيّاحا زعّاقا في آن . لقد كانت تبتغي وهي مشدودة الى الكلام الخارج من شفتي أن تبقيني خارج العالم فتتسبب في خرابي وتحملني على التمتمة والتعتعة . ترى ما عساني فاعل أمام هذا الصمت بل قل أمام هذه اللامبالاة التي كانت تعينها على تعزيز وحدتها الشخصية وعلى فصلها عن وحدتي أنا ؟ لقد كان في الواقع يلذّ لها الوقوع في صمت لا رادع له فتظل عبوسا قمطريرة منفصلة عني تمام الانفصال وذلك بالرغم من ذلك الجمود المفجع الذي

كانت تفرضه على ناظري وعلى جسمي. وقد اصابه الارهاق بغتة وداخله التغير والانقلاب فجأة. لقد انتهت الهدنة ولم يبق لي الّا اختياران: فإمّا أن اتمادى في التشبث بقصتي وخرافتي أو أن اسكت فأثير بذلك شجارا بيني وبينها تكون عواقبه كالعادة غير واضحة المعالم تماما . كانت مستمرة في عدم التحرك . ياله من جمود خرافي عجيب . ولكن طريقا ثالثة كان من الممكن أيضا ان تنفتح امامي : هي طريق النّوم الذي من خلاله كنت سأحاصر الضغائن. وأما هي فقد ردّت على صلابتها الجامدة وعنفت فيه استسلامها ومطاوعتها فكانت ترد الفعل فتسيء ردّه اذا لم يكن في القضية ما يستحقّ الانقاذ . وعند ذاك كانت تطفق متوسلة اليّ اول الأمر لتجعل الحلول السّهلة الى جانبها ثم ما تلبث ان تتنكد فتعود من جديد الى العداء القامع المكدر، فلم أكن أستطيع اخراجها منه... وينتهي الليل في خضم الكوابيس تصيبني فتبهرني وانا ألاقي بني جنسي ورهطي وقد جاؤوا ليخلّصوني من براثن « سيلين » تلك الأجنبية مرتين مرّة بفرجها ومرة بلغتها الاصلية ، « سيلين » التي كنت اجتهد اذ ذاك في الانقطاع عن الحديث إليها مدة ايام (متعللا بأني نسيت حوادث قصتي) فكان ذلك دأبنا حتى تكلّ ذراعاي ــ وكنت استعيض بهما عن النطق بالكلام المقطع ــ عن التحرك والادلاء باشارات تعبر عن غضبي وعن عسر اثباتي لذاتي اثباتا تاما لدى الحبيبة المستاءة الحردة .

وكنت استأنف الحديث من جديد فأسعى بإثرتي لا الى تكسير الملزمة التي كانت تضغط بها على عضلاتي بل الى البحث في هياكل الكلمات قصد استخراج ذلك الدّوار الضروري للنعاس النهائي، ذلك انني كنت اشتبك في خضم أشد العلامات اللفظية حدة وخبثا الى حد الاتحاد معها والضياع فيها ، وقد وبّخ انفاسي كساد حالي وميله الى الانتقام وصار وجهي في وضع ميؤوس منه ولكن حالتي تلك كلها كانت لا مواظبة فيها بل كنت قد سلّمت الى عالم حركته حركة غريبة وقد سلّط عليّ بدون

هوادة وسواس تمثل في صورة ذلك « الكاهن الأكبر » الذي كان ينازعني احلامي وأوقات استيقاظي الثقيلة الوطأة حين يكون الشك مطلقا وحين لا يعرف المرء كيف يتردد طويلا بين الحق والباطل . لقد كان لزاما عليّ كلّ يوم أن أقحم نفسي في الواقع العسير وقد اعتدت جميع المصائب الغامرة للمدينة، تلك المدينة التي جنّ فيها جنون عربات الترمفاي الزرقاء فلم تعد تدري رأسها من ذنبها ولعلّ مردّ ذلك كان تلألؤ البحر العجيب الذي كان يبتلع حواجز الميناء مرتين في اليوم الواحد عند مشرق الشمس وعند غروبها . ترى هل كانت تدري أن قصتي قصّة وهمية ؟ لقد كانت تعرف عن طريق شبه حاسة سادسة أن بي نزعة الى الولع بالخرافات والاوهام وأن الحياة في منزل سي زبير لم تكن في الواقع على ما لمّحت اليه من غرابة مضحكة. أكان من اللازم التأكيد على أن نفاق الصائمين لم يكن إلّا وليد خيالي الخصب ؟ لا لم تكن « سيلين » تجرؤ على الوصول الى هذا الحد لانها كانت بما وصفته من مآكل ومآدب وتفنن في الطبيخ العملاق عليمة وكانت كذلك تعرف تفاقم امراض المعدة وأوبئتها في شهر الصيام، تلك الفترة المقدسة من السنة فرغم اللّذة القصوى ورغم هجوم الزبائن على المأخورات المكتظة فإنّ بورجوازيي المدينة كانوا يشعرون بأنفسهم كأنّهم زهّاد أو شهداء فكانت تبدو حول أعينهم دوائر سوداء مرعبة تدل على الضنى وكانوا يوحون لمن يستمع اليهم بأنهم كانوا يتألمون شديد الألم الجسدي بسبب امساكهم عن جميع الشهوات شهوة البطن وشهوة الفرج لقد كان زاهر متفننا في فن مباغتة هؤلاء الناس وهم من كبار تجّار المدينة فينصب لهم الكمائن في أطراف الأزقة والدّروب في حي القصبة حيث كانت توجد معظم دور الحناء ، إلّا أنه كان يشدد الحراسة عليهم قرب دار كانت تديرها امرأة فرنسية كانت نساؤها الجديدات المجندات للعمل مشهورات في كامل اصقاع البلاد بخصالهن عند اللذّة الجنسية القصوى. وكانت تلك الدار أيضا المحل الوحيد الذي كانت القحاب فيه يتركن

زبائنهن يقبّلونهن على أفواههنّ فكانت الأسعار جد مرتفعة. كانت تلك الدار يتردد عليها نخبة من الأعيان كان يطيب لهم المكوث بها لقضاء ليالي رمضان الطويلة الحارة إلا أن زاهر كان ينغص عليهم كل شيء اذ كان يسكر حتى اذا ما لعبت الخمر برأسه طفق يهجو هجاء عنيفا كبار التجّار وقد فضح أمرهم فأصبحوا يتعتعون تعتعة ولا يدرون ما يقولون . لقد كان يذهب به الأمر في نهاية المطاف الى حدّ استعمال وسيلة المساومة معهم فاما أن يفضحهم وإمّا أن يعوّضوا عن سكوته بدفع ثمن جميع كمية الخمر والكحول التي يطلبها طيلة السّهرة .

لقد كانت « سيلين » بجمودها وتصلبها تدخل في نفسي حنقا عظيما ، لأن تصلب هيئتها يصير في نهاية الامر مدهشا غريبا عند انتهاء الليل وقبل مطلع الفجر البارد بردا قارسا لا سيما أنه يبشر بحرارة الصيف وقيظه. لقد كانت في واقع الأمر مفتونة فتنتها هيئتي وإشاراتي الايمائية أكثر مما فتنها التنديد الذي كنت ابالغ فيه قصد جعله أشد حدة ووقعا . لم تكن ترى في اشاراتي المطلقة العنان وفي عيني الجاحظتين الا دنوّ نوبة من الجنون من شأنها ان تفرق بيني وبينها من جديد . فهل سارجع الى المستشفى ! لقد كان جلدي يقشعر وترتعد فرائصي خوفا من فكرة الرجوع الى المستشفى ولكني كنت اعلم أن « الأعضاء السريين » كانوا لي بالمرصاد يتحينون أقل زيغة مني ليبعثوا بي الى سجن الأشغال الشاقة بدون رجعة هذه المرة . فكانت عند ذاك تطفق باكية لعلمها أن حياتنا معا أصبحت لا تطاق. وكنت مع ما بي من حقد وضغينة أتقبل دموعها بصدر رحب ذلك أنها وقد خرجت من انبطاحها وجمود حركاتها كانت تندفع كالصاروخ تبغي تحقيق مطلبها ومبتغاها الاعظم : السعادة !

كانت أمي على علم بالامر ولم يكن بها لا ثورة ولا خنوع ! بل كانت تصمت فلا تدلي بشيء ولا تجرؤ على القول بأنها موافقة على القضية . لم يكن لها حق !.. انها مرهقة منهوكة القوى . ان قلبها ليثورم ألما . فكانت تشعر بشيء كأنه نتوء فطري له شكل البصل. الوشمة تقسم الجبهة قسمين فيها الغظاظة والحقد. كان عليها ان تلزم الصمت فأبي لا يسمح بأي قول أو تعبير. ما أتعسك يا أماه! أنت التي لم ترتابي في الأمر ولم يدخلك فيه الشك . فهل أخذت أمي وشايات عجائز المنزل مأخذ الجد ؟ ان الخوف كالقضيب قد شقّ رأسها فغدا لا يخرج منه أي تعبير سوى شيء من الضوضاء الغامضة المبهمة . إن أمي على علم بالأمر. وان بها لقلقا ألكن . كانت تخفف عنها من حمل الالفاظ فترمي بها كما كتب لها ذلك وتنشد الفرار وتبحث عنه في الدوار ، ولكن لا يجد جديد . امام جفنيها نور لاصف ومضيه متناوب تناوبا صيره الشك والحيرة لا يطاق أو يكاد . كانت لا تعرف كيف تحيط بالواقع فتظل الكلمات كأنها متجمدة في رأسها . انه ضرب من الفتور المخدر أحسن تشحيمه فصار يخلّف عند الاستفاقة من النوم بقعا من الزيت (أم ترى هل هي من اللعاب ؟) انه

الجبن قبل كل شيء الجبن بالخصوص .

ان امي لواقفة تصارع انجذابها الى الاغماء . ان مظاهر اللامبالاة لتلصف في الغرفة الباردة والأب مستمر في الأكل ببطء شديد كعادته ، وكل شيء في نظره يجري ويستمر في جريانه حسب النظام المحتوم المتوقّع . ان الأب ليلذّ له ويطيب أن يمضغ ويلوك اللحمة في ايقاع منتظم وهو يستثير الذبان وقد وقع في الفخ فطفق ينحدر بدون رويّة على جانب قطعة من البطّيخ المصفر وها هي يمّا تنظر الى ذبابة تتعثر اذ تصطدم بعصارة البطيخ الثخينة وقد سالت على جوانب الصحن . الذبابة تنهمك في قضاء حاجتها وتعطف يمّا على هذا الاجتهاد وهذه الحركة التي لا طائل من ورائها . الذبابة توشك على الهلاك بصدرها الفخم الممتلىء وعينيها اللطيفتين جدا . وها هو ذا الارتياع المفاجيء ينتاب يمّا امام موت الذبابة المحتوم . وتشعر يمّا بشعور عابر هو شعور السهولة واليسر ــ كأنه الشيء يكون في متناول يدك توشك أن تلمسه ولكن الوهم سريع لا يدوم إلا قليلا . أهي الوحدة ! لا بل أحسن من ذلك انه الضيق . ربما الوشم هو الذي يضيّق عليها صدرها ! انها تشعر بنفسها كأنها مبقورة ، انها تتعلّل بالنظر الى رجليها العاريتين تعوض بذلك عدم الحركة ؟ ولكنها لا تجرؤ على النظر الى الجليز الباهر . ان الغرفة لعظيمة شاسعة ، وها هو ذا سي زبير مستمر في الأكل . المائدة قصيرة والآنية من نحاس براق . والجو شبه ظلمة كثيفة . وبخار الاطعمة الساخنة يقع الكؤوس عرقا. وهاهي يمّا تتردد. إنه الضيق ضيق النفس من فرط بساطة الكلمات التي ستتفوه بها . انها لا تعرف كيف تعقد العزم . ثم هذه الأوهام والخيالات ! ينبغي عليها بالخصوص الا تأتي بما قد يكون فيه وقاحة من الوقاحات لكي لا تنفّر الآباء والاجداد . أهو الصمت اذن ؟ ان الألفاظ والكلمات لتتكوّن ثم تتلاشى وتتهافت في حلقها الجاف المتلهّف ، فتفضّل يمّا رفع آنية الطعام عن المائدة . وزوجها لا ينبس ببنت شفة ، ذلك أنّ تخليل الاسنان عملية

فنّية أكثر ممّا هي لذّة من اللّذات .

(في المدينة يتجول الناس هائمين على وجوههم فيبصقون في فروج القحاب لتبريدها. الحرارة!... إن للرّجال جميع الحقوق ومن بينها حق تطليق نسائهم . الذباب مستمر في تسلق جوانب الكؤوس التي غشّاها البخار فيغرق فيها . ليس ثمة أيّة نشوة من نشوات السّكر . ان أمي لا تحسن القراءة ولا الكتابة . ذلك هو الجمود وتلك هي الالتواءات في الدماغ . ان أمي وحيدة وجها لوجه أمام مؤامرة الذكر وقد تحالف مع الذباب ومع الله)

ما أشد شبقيّة قيلولات ضفاف البحر الابيض المتوسط !

حينما ينتهي الأب من تناول الطعام تنتظر يمّا أمرا منه ، ثم ها هي ذي تخلع ثيابها في صمت وسكون وبطء شديد مثلها كمثل الماشي الى المشنقة . ان جسمها لثقيل صيّرته القيلولة اثقل واثقل . كانت في الثلاثين . وها هو سي زبير يداعب بيده بصورة عابرة عانتها المرداء ككف اليد واما هي فترفض وهب نفسها له وتتركه يفعل . انه التشتت تشتت حواس الشهوة على سرير ملطخ باللون الاصفر الأمغر. فهل كان ذلك تسفّلا ؟ ام ارتعادة عضلية مبتذلة ؟ ان عملية التواصل الجسدي البديهية أو تكاد أصبحت مسفسفة. ها هي ذي يمّا قد أخذت ولو تمّ لها ما تريد لكانت تصيح وتولول لذة واهتياجا ولكن كل ما حصل هو زفرة من زفرات الاستلذاذ والراحة افلتت من فم أبي. ها هو ذا اللّحم يتراكم. وها هو شيء من المني على فخذ يمّا شاهد على العملية التجشئية وها هي يمّا وقد أخذها شيء من البلاهة المزيتة تحاطر فتغفو غفوة ذلك أنه عليها الآن ان تلبس ثيابها وتغادر الغرفة . وأمّا الأب فقد استسلم الى النوم .

إنّها القيلولة ، الرجال نائمون ويمّا على شافة الثورة . والاطفال يتهامسون والهواء دبق . العرق ! ... إنّ صدور النساء لتسيل سيلا . واما خارج

المنزل فان الثياب المغسولة مازالت منشورة لتجف.وأما الطلاق فقد اصبح أمرا محتوما ؛ ذلك ما قرره أبي . ان فكرة الموت آخذة في الاختمار في رأس يمّا ولكن احتضار الذباب في عصارة البطيخ ذكرتها بشناعة الموت . الثورة ! والقطّ يمر يتصبص بذنبه انه يريد الجماع . وتغطي يمّا فخذيها الابيضين بأسفل تنورتها . إنه شعور يخلف برودة غير واضحة في اطراف الاظفار. إن سي زبير ليعلم بأن الله معه ولذلك فقد لفظ بالجملة التي تتلخص فيها رغبته في التزوج بامرأة ثانية بكل هدوء وسكينة . وأما يمّا فليس معها شيء . إن إلاهها هي إله بين بين ، يرضى بالعدالة الهامشية ! وهكذا فقد قضي الأمر . إنّ يمّا لم يخدعها الامر وهي تعرف أن عليها التمسك بالكرامة والتعود على فكرة الفراق والهجر .... الرجال عند انتهاء القيلولة يغتسلون ويتنفّضون ويتنخّمون بدون احتراز واما الاناث فيختلجن حولهم اختلاجا لسعادة ازواجهن المتقطرة ماء واما يمّا فهي رغم تطليقها منذ زمن قريب مازالت تهتم براحة سي زبير .

عند انتهاء القيلولة تتنحّى الشمس عن موقعها غير القار على زاوية السطح الباهتة اللون ذلك السطح المقشر تقشيرا وتخرّ ثقيلة في صحن الدار المترامي الاطراف . المرمر أبيض ناصع . دوار القطط المتخثة المفضلة للزرابي الغليظة ولأحضان النساء . الحوض يسيل من نافورته ماء سخنته آلاف التخطيطات الشمسية والابواب مصبوغة بالأخضر والحديد المصنوع لتسييج النساء وراء قضبانه وهن متعلقات بالشبابيك التي كل منطلقات النظر منها مآلها الفشل . والمرمر الملتهب الباهر للابصار . والبلاط الاحمر المخطط بانعكاسات ضوء الشمس مثل الجبهة المعذبة والرخام المحرق الذي متى ذهبت الشمس مكّن النساء من الاغراق في اللّذة والارتياح وافخاذ النساء وقد غزاها البرد. والاغتلام المستتر الخفي . ان القائلة لمستعرة استعارا يجفف حبات البطيخ في لمح البصر . يا لصبر النساء اللائي يجتهدن في

تقشيرها فيأكلن لبّها الابيض الخالي الطعم . وفي نهاية النهار ينذر الطقس بدرجة من الحرارة تبلغ حدا لا تكفي معه ملايين السطول المملوءة ماء باردا الى اعاليها من اطفاء جميع الحروق وجميع ما في المرمر من صهبات .

ان ابي ان هو في الاصل الا نقطة انطلاق . فما ان يخرج متوجها الى الحانوت حتى تستأنف النساء ثرثرتهن المزقزقة أشد ما تكون الزقزقة فتأسف عند ذاك القطط على انقطاع الصمت الذي يخيم في العادة على القائلات . ويستفز الاطفال امهاتهم ويندفعون الى الشارع وهو المكان المحظور عليهن ولوجه حظرا مطلقا ويسيل الماء أيّما سيلان ويعود النساء فينظفن من جديد ما صقلنه في الصبيحة . يا له من اشتغال لا طائل تحته وليس يصلح الا للتخفيف عن أجساد العذارى السجينات من وطأة أكال الشهوة الوبائي . انها السّآمة تنزل كبيا كبيرة . انه التوتر توتر الاعصاب فتشحذ المواقف والاحداث المخالفة للمألوف وتتكاثر فيوض الخواطر والاشياء ويسمع للماء شخير وخرخرة كريهة داخل انابيب سيلان المياه القذرة . وتتقاطر الفروج عرقا فتفوح لذلك في الجو منها رائحة أشد قوة . انها الاعمال اليومية . إنه نفاد الصبر العارم ولكن لا شيء يجد . فترى اللعاب يشخن في افواه النساء . انها حمى الأبهة التي في الجو فينقلب كل شيء ويصبح استحضارا لذكرى الشهوة الجسدية فلا يخفي ذلك احد لأن الضياء يترك القوم خافقين . انه الاختلاط والتمازج المريب المبلل بالماء المنتضخ الفائر مثل الصاروخ ماكرا خبيثا ، مثله كمثل اللسان : لحمة خضراء متعفنة . انها السياط . النساء يغسلن . النساء يكنسن . النساء يتصايحن ويتشاجرن . ثم على حين بغتة ترى الحركة تفقد من سرعتها فتصبح حركة ملّحة مخترقة للاعماق (إن هي إلا توطئة للجماع) واخيرا يأتي التهيؤ بالنسبة الى النساء فيغتسلن وينقين ويحلقن شعر عاناتهن ويتبادلن النكت والملح بشأن ما ينتظرهن في فراش ازواجهن ويتناجين

بالمغريات لاثارة الحسد والجشع في قلوب العذارى الصّامتات الواقفات من ذلك موقف الاستنكار والسخط .

الاحتفال . الطقوس . لقد شاركت أمّي في الاحتفال التقليدي فلم تعد تشعر بالخوف من ذلك . كانت الالفاظ تلامس صفحة قشرة دماغها ثم تفلت منها كما جاءت مثلها في ذلك مثل الفقاقيع الهوائية الخاوية . لا ثورة ! ولا تفكير ! ان ضرب الحصار عليها كان امرا لازما محتوما سيدوم مدى الحياة . إنه حبس سيقدم قدوة حسنة للارامل المحبلات وللمطلّقات الثائرات على العرف والانضباط . ان يمّا كانت تعرف ان شرف العائلة متوقف على ذلك . ثلاثون سنة لقد آن الاوان لكي تنهي حياتها تلك ، حياة امرأة يزورها الذكر الجامح زيارة زوجية في سكينة ووقار ، ذلك الذكر الذي كان يرضي ايضا شهوة عشيقتين أو ثلاث كانت احداهن فرنسية لم تأت لتلك البلاد الا لغاية واحدة هي التثبت من قوة رجال البلدان الحارة على الجماع وتعاطي الجنس . أمي ! ان هي الا الوحدة والعزلة ! بل ان هي الا الانغلاق والانكماش أتعس من انغلاق المحارة على نفسها . إن هي الا فرج بور . في سن الثلاثين ستتوقف حياتها مثلها كمثل عربة الترامفاي البطيء الضيق الانفاس يبتغي محاكاة الحمار . واما الملاذ الاخير فهو في ارادة الله . ان على الله أن يثني سي زبير عن عزمه والا فان السحرة سيجن جنونهم وستغزو المنزل عصابة المشعوذين . وجاء أول قرار بعد الوجوم والانذهال . ان سي زبير كان يعتمد في تطليق يمّا على حقه الشرعي في ذلك وعلى الدين . واما زوجته فكانت متوكلة من جهتها على التعاويذ السحرية المجردة . لقد كانت كالطفل . أجل طفلا كانت ، لا تستطيع السيطرة على الامور الا بواسطة شيء آخر خارق للعادة : هو التمائم والحجب .

يا لوحدة أمي ! لقد كانت تعيش في ظلام قلبها البارد برّده ذلك الاعلان المطلق بالطلاق ومع ذلك فقد كانت مستمرة في الاعتناء

بشؤوننا . إنّه الخليط خليط التمزيقات المتغضنة . إنه الفرج المقطب ومع ذلك باللطافة ! لقد كانت الاخاديد تحفرها الدموع فتغور في وجهها عمقا . وكنا نشهد اصابتها النهائية مدهوشين مذهولين . وفي الواقع لم نكن نفهم من الامر شيئا . لم تكن يمّا تحسن لا القراءة ولا الكتابة . لقد كانت تشعر في قرارة نفسها بحدوث شيء انغلق له اطار مصيبتها الشخصية فلطّخ بشظاياه جميع النساء الاخريات من المطلقات بالفعل والمطلقات بالقوة أولائك المطرودات الأبديات المتأرجحات جيئة وذهابا بين ازواجهن المتقلبين وآبائهن الغاضبين لاختلال طمأنينتهم ولترددهم في طريقة معاملة بناتهم تلك الطرود الضخمة المضايقة . ولكن القيم كانت تفرض التضحيات فكان القوم موافقين جميعا على تحمل التضحيات حتى النهاية كل القوم من نساء ـــ وكن الى ذلك سياقات وأشد اندفاعا وحماسا ـــ ومن رجال وقضاة وتجار كبار . وعند ذلك كانت يّما تستعيد مكانها من التقاليد الزاحفة وتدخل من جديد في اطار النظام وأبعاده ولذلك كانت الجماعة تسترجع انفاسها وتتلو القرآن بصوت الظافرين . وأمّا الشعب فقد كان يهتف لذلك يصفّق ويدخر لنفسه اياما حافلة .

واذن فقد كانت يمّا طالقا فكفر الجولان الحانق الضاري خلال المنزل وبدأت عملية المسخ فثقلت وطأتها ...ربّما كانت يمّا تحلم بالفراشات الموشوشة وبالوميض الاشعاعي الثاقب . لقد كانت القطيعة مع الاب قطيعة تامة فلم يعد يأوي الى المنزل البتة . وانقلبت الامور رأسا على عقب وتغيرت الاشياء فآلت الى الغرابة وعدم المطابقة . لقد كان الدّم ينبض في اطراف اصابعها ، لقد كان نزول البيضات في رحمها كل شهر مآله الانفلاق إنفلاقا يرثى له مثل تلك الفقاقيع الضفدعية التي على تلك النيلوفرات المتخذة من الكاغذ والتي كنا نرجع بها من الحفلات الخيرية المنظمة بالمدارس الفرنسية . واما سي زبير فقد كان يفكر بعد في التزوج بامرأة ثانية . يا له من لهاث مدوّخ ناتج عن الاصداء الخافتة المخنوقة . كم

من ليلة ينبغي قضاؤها مع الوحدة والعزلة ! وكانت خالاتي وعماتي يترصدن أمي ويراقبنها وكن لكثرة مجامعة ازواجهن لهن يرسلن الزفرات تلو الزفرات وهن يتقلبن على فراشهن تعبيرا عن الشعور باللّذة وتفننا في الايحاء الى أمي بكثرة ما يحدث لهن من متعة جنسية . يا لهن من وغدات ! لقد كنت ارى يمّا وهي تعضّ على شفتيها ألما وجسمها يتلوى شهوة ، كانت صامتة لا تقول شيئا . واما انا فقد كنت اتظاهر بالنوم في ظلام الغرفة وقد عوضت أبي منذ أن هجر المنزل فأخذت مكانه في الخدر الشاسع . لقد كنت في العاشرة من عمري وكنت أعي من الاشياء وافهم من الأمور الشيء العظيم .

تكاثر الاوغاد في المدينة ولكن لا احد كان يعتني بهذا الداء الذي كان يدمر نساءها لقد كانت الاحصائيات الخاصة بالطلاق تتعاظم تعاظما جنونيا فتصبح كارثة لشدة تفاقم الآفة . ان امي لهي من عداد النساء اللاتي بدون رجال . انه الشعور يشعر المرء فيه كأن الارض ستتوقف عن الدوران طيلة لحظة زمنية تخرج فيها زفرة الانعاظ ، ولكن الارض تستمر في الدوران فيخال المرء نفسه في المنام . المدينة ساكنة هادئة والحالة في استقرار . أعقاب السجاير متراكمة تغشي اكداسها الشوارع المنتهية عند البحر . ولم يكن هناك في بعض احياء المدينة الا جماعات من الرجال يتجولون بدون غاية ويصقون في مناديل مخاطهم اذا ارادوا ان يظهروا للناس انهم متمدنون ويمتطون الترامفايات وهي تسير ويسكرون في الاحياء الصقلية ويطلقون على نسائهم اسماء بعض القحاب وذلك قصد التفنن في الاستمتاع واللّذة الشهوانية . الارض مستمرة في دورانها والدار الضخمة كائنة في حيّ تجاري اسمه « باب الجديد » حيث كان للأب متجر يتاجر فيه بالصّادرات والواردات . والمقاهي مكتظة بأهلها الى حد الانفلاق . ان في كل فنجان قهوة لنفيا للمرأة . والمستهلكون يصاحبهم اطفالهم عوضا عن نسائهم ، أطفالهم المرتدون دائما أجمل ما عندهم من لباس تبدو على

محاياهم هيئة الحزم والعزم عزم من يعلم علم اليقين ان تعويض الآباء أمر آت لا ريب فيه ويتمثل في شيء واحد هو امتلاك الاناث والحفاظ عليهن .

(الاضطرابات ! وبول السلحفاة وليالي الصيف .)

ان الوحدة ـــ وهي أتعس من تعاطف النساء المقهقهات وهن يجتهدن أشد الاجتهاد للنظر الى فروجهن في المرآة للتثبت والتحقق من عدم بقاء أية شعرة زائدة ـــ ان الوحدة تضطر يمّا الى النزول الى صحن الدار في الوقت الذي ينبغي فيه الحذر من أريج الياسمين . النساء يتظاهرن بتناقل الشائعات وأقاويل الناس ولكن الحقيقة هي أن نسيم المساء هو الذي يستهوينهن ويجتذبهن لأن الاختناق يتعاظم والخوف يعضهن بكلاليبه . يا لهن من اناث مترددات يتبارين في المهارة والتفنن للاحتفاظ بازواجهن ومازلن يقبلن ايديهم احتراما وتبجيلا . ان فراشهن صلب يابس بسبب التمائم والحجب السحرية التي يخفينها فيها . يا للأوهام ! وتحتفظ يمّا بهيئة الاحتشام والتكتم ولكنها في واقع الامر تريد خلق الفضيحة بأن تخلع ثيابها فتغسل ثديها بماء البئر المثلج . حافة البئر ... السلاحف في غفوتها المتناعسة بجانب شجرة الموز العاقر . وتفضل يمّا اجتناب انتهاك الحرمات المقدسة فلا تتحرك من مكانها في نهاية الامر . يا لها من سلاحف مقدسة تسد طريق العبور الى البئر ويا لخوف يمّا من مضايقتها وإزعاجها !

لقد كانت تجيء ايام تبدو فيها يمّا متعبة سائمة حتى انها كانت تتركنا وشأننا فلا تعتني بقضايانا وحكاياتنا الصبيانية . انه انقطاع الحيض قبل الآوان ! لقد كانت في شجار مع الله ولكنها كانت تسمح لسي زبير بركوب البقرات الجامحة كانت على علم بوجود عشيقاته ولكنها كانت تعتبر خيانة الرجل لزوجته امرا طبيعيا ولم يكن ليخطر لها على بال ولو لحظة واحدة من الزمن ان عكس القضية امر ممكن أيضا فكانت في الاثناء تفقد كل يوم

نصيبا من لطفها ومن ثباتها على صبرها واحتمالها . لقد كانت امرأة طالقا ومع ذلك فهي مازالت تحت سلطة الأب المادية والمعنوية ذلك ان المرأة لا تكون راشدة البتة . لم تكن يمّا تغادر المنزل الا في النادر وذلك لزيارة بعض الصديقات أو للذهاب الى الحمام عند انتهاء الحيض ، وكانت كلما نوت الخروج استأذنت أبي في ذلك فلم يكن يأذن لها بذلك الا بحساب وتقتير . لقد كانت يمّا تشعر بشديد المذلة والهوان لتدخل سي زبير في حياتها الخاصة وكان الشيخ المحترم ينتصر هكذا انتصارا تاما . وبعد طلاق زوجته ووضعها امام امر مقضي هو وجوب سلطته الدائمة عليها كان يضعنا في نفس الوقت نحن ابناءه في وضع لا طاقة لنا به . فيقيم بيننا وبينه حاجزا من العداوة كان يتفنن في تدعيمه كل يوم فكان يصيبنا من ذلك فزع وفرق شديدان فنهرع ونهوي في ذلك الصراع العنيد الذي كانت قواعد اللعب فيه لا تكشف أبدا : صراع البحث عن الابوة الضائعة .

ـــ وكان هذا هو بداية الكابوس ... فقالت : حدث ، حدث) .

كان اليوم يوم أحد . وقد انصرفت النساء إلى احدى حفلات الزفاف مصحوبات بمواليدهن الذين لا يحصي عددهم الا الله وبقيت أنا بالمنزل اتشمس متكاسلا كالوزغة في صحن الدار الكبير الخالي المقفر ، وقلّ ما كان يخلو ويقفر . بقيت اتشمس باحثا عن بعض النقائص والعكسيّات . ها أنا اصيح في وجه القط أوبخه وهو يحاول اثارة غضب السلحفاة الانثى وهي تجتهد في وضع بيضتها في ألم شديد . وأملأ نفسي بهذه الوداعة المؤقتة . الشمس ! وابتذال يوم من ايام الآحاد الجزائرية ! لقد كنت منذ وقتها مختار البال قلق النفس بسبب موت السلحفاة الكبرى المقبل ، تلك السلحفاة التي كانت أمي تتفنن في الاعتناء بها والسهر على راحتها . ترى من حبّلها سلحفاة يمّا ؟ أظن انه كلب الجيران ولذا ينبغي ان احفظ له في نفسي الحقد والضغينة . ألم يكن من عادته ان يسل ايره الاحمر من غمده وسط النسوة فيطلقن صيحات هي الهيستيريا والجنون المحض ؟ لقد كان أخي الأكبر منذ البداية قلق النفس أمام الصداقة التي نشأت بين السلحفاة والكلب فأثار في نفسي الشكوك وادخل فيها ريبة مريعة . الصمت ! لقد نصلت عليّ سآمة النساء فصرت غير راغب في الخروج

للتنزه في شوارع المدينة المقسمة بحماقة الى ثلاثة أقسام : المدينة العربية والمدينة اليهودية والمدينة الأوروبية . انها الهياكل المنغلقة على نفسها ترتع فيها العنصرية الظاهرة والخفية . فها أنا ذا اذن اقضي فترات ما بعد الظهر متنقلا من غرفة الى غرفة منجذبا مفتونا تجذبني ملابس النساء فكنت اتفنن في اشتمامها بدون ضجر ولا سآمة . كنت في الثالثة عشرة واذ تهيج مشاعري رائحة ملابسهن العنيدة كنت اجتهد في البحث فأفتش في عقر غرف الغسيل عن تبابين بنات اعمامي وقد دسسنها وراء أكياس الكسكس الذي جففوه وادخلوه الى مكانه قبل امطار الخريف فكنت اذا عثرت عليها اجدها ملوثة في مكان الفرج منها بتلطيخة صفراء يكفي تصورها بذاكرتي لكي انعظ إنعاظا فكانت اول عمليات الاستمناء باليد أقوم بها في صحن الدار الكبير المتوهج بأشعة الشمس حيث كنت أذهب باحثا عن التذاذاتي الاولى وعن شعور بالحدة اللاذعة اللازم لوحدتي . يا له من صداع ! لم يكن ذلك الابتهاج ليدوم الا قليلا كنت اجعل من الانعاظ نظاما مغلقا غايته بتر نفسي بنفسي فكان ذلك يبلغ حدا كنت أقرن معه — وأنا متكالب على الخلط بين الاشياء — بين ألم البدن الناتج عن تعب العضو وبين القطيعة النهائية بيني وبين الوالد . ولم يكن لينجر عن ذلك أي تغيير ولا تحوير . فقد كنت استأنف الوحدة من حيث تركتها . الارض مثقوبة ثقبتها رماح الشمس . والاسنان اسناني سخيفة والحقد والشراسة في نفسي ! كنت أجرّ أذيالي !... فأعود لزيارة الغرف مرة ثانية الواحدة بعد الاخرى وأطيل المكوث في غرفة أمي وكنت امام البقعة الملطخة بسروالها اتردد في استنشاق رائحة ملابسها . ولكن حاجتي الى العطف والحنان كانت تثقل نفسي فكنت امكث مركوزا جامدا الساعات الطوال لا حول لي على فعل أي شيء ولا قوة . وكنت في نهاية المطاف اختار الانصراف وقد خيبت آمالي رائحة العرق . يا لساعة معاشرتي لعالم الكهول حيث كنت أدخل محطما بابه بالعنف مكسرا مزاليج جميع الغرف الموصودة

بالمفتاح حتى اذا ما مالت الشمس للغروب كنت اصعد الى سطح الدار باحثا عن تلك الدوييات الفاترة الحرارة التي كانت تسخن قرون استشعارها وقد بهرتها شمس الغروب الفاخر النازل ملطخا بطبقات من النور ذات اللون الذهبي الأدكن ؟ لقد كانت تلك الساعة ساعة دخول السلحفاة المسنة حالة الاحتضار فتبدو حائرة مترددة بين الاعجاب ببيضتها التي وضعتها وبين الموت القادم تافها في الجملة . وكانت تلك الساعة أيضا هي الساعة القاضية التي كنت أدخل فيها مطبخنا العريض فأحكم بالاعدام تحت حوض غسل الآنية على عدد من البزاقات الشنيعة المنظر الوردية اللون المتلبدة حول أنابيب سيلان الماء . لقد كنت اشعر بالقيء يذرعني بمجرد ملامستي اياها وكنت اجد في تلك الفعلة ما وجدته في عملية القطيعة مع الوالد التي كانت تبعث في بيضتيّ آلاما لا تطاق .

يا لتشعب الاشياء وتداخلها ! لقد كنت اسبح اذ ذاك في عالم مذاب كان يضطرني الى خلق كلمات لاستعمالي الخاص كانت صبغتها المجردة المفرطة تتركني أخفق خفقانا . كنت أقضي ساعات كاملة في اللعب وفي الخبط خبط عشواء وفي رؤيا الكوابيس الحادة الشنيعة ... وبعد التعب كان الخوف ينتابني . من ذلك بالخصوص بروز خيال كرسي كان منصوبا دائما في نفس المكان بروزا مفاجئا بدون أن أشعر بقدومه . فكان ذلك الكرسي يتصور صورا مختلفة مريعة كانت تضفي على هذياني وجنوني قوة لم يسبق لها مثيل فكنت ارتجي رجوع النساء ، مثلي في ذلك كمثل الفزّاعة تسأم الانتصاب في قلب الحقل . لقد كنت وانا مركوز وسط صحن الدار آخذ في عد النجوم متظاهرا بالغلط في حسابها ... يا له من حقد ومقت !.. لقد كانت دقات قلبي تنبض من القلق وعدم الاحتمال وكان الصمت يطول ويطول فلا يريد الانقطاع وعندما كان خيال الكرسي يمّحي وقد ابتعله الليل النهم كانت فكرة الخيال تبقى في نفسي مثل الاثر الضبابي في رأسي ، رأس طفل صغير مريض خليع كان منذ ذاك الحين قد استعد الى

افتراف عملية ارهابية ضد ذلك الأب الصفر الذي كان يقبل خده الاحرش البارد كل صباح قبل الذهاب الى المدرسة . لقد كانت الساعة مواتية للمكائد الصبيانية ولكن قدوم النساء على حين بغتة كان يجعل جميع الخطط المنظمة تصبح غامضة في ذهني فلا يبقى منها إلا إصرار متعنت مبني على انخداع أجوف . كانت النساء وقد رجعن من حفل الزفاف يبعثن الفوضى في رأسي وفي الغرف . وكنت وقد اضناني شم رائحة الملابس شمّ من يعبدها وانتظار عودة النساء ومخططاتي لاقتناص الاب وايقاعه في الفخ انسحب خفية وقد أخذ منّي القلق مأخذا عظيما أمام هذه الصورة وهذه الرغبات المتداخلة المتشابكة العالقة بجلدة دماغي . وكنت أذهب في نهاية الامر الى غرفتي بدون التثبت في صحة موت السلحفاة ذلك أنّ اليقين كان يستقر في نفسي مع هبوب نسيم الغروب فلا سبيل الى الغلط . ان الساعة كانت ساعة الاحتضار .

كان جيشان نفوس خالاتي وقد احتفظت اجسامهن بروائح حفلة الزفاف لا يدوم الا وقتا قصيرا . التاسعة ليلا . صوت المؤذن . وها هم اعمامي يعودون الى المنزل محملي الايدي بالمشتريات وقد ضاقت أعينهم من جراء تعاملهم التجاري المزيف تعامل فلاحين قد أثروا حديثا فنزلوا في المدينة منذ عهد قريب . وفي الحين يخيم الصمت على الاناث القائقات . فكان الرجال يتكلمون بأصوات عالية ويصدرون أوامرهم القطعية . أمّا النساء فيتهامسن ويسمعن فيطعن ويمثلن . وها هو ذا العشاء يتقاطر دسما . المرق يسيل على ذقون اعمامي المشوشة الحلاقة وهم يأكلون ببطء كبير وقد تربعوا حول موائد قصيرة قريبة من الارض مبدين مؤخراتهم على المرمر المثلج . ان اعمامي لمتعاظمون لقد كانوا يلقون في جماعة النساء — وكما لو كان ذلك عن غير قصد — بأرقام نقدية ومشاريع مختلفة ويتذاكرون اسماء المدن التي ينوون زيارتها ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة عن موضوع

مواخير نفس تلك المدن ، تلك المواخير التي سيرفعون عقيرتهم بمدحها والثناء على خصالها بعد حين عندما يجلسون بالمقهى وقد احاط بهم جماعة الزبائن المتلهفين لسماع التفاصيل والجزئيات المثيرة . لقد أضاعت النساء وقتها ألسنتهن ولكن صمتهن كان يحمل في طياته اعجابهن بالرجال إعجابا يبلغ من اللزاجة حدا يجعلني أتقزز منهن فلا يسعني الا ان أزداد بغضا لهن ونفورا . فكنت امتنع عن الاكل مفضلا الاستماع الى حديث الاعمام وهم مستمرون في اثارة اعجاب زوجاتهن المسكينات وفي إدهاشهن . فكن بذلك لا يستطعن مواصلة الصمت فيطفقن في القوقأة والهديل مزقزقات بعبارات «الحمد لله وادام الله علينا الخير والنعم». لقد كن على وشك الانقضاض على أزواجهن لمداعبة قضيبهم في مرح ومجون ولكن لم يكن ثمة أية خصوبة في الخيال ولا أي وله ! بل هي الاسنان تلصف في سماكة شبه ظلمة ليلة باردة من ليالي الصيف . الفكوك والاشداق تتحرك في ايقاع متقطع في وحدة والتئام . الاسهال يسيل من خالاتي في ضيق وتكلف . لقد كان الامر يبلغ بي إلى أن ألوم النساء على جبنهن ولكن الشيء الذي كان يبعث في نفسي التعاسة الكبرى كان موقف أمي الغامض والمنقنق في آن وهي تتخبط في غزارة تناقضاتها لا تدري أني بغض تبغض . وتقرر فجأة لكي لا تزل بها القدم أن تخضع خضوعا تاما الى الاعمام الهائجين الجامحين . ان الأسرة بأمواتها العتيدة وببطونها الضخمة كانت تبتلع وتزدرد فتسيل عليها رفاهية الوفرة لبنية لزجة دسمة حريفة تبلغ من الحرافة حدا يغمر معه العرق جبين أولائك المتناولين لطعام العشاء . القلق ! القلق العظيم !

وان انت اردت اجتناب الاستماع الى ضريطهم وهم في المرحاض ووصفهم بعد ذلك لبواسيرهم وصفا مدققا يتناول جميع التفاصيل وجب عليك ان تغادر الدار بعد حين أو أن تذهب فتلجأ إلى ابعد الغرف عن مكان بيت الراحة ...

ان الفضاء في واقع الامر كان ينغلق علي فيخنقني ولم يكن لي الدوار

اللازم للدهشة. وفي الحقيقة أصبحت غير قادر على الضحك ولا على الجري لأن الجري معناه الموت . وصرت لا أخشى الحسرة فكنت التزم اذ ذاك بحدود كان طلاق امي يزيد في ضيقها وصبغتها الالزامية . لقد كان تبرج الاسرة في تباه ورياء يدخل على نفسي ضيما كبيرا ومع ذلك فان الفرصة الوحيدة التي كان يسعفني بها الحظ للاهتداء الى ابي من جديد والعثور عليه كانت كامنة في ذلك الجوار العقيم وليس في مكان غيره . لقد كانت السعادة تجعلهم كالمعتوهين ومع ذلك فان الاشياء تبقى في محيطهم ومن كل جهة مصرة متعنتة في هزالها وحقارتها الاصليين . لقد كانوا يكذبون ويهولون الامور وكان العشاء يتواصل بتناول الحلويات والمرطبات التي كدّت النساء في تحضيرها كامل اليوم . يا له من التذاذ بالاكل وياالها من ألسنة تتلمظ ! ويا لشناعة تلك الليلة ! . . وياالها من ذرية صاخبة صارخة أكولة نهمة ! ورغم النوم الذي كانت سهامه تثقب العيون فان مواليد الاسرة الصغار كانوا مستمرين في التحرك والاضطراب . وكم كنت أتفنن في قرصهم في اليتيهم من شدّة غضبي . وكانت نساء اعمامي يجتهدن متسابقات لاقامة البرهان على ذكاء ابنائهنّ فكل واحدة ابنها اذكى . واما الاعمام فقد كانوا يبتسمون ابتسامة الرضى عن النفس ناسين او متناسين تلك البواسير القطيعة التي كانوا يحملونها في ادبارهم شديدة الحمرة غزيرة القيح والتي كانوا يعالجونها في اوروبا علامة على الامتياز ، في اوروبا حيث كانوا يوظفون في نفس الوقت كاتبات عشيقات . ويطقطق الضحك غريبا غير مألوف كأنه متدفّق من اعماق الدهور . أشتهي صفعهم وضربهم بطرف حذائي الحاد ضربا يؤدي بهم حتى الموت ولكنني لا افعل شيئا من ذلك وتبقى الأمور على ما هي عليه في جمودها الاساسي . وتتضارب الكؤوس فيسمع لها صوت وتختلج لها نفوس الأعمام المتاجرة وكان بلاط الصحن متألقا متوهجا و المنزل نظيفا . وتستمر القبيلة في المضغ واللوك وفي الحديث . الاختناق من حين الى آخر . ويحرق الفلفل أشداق الرجال

ولكنهم لا يأبهون لذلك لاعتقادهم بان الفلفل من شأنه ان يزيد في قوتهم على الجماع . واذ ذاك بالضبط يتدلى شيء من المخاط من شعر شارب أحد اعمامي ولكن بما أنه قد طفق يشتم ويلعن المتسولين الذين عاثوا في المدينة فسادا فانه لا يجد متسعا من الوقت لمسح مخاطه المتدلي ويفضل سفّه سفا كما تسفّ الحرباء إحدى الحشرات . بيد أن القوم لم يلاحظ منهم احد شيئا من ذلك وأما المواليد القردة فقد اخذوا الآن في القيام بعمليات بهلوانية لائغين في لغوهم مشرشرين بولهم على سراويل ابائهم العربية الفضفاضة غير آبهين للدّين الاسلامي الذي يحرم الصّلاة على من بقيت عليه آثار البول . ولكن لا احد يبدي غضبا في تلك الاثناء بل ان الاباء يدفعهم الحمق الى حدّ ان يقيموا مفاضلات بخصوص درجة غزارة بول اولادهم وان يعلقوا على لونه . واذهم قد وصلوا الى قمة الاهتياج فانهم يطفقون في ملامسة ذكر الطفل الفائز المصطفى وفي مقارنة طوله بطول ذكور بقية الاطفال . وهاهم المواليد الصغار وقد دغدغتهم الملامسة يصرخون كشخص واحد فيتعالى عواؤهم قويا حادا ويتسرب الهيجان الى نفوس النسوة فيقبلن ببضات الاطفال المبللة بآثار البول تقبيلا . يالها من ضوضاء وصخب ! ويالها من حفلات كلها كياسة وظرف ! ان الجو لملؤه الغموض والالتباس . واما القطط الكثيرة بالمنزل فانها كانت تأخذ في الدوران مثل افراس السرك وفي ركوب بعضها البعض وفي اطلاق مواءات صغيرة تعبر عن لذتها . وتحمر وجوه النساء امام ذلك المنظر فيرخين اعينهن خجلا ولكن في هيئتهن وهُنّ يفعلن ذلك دعاء الى الذكور لمجامعتهن بالقوة وتدميرهن تدميرا .ويدوم الامر كذلك ساعتين او ثلاثا ثم ينصرف الاعمام الى المقهى وترفع زوجات اعمامي مختلف قطع الآنية الضخمة وذراريهن وقد اخذهم النعاس اثناء قيامهم بعملية تهريجية حمقاء ، ثم تعود الى النساء وقد تركهن أزواجهن هيئتهن الطبيعية فتذهب من صوتهن كل أنغام التدلل والتغنج فيتراصصن بالمطبخ ويستأنفن اعمالهن المنزلية ومشاجرتهن الى ان

بعود ازواجهن . واذ ذاك ينقطع كلامهن فجأة فيصمتن وقد اصبحن مثقلات الهيئة كالضاريات المفترسات . لقد دقت ساعة الحقيقة ولم يعد هناك مجال للجدال والخصام . وعند ذلك يأوين الى مخادعهن حيث لن يبطىء الرجال في تعذيبهن شيئا فشيئا بعدم الاكتراث واللامبالاة : ان الرجال إذ يتطوفهن ليفكّرون حالمين في عشيقاتهم وفي قحاب المدن الاوروبية .

لقد اضناني كل هذا التوتر الناتج عن الخناق المضروب بشدّة حول حلقي والذي لم أكن قادرا على تفجيره فأفرغه في القيام بعمل ما من اعمال العنف . أجل اضناني هذا التوتر إضناء شديدا فكان الارق وكانت أمي بجانبي قد هجرها النوم هي الاخرى . فكان الأنين والتأوهات . ان المجاورة لأمّي لم تكن في الحقيقة تثقل كاهلي ولكن تشنّجا في الاعصاب يبرز بيننا بمجرد ما نكون معا على الفراش الكبير . لقد كان النوم لا يريد مراودة عيني الساعات الطوال . كنت مثل حطام السفينة انجرف مع التيار بدون ارادة . وبدا العالم مريعا وكنت افهم علاماته ولكن لا افهم غاياته واهدافه البتة . لماذا كانت أمي تفضلني على سائر اخوتي ؟ الواقع ان علاقاتي بها كانت اشد اضطرابا وعنفا من علاقات سائر اخوتي بها . والجواب عن هذا السؤال أمر مستحيل . لم أكن قادرا على المنام على ما بي من تعب وفتور . وكان المنزل يخيم عليه صمت رهيب الا انني كنت اعلم ان ذلك الصمت انما هو صمت في الظاهر فحسب اذ كان اعضاء الاسرة مشدودين الى احلامهم شد المسامير للخشب بل و مغروسين وسط كوابيسهم ووسط انقطاع فظيع في صلة بعضهم ببعض كان يبدو أثخن وأكثف في زيف الليل الفاتن الجمال الذي كانت ترسم تقاطيعه بصورة واضحة جلية نورا جامدا يابسا من وراء نوافذ غرفتنا . ان انقطاع الصلة هذا لقائمٌ على دعامة عتيدة هي دعامة الطبقية العائلية الموروثة عن السلف . كانت المدينة قد ابتلعت الريف وازدردته ازدرادا وفي نهاية المطاف

فان كل تعاطف بين افراد الاسرة قد اضمحل وامحى او تلاشى ولم يبق من ذلك الا هياكل ظاهرية كانت تحول دون قيام علاقات حقيقية بين الجماعة . ياله من اصطناع ! . . وياله من اختناق ! انسللت خفية من الغرفة وغادرت الفراش خلسة و درت بدون غاية في حلقة مفرغة . وطفقت أنظر الى غلاف السلحفاة العظمى وقد ماتت منذ وقت بدون ان يهتم بها انسان (ان يمّا ستقيم لها غدا جنازة رائعة وربما وصل بها الامر الى تعبيق المنزل بالبخور ترحما واجلالا لذلك الحيوان الذي جاءت به معها الى الدار يوم زفافها) . الهدوء المؤقت . اخلاء السبيل للنسيم العليل يلامسني . احدى بنات عمي لم تنم بعد فذهبت الى غرفتها وكانت لا تزال عابقة بروائح حفلة الزفاف ونظرت الي وانا ألج مأواها ولكنني كنت لا ألاحظ الا ظلّي وقد سبقني مسرعا غليظا فائضا من كل جهة وصوب الى حد بلوغ السقف . ورأتني بنت عمي وقد وصلت اليها. لا بدّ انها كانت تخشى بالخصوص ذلك الظل الكثيف البالغ من الغرابة المضحكة ما بلغ . قالت في البداية انها لم تفهم القضية ثم قالت بعد ذلك انها لا تريد ، من أجل الدين . لقد كانت اكبر مني سنا وكانت بصدد تهيئة جهازها منتظرة زفافا محتملا . وتمكنت بفضل ظلي من دسّ يدي تحت قميص نومها ومن عرك فخذيها عركا وكانا غليظين سمينين . ولامستها وداعبتها بعنف تأوّهت له التذاذا وتجرأت لحظة فجسست فرجها ولكن يدي لم تصادف الا ركاما من الشعيرات الندية فتقززت من ذلك وسحبت يدي فجأة وعلى عجل وكانت دموع ابنة العم . ترى هل انتهى خوفها من ظلي وقد كان ذلك الخوف قد غمرها أكثر مما غمرتها ملامساتي الخرقاء لها ؟ واما أنا فكل ما كنت ابتغيه هو بلوغ ذلك الشيء الفظيع الخارق الوهميّ الذي كنت أتوقع وجوده في ظل العانة الشعراء . وضع يدي في ثقبة الحياة تلك التي لم اكن أعرف منها الا الآثار الصفراء على التبابين . ويتملكني الخوف فابقى هناك لا أنبس ببنت شفة . لم تكن تلك هي محاولتي الاولى . ويكون الفشل مرة

اخرى ! لقد كانت ملتصقة بي تشدّ نفسها الى صدري وكنت قد ازمعت بعد على مغادرتها (كانت تقول : تحسس فخذي لامسهما انهما ناعمان كالحرير !) لم تكن فاهمة لموقفي الانهزامي امام فرجها البكر الذي كانت راغبة عن رضى في تركي ألامسه واداعبه بل قل وفي السماح لي باقتحام اسواره وفتحه فتح الغزاة . كانت عالقة بي لابدة لا تدعني وتقول انها تحبني (يالها من صبيانيات !) ويالها من مهزوء منها ترتعد وتزداد اهتياجا فتستسلم محمومة لمعانقتي لها معانقة لا دقّة فيها ولا وضوح . واحنو شفقة على تعاستي الشخصيّة تلك إذ كنت اطالب في تلك الآونة بالذات باسترداد امي ، امي المجروحة امي المخدوعة . ولكن الافكار كانت تفر مني جامحة. فكنت انتهي في كل مرّة الى ذلك الردب حيث كان يقذف بي منجنيق البراءة الصبيانية المرة المذاق (اذا لم أكن اعرف كيف انتقم لنفسي من قسوة القبيلة وسناديتها ازاء يمّا) . الضباب المتعدد الالوان امام عيني . والالم يسري في ظهري اما الاخرى فقد شدت نفسها اليّ كما يشدّ الجدار الى الزافرة كانها تسعى باحثة لعلها تعثر على كيفية في التعانق والانضمام تتغير لها معطيات وضعها الجهنمية . واما انا فقد كنت أمرّرُ على جسم بنت عمي يدين ناسكتين وقد غمرني شيء كالعمى كعمى الانبياء العلامين بالغيوب وهاهي ذي الآن قد عيل صبرها فلم تعد تطيق لتلك الحالة احتمالا فتأخذ في اعتبار نفسها كالبرج عليّ أنا أن أحاصره . واما انا فقد كنت ابحث مبربشا في قعر البقية الباقية الفاترة من ضميري عساني أتمكن من بعض عمليات الاغتصاب الاساسية لحق معنوي ضد الاسرة (ولكنني لا انحصّل على شيء !). واما هي فقد كانت لا تريد عملية مزيفة مصطنعة واما انا فكنت أئنّ واتأوّه في حماقة بلهاء . ولما بلغت نهاية قدرتي على الطاقة والاحتمال انقلبت فصرت لا ادري ما أفعل . كانت ممتقعة اللون شاحبة . شعرت بالرطوبة والنداوة . ترى كيف السبيل إلى حملها على الانقطاع ؟ لم يكن ثمة إلا حل واحد أفقه مفتوح أمامي : أن أعبّر عن

مختلجات نفسي من خلال هذا الجسم ، جسمها ، واخذها الهلع فتمددت على الجليز العاري المتألق مباشرة وعضت على شفتي السفلى وفيما كان دمي يسيل متقاطرا على جسم تلك العذراء الأمرد كنت أنا أضيع وقتي في اشتمام تلك الرائحة الكريهة الصادرة عن ذلك الشق الممزق المقوس الحافات كأشنع ما يكون التقوس. وأخرجت يمينة اذ ذاك نهدا مبتذلا بسيطا من نهود البنيّات الصغيرات الناضجات الجنس قبل الأوان فأسرعت أنا الى عركه عركا غايتي من ذلك التظاهر بالقيام بعمل ما. ولكن ذلك الثدي السخين الذي يرثى لهيئته بحلمته الصلبة المزرورقة اللون ذكرني بضرع تلك العنزات التي كنت لي أن أرى الناس يحلبونها في ضيعات أبي فكنت أتوقع طيلة كل تلك اللحظات أن ينبثق اللبن فاترا من نهد تلك البنية المضطجعة في استرخاء مضحك فيغمر ثيابي ويسيل على الارض ويغزو المنزل بأكمله فتموء له القطط مواء وتلغ فيه فتلعقه بضربتين مخلستين من ضربات ألسنتها المتوردة اللون ثم كان العدول فتخليت ... كنت اريد الانصراف ولكن ذلك الفرج المضحك في غرابة هيئته المنفرج انفراجة حمراء قد سحر ليّي فكنت مفتونا به أيما فتنة وعندها لم أزدعلى ان نظرت اليه نظرة اجمالية بدون الاعتناء بالدقائق والتفاصيل . وداخلتني الرغبة طيلة بضع لحظات في النّط والجولان في مرح خلال ذلك المثلث الضخم الاشعر ولكن فكرة اللبن الذي قد يصل حتى الى تحت سرير أمي فتفيقها رائحته الحادّة كانت تعكر عليّ فرحي الرائع، فرح غلام صغير كان جالسا على قمة عجيزة . وانتابتها اذ ذاك حشرجة. خفت من أن تنفجر بين يدي المرتعدتين ولو كان ذلك لانضاف الدم الى اللبن ! وفجأة انصرفت الى غرفتي تاركا ابنة عمي تخفق خفقانا في حماقة انوثتها وامتلائها بعد بحيضها الهزيل وانفراج أسفلها انفراجا في منتهى الكمال ، وغرابة هيئتها الباعثة على الضحك وكسلها وتعاستها بالخصوص لفكرة ذلك الاثم الذي اقترفته في تفاهة يرثى لها .

نجوت اذن بنفسي ودخلت من جديد في عالم النوم الذي لم افارقه قط . لقد كنت اشعر دائما بشيء يقضّ عليّ مضجعي وانا نائم كما لو كان ثمة فراغ أزلي كنت ارهق نفسي كل ليلة في سده سدّا . كان نومي متقطعا متفتتا وكان الامر ينتهي بي الى اللهاث عند طلوع الفجر وقد انبجس نوره فجأة في غرفتنا فلم يترك لأمي أدنى مهلة ولا راحة فينتهي بها الامر الى النهوض ولم أكن عند ذاك أعرف هل أنا في حالة نومٍ أم منام . والذي كان يزيد في ترددي ذاك هو طشيش الماء في الجفنة المعدنية ونتف اللحم العاري المتناوبان في ضميري تناوبا خارقا للعادة في سرعته . فهل كان ذلك مجرد كون أمي كانت تغتسل في دوي وضوضاء بغرفة الاستحمام فحسب ؟ لقد كنت عاجزا عن التمييز بين الحقيقة والخيال من خلال جميع تلك المشاعر والاحاسيس التي كانت تسطو عليّ فتقتحم نفسي اقتحاما . إن تعقّد ذلك الوضع واشتباكه كانا يحملانني في نهاية المطاف على النوم نوما عميقا وقد انتابني القلق من جراء صوت أمي وهي تصلي صلاة الفجر . وكانت تقرصني ولما أشف غليلي من الكوابيس المتهاطلة عليّ تبتغي ايقاظي ايقاظة صباحية مفاجئة كانت اكره الأشياء عندي. لم يعد هناك مجال للشك فقد كانت الاشياء تثور متمردة امامي فتتصور زوايا كثيفة المادة وتنفجر داخل عيني بدون أن تعميني والحق يقال. الايدي اللزجة... والأوجه العابسة المقطبة اوجه أعضاء الاسرة . كانت تلك هي الساعة التي كان وجهي وقد انعكس امامي في المرآة يبعث الاندهاش في نفسي فأتحرك الى الوراء مدبرا نافرا : كنت كالشاة السليخة أذوق الأمرّين في ابتغائي التّحول الى شخص آخر ولكن لا شيء من ذلك كان يحدث ! لم أكن أكنّ في نفسي أي أثر للتحول والانقلاب فأطفق أحرك وجهي وأعجوه عجوا. انواع الدوي المختلفة وصوت دفاقة ماء المرحاض وصوت وقوع أجرام صلبة . الاصوات البشرية الدقيقة الخائرة . ويستولي الجنون من جديد على القبيلة الضخمة التي كانت تريد منّا التّحصيل على العلم فكانت تجتهد

لذلك في تلقيننا تلك الدّقة في المحافظة على المواقيت التي هي من طبائع التلاميذ غير النجباء لأن التباطؤ فن من الفنون والحق يقال . لقد كنت أقسم كلما نظرت الى نفسي في المرآة بألا أفعل ذلك من جديد أبدا . وتكون صيحات أمي ... وتنتشر رائحة القهوة ثم يسمع من جديد صوت دفاقة الماء بالمرحاض ! لقد كانت الاسرة التي لا يحصي عددها الا الله تتخلص من حاجتها البشرية بالتناوب ولذلك كنت أبول في « اللافبو » لكي لا اقف منتظرا دوري أمام المرحاض الوحيد وان كان يلذ لي كثيرا ان أشاهد عماتي يلمسن فروجهن لردع رغبتهن الملحة في التبول . ومع استيقاظ الذراري يهب الذباب وقد ازعجه مثل ذلك الاستيقاظ المصم للاذان . وأواصل النظر الى صورتي في المرآة وأحدق فيها حتى أنكر ذاتي . ثم أتراجع متخاذلا وقد ازعجني ذلك . عليّ رغم ترنحي ان ارتدي ثيابي وسط صياح امي وقد عادت اليها الحياة فجأة وغمرتها السعادة لانها قضت ليلها بسلام ، بل كانت تدور وتحوم كالفرس لتبين بوضوح انها لم تر احلاما مزعجة في نومها نوم المرأة المطلقة العفيفة . لقد كانت امي تبعث على الضحك والسخرية . وكنت اكرهها سيما ان ذكرى ابنة عمي الشعراء اللزجة كانت تملك عليّ نفسي امتلاكا كلّيا. ويعاودني ضيقي كما كان بالامس . لقد سلمت من كل اذى ! انه على كل استيقاظ عادي عينان غاضبتان مهددتان . احد الاعمام ساخط وقد امسك ساعته بيده . عليّ الّا اصل الى المعهد متأخرا . ان الامر بالنسبة الى العصابة مجرد رأس مال يرصد ليستثمر ليس الا ! وبالرغم من ذلك لم تجد جميع الحيل نفعا . فقد كنا نبذل قصارى جهدنا للوصول الى المعهد متأخرين حتى نغيظ غيرنا من كسالى التلاميذ وتتسنى لنا السيطرة على القسم . ولم يكن ذلك ليضايق استاذ الفرنسية اليهودي كبير مضايقة . وكنا في قاعة الدرس نقطع من قطع الخبز التي كنّا دسسناها في جيوبنا في آخر لحظة قبل انطلاقنا المرعد . « قطيع من البهائم ... كسالى ... » كانت افواهنا مملوءة وكان

ذلك يساعدنا على عدم الاجابة . « عجز ورائي إنكم من جنس الفلاحين الانتهازيين ». لقد كنا سعداء بعجزنا عن استيعاب العلوم لا سيما ان ذلك كان يثير حنق أهلنا التجار . لقد كان سي زبير — دون سواه — قادرا على ادراك ذلك التناقض لانه كان الوحيد الذي استطاع ان ينسلخ عن زمرة الفلاحين بفضل ثقافته المتينة . كان القسم متن الرائحة ... وكانت الحرارة ثقيلة.وفي درس الحسابيات كان استاذنا امرأة ؛ لقد كنا اصفارا خالية في الحسابيات لا نعرف كيف نحسب ونتعثر في فك تلك الالغاز الجبرية . وللتظاهر بالقيام بعمل ما كنا نقذف ببعض المماحي تحت كرسي الاستاذة ثمّ نغتنم فرصة الذهاب لالتقاطها، لالقاء نظرة على ما تحت تنورتها . يالها من ثقبة ظلماء ! فكنا اذ نخير بين الحسابيات والعدم الاظلم نختار الحسابيات، وتأخذنا الحمّى فتهيج عواطفنا ونصبح إذ ذاك قادرين على فهم كل ما يطلب منّا نبتغي بذلك تناسي الليل الاظلم النتن القابع تحت تنورة الاستاذة . وكم كانت دهشة تلك السيدة عظيمة لا تنتهي أمام اجتهادنا ونجابتنا المفاجئين. لقد كانت جميلة مدام « مارسي » ! ولكننا كنا نتقزز منها فنعافها طيلة بقية الاسبوع . يا لها من اعماق فظيعة !.. لقد كان ينبغي ان تقتنع بمظهرها السطحي فالعينان خضراوان وشحوبة الوجه شاذة غريبة . لقد كانت مطموسة البصر ذات نهدين صغيرين- ولكن يا للفخذين فخذيها ! كانت ترتدي دائما اللون الأسود فكنا نحزن لذلك ونأسى فنمكث هناك بالقسم وقد أضلتنا الهندسة والخوف من الثقبة الظلماء فانحرفنا واشرفنا على حافة الاستمناء باليد : استمناءا عارما عملاقا الا اننا لم نعد نجرؤ حتى على تصور تلك العملية وذلك لفرط غضبنا من وقوعنا في فخ الثقبة الظلماء التي لم نكن قادرين على اجتلابها وجعلها في متناولنا.وتنتهي ساعة الدرس في حماقة تغنتنا وقد انقلبنا فأصبحنا تلامذة نجباء فتكون الاسئلة الماكرة وتتدفق الاجوبة السامعة المطيعة وننقطع حتى عن المناوأة ونصب العداء فنصير أشقياء فقط .

كانت دارنا محصورة بين سوق الحدادين وسوق الجزارين وكانت قابعة على مرتفع يشرف على المدينة قاطبة . وفي اسفل ذلك المرتفع بالضبط كانت عربات الترامواي الراجعة الى عهد نوح تمر في قعقعة حديدها البالي واذن فقد كانت المخاطر محدقة بنا ولذلك كان ممنوعا علينا اللعب في الشارع منعا باتا . ولكننا لما كنا مكلفين دائما بقضاء حوائج المنزل فقد كان لنا في ذلك فسحة للتنزه واطلاق ارجلنا حتى بلوغ الحي الاوروبي من المدينة أيّ بعيدا جدا عن منزلنا وذلك بحثا عن بعض العطور النادرة لاحدى زوجات اعمامنا أو مجرد سعي منا الى رؤية البحر الذي كنا نفاجئه في مياه الميناء القذرة الملوثة ولكننا كنا نستسيغها ونجدها موافقة لأذواقنا.وكنا في فصل الصيف نتجاسر حتى على العوم في ماء الميناء الزاخر بالقذارة والاوحال فنتخبط هناك بين عمال الرصيف وجماعات البطالين وقد جاؤوا الى حافة الماء لتدخين « الكيف » ولاغتنام فرصة ذلك لملامسة أفخاذنا ومداعبتها بتعلة تعليمنا السباحة . وكنا بعد مثل تلك الانفلاتات الى البحر لا ننجو من عقاب أعمامنا. وكانت النساء في تلك الحالة متواطئات مع الرجال . فقد كنّ يلتمسن البرهان على جريمتنا الشنعاء بأن يلحسن

سرتنا للتثبت من كون طعمها ممزوجا بطعم الملح أم لا . لقد كن في العادة يفيننا من شر وحشية الذكور ولكنهنّ في قضايا الهوم ليس لهنّ رحمة ولا شفقة . ولما كن لم يرين البحر قط فقد كن يثقن بأقوال الرجال لتقدير الاخطار التي كنّا نتعرض اليها في الذهاب الى البحر . ولكننا كنا نقتصر في الاكثر على التسكع في الاسواق المجاورة لمنزلنا من حوانيت الحدادين الصغيرة جدا والمليئة بالخردة المتراكمة المهولة وقد أكلها الصدأ.واما سوق الجزّارين فقد كان اشد اكتظاظا وعجيجا : « فهذه » الأوضام محملة لحما يتقاطر دما وهذه الروائح الحادة والضوضاء والصخب واللحم ... والكروش ... والمشاجرات ... والحيل ... والبشاعة الدامغة،بشاعة أطعمة الفاقة والمسغبة ... هذه لحوم للأغنياء وتلك لحوم للفقراء . وهذه اللامبالاة المصطنعة : لو نبشت قليلا لرأيت شناعة الامر تنفجر وتدعك قعر ليالي النواح والموت بالعنف والاوجه المخدوشة والبطون المتورمة والنهود المفلطحة وسكرات الرجال الهائلة المريعة التي لا ترد عليها الا ابتهالات النساء وقد شددن شدا ماديا ملموسا الى إله مجرّد قدّ من خيال مرضي ليس ينفع البتة الا لاغاثة الجائعين والمرضى والسكيين المتكاثرين جدا في المدينة إغاثة مبهمة .

جموع الناس غفيرة في الشوارع. إنّها ساعات انقلاب الساحات إلى اسواق من الفقر والفاقة . فهذه الخضر المتعفنة المعروضة على الارض مباشرة بعد ان التقطها بائعوها من مطارح قذارات فواضل السوق المركزية وهذه البنيّات النظيفات الهيئة نظافة بارزة للعيون وهن يبعن ارغفة خبز « الكسرة » وجبن الماعز وهؤلاء غلمان الجزارين يتقاتلون بالموسى من أجل مومس من أحياء الزنا وهذه العجائز بحركاتهن الابوية اللطيفة الهادئة . وهنا الشحم وهناك الكروش مرة أخرى ورؤوس الخرفان وهنالك الثيران الضخمة . ويسيل على الدوام ماء لونه صدئي يتخلص منه الجزارون بصورة فوضوية . ان جموع الخلائق لكأنها ترقص . فالجو تمايل وترنح . وهذه

اوضام الباعة الحمراء. والعجائز السوداوات يكشّرن عن أسنان نخرة ويعرضن على المارة مرطبات مصنوعة من الذرة البيضاء.ويتوقف المارة من حين الى آخر وينظرون بعين شبقة الى البنيات المارات ويذبّون الذباب وقد تلاصق بعضه ببعض من جراء حرارة الطقس . وبعد حين ستمر حشود الامهات فيأتين على كل شيء من لحوم فاسدة وشحوم نتنة .. انه ليطيب لي أن أسيل مع أخي الاكبر في صلب هذه الانسانية الحية وما حياتها الا ضرب من سوء الصدفة والحظ . حتى اذا فعلت داخلني الشعور بأن الحشرات العاجّة حول هذه المؤن الكريهة الرائحة لها رؤوس كرؤوس الجراد تهتزّ إهتزازا مثل رأس مشنوق لم يحسنوا شنقه . وتتراكم الاوجه وتتكدس وتقهقه بارزة ضخمة كبروز الصور الكبرى في الأفلام ؟ وترتخي الحركة وتضعف بسبب ما يعتريها من سآمة وتعب يبلغان حدا تكاد تسمع معه أزيز الضحكات الميكانيكية. إنها الطيبة طيبة الدود المتهرىء وإنه الاستسلام والرضى النتن الرائحة. ونشعر، أنا وأخي، بغيظ القوم وحنقهم يفيضان على صفحة قلوبهم ولكن العجائز يهززن رؤوسهن وينكرن وجوب النضال . انها الفاقة مبسوطة هادئة . انهن ينصبن كل مساء نعش القضايا الخاسرة ويتخمن انفسهن الى درجة الجنون بعبارات المدح والتملق للمارة تملق المؤمنين بالقضاء والقدر والمصالحين بين الاغنياء والفقراء . كان زاهر يفسر لي عدة أمور ولكنني كنت لا أفهمه بوضوح فلا يبقى في نفسي الا يقين مؤلم تصيّره رؤية الدم حزينا كئيبا .

وما إن نخرج من الاسواق حتى نأخذ في الترنح بين جماعة القصاصين العموميين الماكرين وقد انتابهم الضجر من جراء روايتهم الأبدية لنفس القصص أمام جمهور من المستمعين لا يردون الفعل الا عند استماعهم للفقرات الخليعة . أمّا الكهنة والعرّافون فقد كانوا يفضلون الازقة الأشد هدوءا فيستدرجون اليها اولائك الاغبياء الباعثة هيئتهم على الشفقة والقادمين الى هناك للتوكل عليهم عساهم يعينونهم على اكتشاف كنز أو

سحر امرأة مترددة بين القبول والرفض . وأما جماعة المتسكعين العاطلين فكانوا يتجولون من جمع من الناس الى آخر ويبصقون على الارض فتخرج من أفواههم تنخيمات ضخمة لزجة كتنخيمات المتسولين ويتجرؤون أحيانا على مناقضة اقوال المشعوذين البائعين للأدوية الشافية من ألم الرأس وألم الحب والمغلفة في صفحة من صفحات الجرائد . وترى في جوار الشوارع الصاعدة في استقامة نحو السماء جماعة العميان وقد تدرعت اوجههم بدرع الجدري يحاولون استعطاف المارة فينبثك وجودهم بقرب تلك المواخير الصغيرة العابسة المقطبة حيث يذهب شعب كامل قد تعود حبس نسائه في قعر دورهن يذهب لمضاجعة جماعة من العجائز الشمطاوات. كان زاهر ينتصب هناك كالعصا ثمّ ينصرف بدون الادلاء بأي تفسير فيصعد درجات الازقّة الصغيرة وتراه يتبرّم من عراقيل ذلك الكبت المرضي الذي كان يحمله على اجتناب الردوب المظلمة والقحاب البطينات اللائي لم يعد لمبيضات أرحامهن أيّة طاقة فيدق على باب أحد المخازن حيث كان يستقبله كل مساء رجل مسن اسمه عمار كان يعمل لحساب والدنا ويزرع حشيش « الكيف » ويتعهد نموه في أصص الياسمين. وعندها كنت احقد على أخي اذ كان يحز في نفسي الا يبوح لي بأسراره . وأتردد في اختراق حيّ الزنا كالبرق الخاطف وأقرر في نهاية الأمر الرجوع الى المنزل .

الساعة التاسعة ليلا . وكان الليل ينزل عن طريق هالة من النور باهتة منبثقة من أسرجة الكربور الموقدة فوق مناضد باعة الفواكه والغلال . الساعة التاسعة ليلا . كان المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة بصوت ملؤه الفتور واللامبالاة . وواصل المارة مسيرتهم الهادئة متخللين قوافل العربات اليدوية التي كانت تكتظ بها الازقة الصغيرة بالحي السفلي من المدينة غير آبهين لنداءات المؤذن المتكررة رغم ما كان يتخللها من توعد خفيف لمن لا يستجيب لدعوة الله . وأما باعة الجرائد فقد كانوا يصيحون ملء حلوقهم

لاهجين بعناوين الجرائد الاجنبية الكبرى الآتية من وراء البحار. وأمّا مواكب المتسولين فقد كانوا ينحدرون من هضبات مدن القصدير . وهي خليط متراكم من الجروح المكلومة على صفحة الزنك مباشرة وقد توهج لتلألؤات البحر التي لا تحصى فتبتلعهم الأزقة الضيقة الظلماء ويترنمون بتضرعات حزينة خاصيتها العظمى انها كانت لا تؤثر في أحد . واما عربات الترامفاي المارة بالشوارع الكبرى التي جرفها جوار البحر فانها كانت تصير أشد اهتزازا وترجرجا مما كانت عليه في اول النهار وقد خامرها فجأة وعي بمرور الوقت ووجوب الاسراع ، ولكن أعوان قطع التذاكر كانوا ناعسين على كراسيهم . وكانت المدينة دافئة ولعل ذلك راجع الى رائحة الاخطبوط المشوي التي كانت تضفي على الجو لينا واعتدالا . الساعة التاسعة ليلا . ويتوقف العمل بالاسواق وينصرف التجار الى الجهة الاخرى من المدينة . وتكون مقدمات الاحتضان والمضاجعة ... وينقلب العالم فجأة فاذا هو جامد في استقرار . وتعود الامور فتستوي في هيئتها الاولى ... وتكون بداية الهدوء والوداعة ... هي الحركات عطلت رويدا رويدا حتى اصبحت هدهدة تنام على ايقاعها المدينة العربية وقد اضنتها عمليات المقايضة وموقعها غير المستقر بين البحر والهضاب (ان النظر الى أشباح الناس في الازقة وهي تتضاءل وتختفي لضرب من مناظر الكابوس) ويحل الخوف ... لم أكن ارغب في النوم . مشاجرات النساء وقد تركن لحاهن . ويعلو تناجي بنات اعمامي وقد بلغن على طي الخفاء والكتمان سن البلوغ ... وتكون الخيانة مرة اخرى ! وتتصاعد غوغاء اخواتي وقد شنج اعصابهن موقف الوالد ... ثم هي أغنية الماء (ماء دفاقة المرحاض وماء احواض الاستبراء) وتكون عمليات الابتلاع ... لم أكن ارغب في الرجوع الى المنزل ... وكانت يمّا تنتظر . أأغادر المدينة القديمة ..؟ أأندمج في جمع النساء ..؟ أأحضر عشاء الاعمام ... أأطالب بمكان لي في الليل العليل النسيم ... أم ألزم الصمت في النهاية وقد انهكني هذا الجوار المبهم المعالم .

عبثا كان رفيقي (أو أخي الأكبر) يهلل ابتهاجا لرؤيتي وقد وقعت في نفس الهاوية التي كنت فيها البارحة ليلا . أنا لا احقد عليه وان قليلا . أأتعامى أمام حركات ابنة عمي المتصنعة وقد ادخل في نفسها الحيرة والارتباك حاجتها الجديدة الملحة الى ذكر يجتنب خدشات مخالبها ويئن الى حد الاغماء اذا ولج فمه لسانها ؟ أهو الخوف من ذاك اللبن خوفا لا يمحى أثره الى حد ان بشرتي تبقى متأثرة به رغم مرور زمن طويل . إن على الراغب في الوصول الى منزل يمّا أن يجتنب الازقة المليئة بالبول والتي هي محل لمواعيد متعاطي اللواط يتلامسون هناك في ظلام المراحيض العمومية وعليه كذلك اجتناب المقاهي ذات الاغاني العتيقة المجترة اجترارا . عليه ان يسلك طرقات طويلة غير مباشرة وذلك لكي يجتنب حلول السهولة ... ينبغي الحذر من النساء . كانت يمّا تنتظر اعلان الطلاق ولكن مي زبير لم يمت ولن يموت كما كانت أمي تتمنى وترتجي . فيكون الانين والولولة من جديد ان كل شيء سيقع كما كنت أتوقعه : سيكون الاعمام هنا وستتصنع النساء في هيئة القحاب مظاهر ملؤها الاثارة الجنسية . انه قفل رافعة النهدين يطقطق كاشفا عن نهود ضخمة لا يقدر أي نعاس على سحقها . أأقتل الأطفال الرضّع ! لكن الوقت كان متأخرا جدا ، ولما وصلت الى المنزل كان الحفل قد بلغ شوطا متقدما .

لم يتريث الوالد زمنا طويلا قبل أن يتزوج من جديد . لقد كانت خطته جد مضبوطة دقيقة : أن يعوّد أمنا على هذه الفكرة الجديدة وان يقطع الصلة بنا قطعا نهائيا . ولما كانت القضية قضية هامة خطيرة فانه قد قرر ألا يتسرع في الامور . لقد كان الامر في نظره يتلخص في اضرام نار الحقد والبغض فينا وان يصل بنا بهذه الصورة الى نقطة لا يمكن الرجوع منها الى الوراء ويصبح معها كل صلح امرا مستحيلا . فكانت علاقتنا في تدهور متزايد واصبحت متوترة أشد ما يكون التوتر وأكثر ، منبئة ببذور عمليات اغتيال كامنة فيه لا أكثر ولا أقل . ان دور الوالد في هذه القضية كان دورا يسيرا ولكن ذلك اليسر كان فيه شيء من الافراط فقد أسلمت بمّا أمرها لله منذ مدّة طويلة واستسلمت لصلواتها واوليائها الصالحين.لقد كانت ثرثرة متسعة تتعلق بعملية قتل واضحة . لقد كان جميعنا فاهمين للقضية فكنا ننتظر بفارغ الصبر كالمحمومين الاعلان عن زواج سي زبير الجديد . وجاء الوالد يستشير بمّا في الامر فوافقت في الحين وارسلت النساء صيحات الفرح وقررت أمي ان لا تتخلف أمام هذا الحدث فقبلت تنظيم الاحتفالات اللازمة وهيّأت الحفل وعلائم الموت بادية على وجهها . وهل

كان باستطاعتها في الحقيقة ان تعارض مشروع زوجها والحال انها لو فعلت لعاكست نص القرآن وقرارات المفتين وقد كانوا مستعدين لمخاصمتها ومحاولة اقناعها ليلا ونهارا لو شاءت افكارها فقررت عدم الخضوع للأمر المحتوم. صارت يمّا لا تخاصم الله وانحازت بدورها الى جانب الرجال وبذلك فان شرف القبيلة قد ظل سالما محفوظا (ولله الشكر والحمد) وفي امكان مي زيبر أن يهلل ويطلق صيحات السعادة .

وكان الزفاف عتيدا قاسيا . كانت الزوجة في الخامسة عشرة من عمرها واما أبي فقد كان في الخمسين . وكان الزفاف متوترا ملؤه الدم يسيل غزيرا ويبهر العجائز بهرا وهن يغسلن من الغد ملاحف الفراش ؛ وقد غطت اصوات الطبول طوال تلك الليلة اصناف العذاب التي تسلطت على جسم الصبية وقد مزقه عضو الشيخ المريع . وكانت اوراق زهر الياسمين نشروها على جسم الصبية المكلوم . ولم يحضر زاهر الحفل واما اخواتي فقد ارتدين فساتين قبيحة الهيئة وترقرقت اعينهن بالدموع واما الوالد فقد كان مضحكا يثير منظره السخرية وكان يجد ويكد لكي يظهر بمظهر المسيطر على الموقف وذلك حتى يقطع عنه ألسنة فتيان القبيلة . وما ان عقد الوالد العزم على التزوج بامرأة اخرى حتى استأنف تناول العسل غايته من ذلك استرجاع قوته الجنسية الغابرة . واما زبيدة عروسه الشابة فقد كانت ذات جمال وكانت فقيرة المنحدر . ومن اليقين ان الوالد لم يقتّر في دفع ثمنها لأهلها . انها الرصانة في المقايضة والضبط في الحساب . لقد فصلت النساء عن الرجال اثناء حفلة الزفاف ولكن فتيان الدار قد اغتنموا فرصة ما حدث من بلبلة واضطراب فقصدوا النساء اللائي لم يأتين هناك الا ليهبن انفسهن للذكور يفعلون بهن ما يشاؤون وبلغت نشوة القوم ذروتها لكن يمّا ظلت بالمطبخ لا تغادره . وطفق الجميع يثنون عليها ويكبرون صبرها وشجاعتها فيسليها ذلك ايما تسلية (يالها من امرأة يرثى لحالها) . لقد انقطعت عن توجيه الخطاب لها واصبحت أكرهها كرها رغم ما في

ذلك من غنم قد يغتنمه سي زبير . واما زاهر فانه قد أصر على عدم الظهور بالحفل بدون أن يأبه لذلك أحد . وعندما أشرف حفل الزفاف على نهايته رجع زاهر الى المنزل مخمورا وأدخل الهلع في نفوس النساء بأن غمزهن غمزا على رؤوس الملا . ولم يوجه له الوالد أي لوم بل كان يحتال في اجتنابنا خشية الوقوع في أحابيلنا : ذلك انه كان متطيرا أكثر مما كان صاحب ذمة وعهد . على أنه كان في الحقيقة مفرط الاعتناء بزوجته الجديدة وكانت عيناه دائمتي الانقاد وكان من حين الى آخر يخيّم على محياه علامات الخجل والتأثر وكانت تلك طريقته في اظهار غرامه وشغفه امام هذا الجسم البالغ الناضج جسم الصبية التي ستصبح رهينته . واضطرت يمّا الى مغادرة المطبخ فجأة هارعة لمعالجة زاهر كبير ابنائها وقد خر في هذيان فتاك : لقد كان يزعم انه يريد الفتك بجنين بدون ان يزيد في التفصيل والتدقيق المفرط . وكانت الخرفان المذبوحة والكسكسي المتوبل وجبال المرطبات المتقاطرة عسلا . وكان تسريح الكبت تتخلص منه النساء . وكان جنون أخي وقد تزايد هذيانه . كان الشعب الصاخب في الصف الأول يلتهم المأكولات بدون تحفظ. لقد طفقت جميع الخلائق تغتنم فرصة تلك النعمة العارضة . وكان الزوج الجديد يختفي اياما طويلة لا يراه فيها احد حتى اذا ما ظهر من جديد طاب له ان يظهر للناس عينين محوقتين بدائرتين دهماءين تنمان عن بلوغ الرجل اوج اللّذة وتشيران الى تعاطيه ساعات من العربدة والمجون والقصف لا نهاية لها . وفي الواقع فان الوالد كان واعيا كل الوعي بأنّه كان يضاجع بنيّة صغيرة وكانت هذه الفكرة المنحرفة الخبيثة تثير في نفسه الاهتياج اكثر من أي شيء آخر. واما باقي الرجال فقد كانوا يصفقون ابتهاجا ويحلمون بحفلة جنسية قد تكتب لهم في المستقبل على غرار التي كتبت لهذا التاجر الكبير . وواقع الامر انهم كانوا ملتزمين بالصمت لا يقولون شيئا اذ كانوا يفضلون مفاجأة زوجاتهم بطلاق نظيف عفيف لن يمكنهن رفضه وقد هتفن لطلاق يمّا وابتهجن به ايما

ابتهاج . وكان القراء يرتلون القرآن بالتناوب ويختصمون فيشتد بينهم الاختصام في أيهم يلتهم أكبر قطعة من اللحم . وأما المتسولون فقد ضربوا الحصار على مداخل المنزل واستعاضوا عن هيئتهم الشعثاء بوجوه ناس عياشين يطلبون اللّذة وقد غنموا بين عشية وضحاها من مجتمع الكثرة والاستهلاك واصبحوا متواطئين مع اغنياء تجار المدينة . كان القوم يأكلون ويتحركون ويقهقهون ويضطربون ويهيجون . وكانت الدار في حالة انهيار . كان أهل زبيدة أكثر من غيرهم . أما أنا فقد كنت عاجزا عن ابتلاع اي شيء فكنت اتدارك الامر باللجوء إلى فروج العذارى اعيث فيها بلا هوادة . وكنت آتي ذلك ليتم لي بغض أمي بغضا شديدا ولاذلال جميع النساء اللائي جعلهن القدر يمررن بين يديّ وأنا مدفوع الى ذلك بضرب من ارادة السخرية والاستهزاء (ياله من جبن !) .وكانت تبقى عالقة باصابعي رائحة عنيدة هي رائحة البول الزنخ كما لو كنت ادخلت يدي في سلة مليئة بالسمك المتعفن النتن . كنت ازني وأفسق بصورة آلية في الارامل والمطلقات من النساء اذ كن يفضلن فعل ذلك مع الصبيان اجتنابا للفضيحة واتقاء من جواز الحمل . وكانت احدى زوجات اعمامي تتوسل اليّ في اغتلامها الجامح المطلق العنان راجية ان أجامعها . الا انه كان يبقى لي اثناء احتلاماتي الشاذة الغريبة من ثقابة البصر ما يكفي للتفطن الى أن في عرضها ذاك فخّا يعبث على السخرية تنصبه القبيلة عسى أن يقع فيه ابن من أبناء يمّا . ويستمر الأهل والاقرباء في الوفود جماعات تتكاثر كلما تعاظمت حفلة الزفاف : فهي القوافل الحمقاء من البشر وقد حزّ النوم في عيونهم ، وتكلفوا مشقة امتطاء القطار طيلة يومين كاملين حتى اذا ما نزلوا في هذه المدينة الشاسعة المترامية الاطراف باغتتهم وصيرتهم محترزين أشد الاحتراز طيلة مدة اقامتهم بها . لقد كانت المدينة بأكملها تتحدث عن هيلمان هذا الزفاف الفخم.وكان الاثرياء يقهقهون وهم يهيئون لأنفسهم خلسة زفافات لطيفة يزفون فيها الى فتيات سمينات.واما الفقراء فقد كانوا

يتأوهون حسرة على فقدانهم القدر الكافي من المال الذي كان يمكنهم من الزواج من جديد وكان الأمر ينتهي بهم الى التوزع على المواخير المريبة. وأمّا النساء فلم يكن لهن رأي في القضية الا ان عشيقات سي زبير قد ثارت ثائرتهن لأن حفلة الزفاف في نظرهن قد طالت الى حد لا يغتفر وكانت « ميمي » احدى عشيقات أبي وهي من قدماء المنتسبات الى مواخير قسنطينة تصيح قائلة : ان هذه الغلامة المسكينة لا تجربة لها ولا رسوخ قدم !

وكان أبي في تلك الأثناء مشدودا الى رحم الفتاة ضرة أمي شدا وثيقا . وعبثا كان قراء القرآن يحتجون ويقبلون بملء شفاههم افواه الخادمات المسنات الدرداء ، وعبثا كان القضاة البدناء السمان يعبون الخمرة عبّا وقد فاحت من اجسامهم رائحة ماء الورد اذ كان سي زبير لم يكن ليتفضل بإشارة واحدة لايقاف ذلك الداء الذي تسرب في نفوس جميع الضيوف والمدعوين . وكانت السبحات تفرك حباتها حبة حبة ... وتهاطلت الحمدلات والتبركات . وصار القوم لا يسمع بعضهم بعضا من كثرة الصخب وفاحت من المنزل رائحة هي رائحة مسالخ الغنم . وكان العازفون بالموسيقى عميانا ويهودا علاوة على عماهم ؛ كانوا يطحنون طوال اليوم نغماتهم الصاخبة طحنا ويدعكون اوتار آلاتهم دعكا قويا (كم كنت أعشق آلة القانون !) وكان الضيوف تهمع عيونهم بالدمع من شدة التأثر وذلك رغم رائحة انفاسهم النتنة وسوء طيتهم الجلية ، وكلما مرت الايام ازدادت الافراح وتعاظمت . فكان جميع الناس منهوكي القوى خائريها ولكن لا احد كان يجرؤ على ترك مثل هذه النعمة المباغتة تفلت من بين يديه.وبعد ذلك سيعاف القوم حفلات الزفاف مدة اشهر طويلة.واما زبيدة زوجة أبي الجديدة فقد كانت تظهر بعض الانفة من ذلك بيد أنني كنت قد بدأت بعد في استراق النظر إليها فبدت لي رائعة الجمال فهيأت نفسي لعشقها والهيام بها فكنت كلما اقتفيت اثرها كانت نظراتي ترشق قدّها في شهوة

ورغبة ولكنها كانت تظل باردة برودة المرمر فكنا يتحدى احدنا الآخر . أبي يالله من نذل !... كم أهلك مثل هذه البراءة والطهارة ... على انه اصبح لا يوجه لي الخطاب فكنت أجد في هذا الحياء من أبنائه بعد أن فعل ما فعل مبالغة وافراطا ! أعضاء مبتورة . وجه فأر . وجوه مواليد ماتوا عند الوضع . أعوذ بالله ..! . كان الوالد يقضم قطعة من نهد ، قطعة من لحم الضرة الطفلة ويضرب الحصار على بيت الراحة . وكان الحقد والضغينة . وكنت اسخط ويتفاقم سخطي على بنات اعمامي فكنت ما أن يأتين فيحمن حول جنوني وهذياني حتى أصفعهن على خدودهن بدون تحفظ . لقد غدون لا يفهمن شيئا ، إذ أنني صرت لا أرغب في ذلك الشيء وذلك بعد أن عودتهن على ما عودنهن من سيء العادات . وفي الحقيقة فقد كنت أنوي بذلك ترك الوقت الكافي لأبي لكي يلتذ ويتمتع حتى أتمكن من تعويضه في الابان فأحسن تعويضه . فكانت بنات أعمامي غاضبات عليّ حانقات يوددن لو قتلنني ؛ فكن عند نهاية الحفلة ينصبن لي كمائن بأتم معنى الكلمة . لقد كن يبثثن حقدهن عليّ بثا ولكن روائحهن الشديدة المشعة من اجسامهن كانت تنبثني بدنوهن فكنت أعرف كيف أجتنبهن وأضلّلهن . وطاب لي اثناء حفلة الزفاف أن ألعب دور الفحل في غياب زاهر اذ كان طريح الفراش ملؤه الشعور بالاحتقار والازدراء لاضطراري وهيجاني العابثين غير المجديين . تقمصت دوري وقد عقدت العزم بعد على فعل الشيء . ولكن كنت اعطف على النساء اذ كنت ممزق النفس كل ليلة بين الحلم والخطإ . وعندها كنت أستأنف ملامسة العانات الناتئة العظام لاناث هزيلات واعود الى ولوج اشدهن سمنا .

وجيء بالمبردات . وكانت سيول « شراب الليمون » تتدفق بين النساء . أما الرجال فقد كانوا يتغزلون بالراقصات المحترفات وذلك قصد « نيكهن » مجانا فكانوا يسكرونهن « بالنزيتة » ويحمى وطيس حفلة

الزفاف وينقلب القصف والمجون الى شيء هائل مريع . فيأخذ المتسولون عند ذلك في رفض البقايا والفضلات ويطالبون باللّذائذ وأحسن المأكولات والمشروبات فكان كبار التجار يمثلون لأوامرهم اذ يجدون انفسهم امام ذلك الوضع الثوري فيفوز رعاع المدينة وطغامها بالنصر المبين . وكنت كثيرا ما أتزعم ثورتهم ولكنهم كانوا يأبون الاعتراف لي بالجميل بتاتا فيحزّ موقفهم ذاك في نفسي أيما حز . انه البغض والمقت ! وكانت الوفرة تؤدي بنا في النهاية الى حالة متقدمة جدا من الفتور والسبات العميق . وكانت اصوات القضاة الغليظة وهم يحمدون الله توقظنا فجأة مذعورين وتعرقل عمليات الزنا عرقلة كبيرة ذلك ان النساء كن متطيرات قبل أي شيء آخر، واذا ما خفن من نار جهنم أصبحن عنيدات عصيات ويصير عند ذاك كل توسل لنيل أجسادهن أمرا لا طائل من ورائه !

ويكون الابتهاج الشديد ! والمراحيض والبقشة والفروج الغارقة في العرق والحنّاء والعيون السّود كل ذلك ومحنة يمّا في استمرار دائم . كانت تعجن العجين وتطبخ الطبيخ وتعالج زاهر وهو يتضجر ويعاني الامرّين وقد وقع في ذهول وغفلة غريبين . وكان يتفق لي أن أكلمه فكنا اذا قبل أن يضع حدا لمناجاته لنفسه الغامضة المكدرة التي لا تطاق تقضي فترات طويلة من الوقت معا : يعلمني فيها ابغاض الوالد (كان يقول ويكرر : لا تتردد ؟ ينبغي الفتك بهم هو وصبيته والجنين !) كانت عيناه محمومتين وكان يرمي المحيطين به وهم في اندهاش بنظرة ملؤها الكبرياء والأسى . لقد كان يتخبط في تلك المطالبة الفظيعة وكان بذلك يسليني عن جبني : كنا نفهم الألفاظ على حقيقتها فنطفق نتصور الجريمة المثلى . وكان زاهر وقد هدأ روعه يغفو غفوا واما أنا فكان يخامرني خوف شديد . وكنت اجتر في ذاكرتي اشلاء متعفنة من جمل صغيرة ملؤها الجشع والسقم . وعبثا كان الوالد يتأوه لذة يشخر فوق جسم زوجته الشابة الأملس ، لن يكون في مأمن ولن يشعر بالطمأنينة أبدا . وكانت الأحابيل . لقد كنت أسب الدين بأعلى

صوتي وأنكر وجود الله والدين والنساء . وكان زاهر يكره القبيلة كرها ويمقتها مقتا ويبول في ماء وضوء الصالحين من القوم وقراء القرآن . وكانت الكوابيس مليئة بالزنابير المتجولة في فراش العروس . وكانت اللحي ... والعمائم ... كان الصلحاء والقراء مصابين كلهم بعاهة الحول وكان دأبهم غسل الموتى وكنا نلعنهم لعنا.وكان أخي يصرخ بأعلى صوته أثناء نوباته العصبية مؤكدا أنهم جميعا من قوم لوط وأما اخواتي فقد كن لا يجتزن عتبة الباب اذ لم يكن في وسعهن المشاركة في المؤامرة وأما يمّا فقد كانت تتوارى منهرية .

كان سي زبير قد اشترى نظارتين شمسيتين لاظهار ابتهاجه العارم ولابراز الدائرتين المحوقتين لعينيه علامة على أنه رجل قد نال ابلغ مبتغاه . وكان ذلك في الواقع يسمح له باجتناب نظراتنا وبمراقبتنا بدون أن يجلب الانتباه . وكانت حفلة الزفاف لا تزال متواصلة . وظلّ الشارع بأسفل المنزل تفوح منه رائحة الغاز الكربوني وكانت السيارات تكاد تنخلع وهي تمر على الطريق الوعرة المرصعة بالروث المدخن في الشمس . ان هذه العربات الهائجة الشبيهة بالقبور كانت ترتعد لمرورها دارنا على أسسها . ولكن لم يكن ثمة أي وعي اجتماعي ! كل شيء كان في حالة تعفن وسيلان ... انها النتونة.واختلّ الوضع وفسد واسودت آباط النساء وتقاطر منها العرق وخلع الرجال العذار وبلغت الحرارة منتهاها . وبال زفت الطرقات فسال منه سائل أسود قاتم وانكمشت دكاكين الحدادين على نفسها وقد نالها الكساد وامتدت اليها اصداء الحفلة . ولم يبق الا صناديق الفواضل السمينة تتصاعد منها رائحة الخرء وهي منتصبة شاهدا على الغروة واليسار . وكانت المآكل والأطعمة ... والتجشؤات الشنيعة يلفظها قوم قد أثروا خلسة وعلى عجل ... وكان الضرط يفرقع من بطون عائلات كثيرة الافراد محترمة ... وكان المنزل غارقا في جو ملوّه الملوحة والمرارة ، جو قد لزق بالمخلوقات وبالجوامد لزوقا عنيدا فكانت الجدران تخضر له اخضرارا . ويفور الرضى والانشراح من كل مكان

ويثقب أشد الوجوه تقطبا وعبوسا ويحمل الجدات السمينات على الثرثرة وقد غرقت اجسامهن في زينتهن القبيحة ، ملوحات بأيديهنّ متنكرات وقد اطلقن العنان لحلوقهن تبلع ولأفواههن تعبر عن المتعة والالتذاذ الى ما لا نهاية له . واما صناديق الفواضل فقد كان ذوو العاهات البدنية من المتسولين يهجمون عليها هجوما اذ لا حول لهم ولا قوة على ارضاء رغباتهم مثل بقية زملائهم وكان أكثرهم مشلولين فكانوا يزحفون على اربع فيهبشون بأعضائهم المبتورة في خراء ذوي اليسار . كان من عادتهم أن يأتوا صفوفا متراصة يظلعون زاحفين . واما العميان فقد كانوا يبرزون فيما بعد وذلك لاجتناب الزحمة ولكن الكلاب كانت لا تنفك البتة عن مضايقتهم وتبول على ايديهم. وأما النساء فقد كن لا يفرطن من وراء النوافذ المشبكة بالحديد في ادنى جزء من ذلك المنظر المضحك المطرب . وقد اضطررنا ذات ليلة حتى على استدعاء الشرطة لأن احد العميان قد مات مخنوقا . لقد وجدناه ممدودا على الفضلات القذرة وقد شدّ بيده على أير مشوه الشكل مازال يتقاطر منه سائل غريب مبهم . وفي الحين غزا الرعب قلوب الاناث فانقطعن عن التجرؤ على مشاهدة مآدب العرجان والعميان وتقيأن تلك الليلة فلفظن كل ما أكلنه طيلة الحفلة كلها واصبحت الدار تتضوع منها رائحة القيء وانخفض عدد النكحات الى نصف ما كان عليه . واقام القضاة صلاة الجنازة على عين المكان الذي توضع فيه صناديق الفضلات في العادة بعد أن غسلوه وطهّروه بالماء . ونهق القراء ببعض الآيات القرآنية ترحما على روح الصعلوك ، وداخل الموت حفل الزفاف وبلغت المهزلة اوجها حين تنكر الذراري في هيئة اشباح الموتى واخذوا في مطاردة النساء حتى اصبحن يعتقدن بأن الميت قد بعث . وأصبن جميعا بداء اليرقان من جراء الرعب فانطلقن موكبا ماشيا لاستشارة احد المشعوذين ! ولم يترفع عن كل هذا الاضطراب والبلبلة الا الوالد فحسب . لقد خرف خرفا تاما ولكنه متى عثر على أحدنا عاد اليه وجهه الشارد المعاند فيقطب حاجبيه ويمعن

الطر فينا من وراء نظارتيه السوداوين الى حد يجعلنا نتلعثم من شدة المباغتة . فهو لم يفقد عقله اذن بل هو مستمر في التكثير من تناول العسل واللوز المقلي (فالوسوسة الجنسية ما تزال مسيطرة عليه) ويدشن كل يوم جبة جديدة لماعة اتخذت من الحرير الخالص تسقط على ركبتي ساقيه فتغطيهما . وكان من شدة شغفه بالتأنّق يحلق أسافل ساقيه . كان قصير القامة قوي الظهر وكان وجهه يتدحرج على ذقنه وذلك بسبب زائدته الانفية الممتازة بضخامتها والتي كانت تطمس كل شيء . كانت عيناه مغضنتين غارقتين في شحم جفنيه الضخمين . وكان متى اجتاحه الغضب توقدت حدقتا عينيه بغتة فيجمّد بذلك مخاطبيه . لقد كان في ذلك قوته ! وأما زبيدة عروسه فقد كانت شفافة الالوان وكانت تساندها على الدوام جماعة من الزنجيات العجائز يقتفين أثرها حيثما حلت ويشرحن لها السلوك الذي ينبغي أن تسلكه مع زوجها فكانت هذه التربية الجنسية التي تلقتها تلك البنية الصغيرة تكتسي هيئة الكابوس . ولم تكن هذه العروس تشارك في حفل الزفاف الا في فترات متباعدة وكان زاهر يصيح مذيعا في كل مكان بانها صارت تحبّه حبا عابرا . وظنّ القوم أنه صائر الى الجنون. ثم انقطع فجأة عن الكلام . وكنا على وشك بلوغ نهاية الحفلة . كان العازفون اليهود بدورهم يطلبون من النساء العطف والمجاملة فينالون من ذلك قسطاً الا ان النساء لم يكن يذهبن الى ابعد من ذلك إذ لكل جنسه وعنصره . فكان ذلك يحز في نفوس العازفين أيّما حز وقد نغّص عليهم امرهم علاوة على ذلك عماهم . وشد بعض المدعوين رحالهم . وكان الجو يبشر بأن الوداع سيكون شهوانيا للغاية وأما أنا فقد كنت مسلوب اللب سلبه تشمم رائحة النساء اللائي عرفتهن عن كثب . وأما يمّا فقد كان يغمى عليها مرتين كل يوم وامّا أخواتي فقد كنّ يتعدين حدود الله مع ابناء أعمامي . وكانت البلادة والحماقة . وحان وقت التوقف ... لم يعد أحد يطيق الحالة ما عدا الوالد وقد برز من جديد في قوة وبأس كنّا نذهل لهما

وندهش . لقد كانت السعادة تنزّ من جسمه نزّا وكان كثيرا ما يتفق أن يراوده النوم وهو واقف لفرط ما كان راضيا عن حظه مسرورا به وكان أعمامي في تلك الاثناء يغتنمون هذه النعمة الطارئة لتجريد الخزينة مما فيها من نقود ولتزوير الحسابات .

وسقط المنزل بمجرد انتهاء الاحتفالات في سبات عميق . ورجع سي زبير الى متجره واستأنف استبداده وطغيانه . وعادت زبيدة فاستقرت من جديد بالفيلا الخاصة بها بضاحية « البيار » وكفت يمّا عن الاعتناء بزاهر واستمر زاهر في الحقد على الجنين وبقي لغز هذا الجنين في نظر الجميع لغزا مطلقا . وشيئا فشيئا استعادت القبيلة عاداتها . لقد كانت النساء منهوكات القوى ففقدت مشاجراتهن جزءا من شدتها واحتدامها المعهود ولم يبق فينا من آثار الحفلة الا هذا الفتور العظيم الذي كنا نشعر به يدب فينا دبيبا حتى يبلغ عضلاتنا ذاتها . وأما يمّا فكانت تفضل السكون والحذر . وكان فصل الصيف كالمستهلك وقد استوى في فصل شتاء سابق لأوانه فصرنا لا نعرف احوال الطقس بالضبط. واصبح الصمت قاسيا فظا وقطع الاحاديث الشبقة الوقحة التي غمرت المنزل طيلة اسبوع كامل . وكان الاعمام يتكلمون بصوت خافت (ترى ما كانوا يدسون ؟) وكان الصبيان قد انقطعوا عن التهريج فمكنوا بذلك النساء من الظهور بمظهر أحسن في سلوكهن وكان ضرب من الضيق قد حل بيننا . ولما كنت لا أفهم ذلك فقد كنت اظن الظنون وراء الظنون قصد الخروج من ذلك المأزق. وكانت الرقى المؤذية وكان الهدوء والسكينة. كان زاهر قد اتخذ هيئة احبار اليهود فأرسل لحيته وشاربه . وكان يكد ويجدّ ولا ينى في سبيل جعل الجو جوا مخنقا وكان يحبس نفسه في حصن حصين من الصمت المختوم . أجل انه زاهر ذلك الرجل الذي كان يطيب له ايما طيب الاطناب في الاحاديث السفسطائية المطولة الخاوية من كل معنى ، انه هو بعينه الذي انقطع عن

حطب الوعظ والارشاد ، ولشد ما كان ذلك يدهشني منه الى حد التلعثم والاضطراب . لقد كنا جميعا مبقورين بقرنا الموت واخترق جلودنا . وكان أخي يقوق كالدجاجة ولا يبرز للناس الا مرتديا جبّة طويلة الاذيال مرصعة بالثقب ومنقعة بالشحم فكان يتبختر مختالا كالطاووس الساعات الطوال في زيه ذاك الغريب محركا مروحة بدون هوادة ولا انقطاع رغم برودة الطقس وهلاك جميع الذبان . ولم يكن أحد ليجرؤ على التدخل في أمره، غير أنه من ابرز خصائص تصرفات أخي تلك أنها كانت تثير حنق قطط المنزل فتطفق في ابراز مخالبها بدون انفكاك تاركة احضان النساء فتزيد في شقائهن أكثر من أي وقت مضى . لقد كن يجتمعن ويتآمرن تآمرا حقيقيا لا يتفشى عنه أي خبر رغم انتباهي المتزايد فلا شيء الا بكرة البئر تصر صريرا في استمرار فتحدث دويا مشؤوما . وانقطع الماء عن المسيل بمثل السخاء الذي كان يسيل به من ذي قبل. واما شمس الخريف فقد كانت اشعتها تدخل حسب زاوية مستقيمة فتلج عيون الذباب القليل المحّوم ارتياحا . واذ ذاك كنا نفهم أن الساعة هي منتصف النهار . كان زاهر يغادر فراشه ويعود اليه في غير انتظام وكنت أجتنب ملاقاة أخواتي وأما بنات أعمامي فانهن لم يعدن يفرجن ما بين أفخاذهن في جلاء ورياء كما كان ذلك لما كن يجلسن على الارض مباشرة . وكانت القبيلة تتهافت وتتلاشى وهي تسترجع ما فقدته من الحياء والخجل بعد ما تعاطته من مجون لا ينسى . وكان النور يفقد شيئا فشيئا من إشراقه. واما دماء حيض النساء فانها قد فقدت ألوانها الجميلة الشهيرة شهرة أساطير الاولين . وكان جميع النساء قد اصبن ببعض الامراض الخبيثة السرية وكانت استيقاظاتنا ترجع الينا آلام الامس وصمته . وأما يمّا فقد كانت متسترة ملازمة غرفتها .

كانت غرفتي (وهي غرفة أمي في نفس الوقت) تحتفظ ببرودتها رغم حرارة الشمس ، وها هو دوي عربة الترامفاي تمر بأسفل منزلنا . وها هما بقعتان من الظل على قماش الستار المتخذ من التول (7) الأبيض. وعلى الارض

فيض غزير من الالوان المتداخلة (من اخضر الى احمر ...) . كانت الالوان تحزز الجليز تحزيزا عميقا ، وكان زاهر يفضل النوم من جديد . ها هي الأصوات تصدع الجو تصديعا .كان دوي الشارع يدخل الدار منجّما ، ها هي صيحات الباعة : أووووه ! أووووه ! (انها صيحة شحاذ السكاكين) . وها هي جعجعة رحى آتية من بعيد وصوت شبابة . وها هو النعاس بين الآونة والاخرى ورائحة المستشفى والتعب . ان صبيان الحي قد نصبوا احبولة : كانوا يتظاهرون باللعب البريء ويتحينون أدنى غلطة يغلطها بائع الغلال فيختلسون بطيخة ضخمة جدا ويرتعون ويركضون ويقهقهون ويقتسمونها في عقر احدى الازقة التي انقلبت بوّالات . انها لذة الفرار ومتعة الولوعين بالسرقة . اما البائع فقد لاحظ كل ذلك ولكنه تظاهر بالتشاغل بشيء آخر وذلك لكي لا يضطر الى الجريان لمطاردة هؤلاء الغلمان وهم أخف من البرق ولكي لا يعرض نفسه الى سخرية زملائه. ولما كان الشارع ممنوعا علينا فقد كنت لا أغادر النافذة البتة . ها هي اهتزازات بلور النافذة اهتزازا خفيفا عند مرور عربة الترامفاي وها هو دخان باعة المرقاز ومناضد الباعة المعروضة في الهواء الطلق والعفونة السيالة المغشية لجوانب البوالة العمومية المنتصبة أمام دارنا بالضبط . وبالقرب منه يقوم المسجد الصغير تسكنه العناكب والرتيلات ويغشاه مؤذن خجول لا يجرؤ على رفع صوته عند الاذان . الصلوات . الله أكبر . القباب تلو القباب الى منتهى البصر ... الهياكل ، والغرابيل والسطوح البيضاء والسطوح المغراء والسطوح الزرقاء . ها هي الصرصرة . الاختلاجات ... زززز ! زززز ! هذا طنين اليعاسيب ؟ أهو الصيف أم الشتاء ؟ (من يدري ؟) ها هي الذكاكين المبرقشة بمختلف الألوان . إن بعضها لكأنه لابس لبوس المأتم والحداد (ولكن ترى مأتم من ؟) جموع الناس . كانت الحركة تبدو من عل اشد سخافة . الباعة المتجولون يتحاشون الوقوع في قبضة رجال الشرطة . ورجال الشرطة يطاردونهم . لحاف أبيض (مجرد

احاء !) يخترق من حين لآخر الكتلة التي لا شكل لها ولا قوام . عينان سوداوان كحلهما الكحل وفيهما حول طفيف ! ان الرجال يعشقون ذلك وبزورّ له انظارهم في حدود ما يسمح به الدين . يا لتخلع الخواصر ! . وصوء المرأة (دائما نفس الايحاء) . فيه مع ذلك رقّة ولطف . كان كل شيء شفافا . الوقت يمر . لا شيء اشد كآبة من قضاء آخر النهار وأنت مطل من النافذة . ان زبيدة أسيرة في قعر « فيلتها » . بعد حين ستظهر الازاقي في الليل وقد بدأ يسجو . هل انزل بحذر واذرع الأرصفة جيئة ودهابا حتى ياخذني الاعياء ثم اعود الى المنزل الجامد ؟ كلا ! ان في ذلك لكثيرا من الجرأة.فقد يصادف ان يباغتني الوالد او ان يخرج الاعمام في طلبي . لا ينبغي ان امكن العائلة من الفرصة التي كانت تنشدها لتخرج من المأزق الذي كانت تتفتت متعفنة فيه منذ ان انتهت حفلة الزفاف . لقد كانوا خائفين اذ ان يمّا ستخلق لهم مشاكل لا محالة ! ولو كان ذلك انتحارا أو فرارا من المنزل لكان أمرا هينا أما ان يكون الزنا فلا ! ومن ذلك وجب اذن حراستها ومراقبتها مع التظاهر بعدم الاهتمام بالامر ثم الهجوم عليها بغتة وتسليمها حية الى رئيس العشيرة . وكان اعمامي خائفين اذ لو اقترفوا اقل هفوة لطاردهم سي زبير بل ولقتلهم . ياالهم من انذال ! انهم لو فعلوا لما نجوا من العقاب ، هؤلاء الاعمام القرع ! لقد أصبح كل شيء واضحا : فالعلة هي الخوف من حدوث الزنا . وقبل ان يبتوا في طريقة العمل النهائية كان ينتابهم سكون وتفكير عميق . لقد كان أعمامي جهلة أميين جشعين اشرارا يتلذذون بقسوتهم على الغير، وكان والدي أخوهم الأكبر يهيمن عليهم هيمنة وهو ذلك الرّب البطين الذي كان يسحقهم سحقا بفضل ثقافته العصامية إذ تكوّن ، بين ذراعي إحدى عشيقاته وقد كانت تحترف التمريض، وهي علاوة على ذلك بنت من بنات احد كبار المعمرين . لقد كانت مدموزال « روش » هذه تحبني كثيرا فكانت تتخمني بالشكولاطة وتتمتع بذلك الكسكسي الرقيق جدا والشديد الحرارة

الذي كانت أمي تعدّه لها . وعندما كنا غلمانا صغارا كنا نباغت الوالد مع ممرضته . لقد كان يلذ له ويطيب أن يطقطق مطاط جواربها وهو في صميم درس النحو الفرنسي . وكان يلذ لها ويطيب ان تدعوه بلفظة « سيدي » وان تقبل يده اجلالا واحتراما . وفي الحقيقة فقد كانت هائمة بهذا الرجل تاجرها الغني ذلك النكّاح الذي لا يني،المتفتح تفتحا كبيرا على الثقافة الفرنسية رغم تعصبه تعصب المسلمين الاقطاعيين ورغم تعلقه بمفهوم القومية تعلقا بلغ منتهى الحدة والشدة . وأما نحن فكنا نعشق ممرضتنا تلك شريطة أن تقدم لنا شراب السكر،نعشقها ببشرتها الشحمة الحمراء وبموقفها المعادي للعنصرية وبنهديها البارزين على الدوام تحت اقمصتها النقية الناصعة (ترى هل كان ذلك مأتى تلك الرائحة التي تخلفها دائما وراءها،تلك الرائحة الشبيهة برائحة اللبن الغليظ) وسرعان ما يسيطر الوالد على اللغة الفرنسية ولما كانت قدمه راسخة بعد في اللغة العربية فقد امتدت سيطرته على كامل القبيلة فسحقتهم سحقا . واما الاعمام فقد كانوا يزحفون على بطونهم فلا يجرؤون على رفع اصواتهم أمامه لا سيما أن الوالد قد هيأ لنفسه الاسباب لنهب جميع أموال العائلة وذلك بأن تحالف في الابان مع السلطة الاستعمارية . ولكن عصابة الاعمام كانت في دهاء ومكر تثأر لنفسها منا نحن ذرية ذلك الرئيس الرهيب، المكروهة الممقوتة. وكانوا يبلغون في ذلك مع أمي الى حد الاضطهاد لقد كانوا يحتقرونها لأن موقفها من هيمنة سي زبير كان مثل موقفهم هم منه . وكانوا اذا انعدمت نجاعة طعناتهم الخفية لها وأعمالهم الدنيئة ازاءها يقررون الانقطاع عن توجيه الخطاب لها . وعندما كانت تضرب حولهم الحصار مطالبة اياهم بالصفح عنها تشك في امكانية حصول ذلك ولا تناله الا بمناسبة كبار الاعياد الدينية . وكان أكبر اعمامي ذا شراسة وفظاظة خاصة . كان دائم الحك يحك جلد رأسه ويغطي رأسه بشاشية ضخمة جدا قرمزية اللّون كانت تنزل على رأسه الى أن تبلغ حد حاجبيه وكان يفعل ذلك لاخفاء قرعته .

وكانت تسليته الوحيدة تتلخص في اثارة اعجاب نساء الدار العظيمة واطفالها وذلك بأن يؤدي فريضة الصلاة بصوت عال . وكان يبالغ في الامر بطبيعة الحال ويزيد من عنده فمن وضوء صاخب الى رفع عقيرته بصوت عال . كان يطيل في ذلك عمدا للاستزادة من التمتع فكان يلتذ كالملتذ بالفرج تماما لرؤية زوجات اعمامي وهنّ معجبات بورعه وتقاه فيحمحم طربا . وكان عند انتهائه من الصلاة يسجد فيطيل السجود ويقبل الارض ويتمتم ويتلعثم ويوشك على فقدان رشده وينهي ذلك كله في همهمة مبهمة غامضة فكانت النساء يتهيجن بذلك الى ابلغ حد. واما انا وأخي فإننا لم نكن لننسى ضغينتنا فكنا ننشر أعلام الفرح لرؤيته وهو على تلك الحالة ضعيفا سهل المنال. أمّا فهو فلم يكن يقتصر على ذلك بل كان بمجرد انتهائه من الصلاة ينتصب في قلب صحن الدار ويأخذ في فرك حبات سبحته بين انامله حبة حبة مدليا لزوجته بنصائحه بشأن طريقة طبخ طعام العشاء . وكان يوقف قطط الدار عند حدّها مانعا اياها من ولوج المطبخ وكنا نحقد كثيرا على أمنا لأنها كانت في مقدمة من كانوا يجلون ورع العم وتقاه الشديدين ذلك أن مثل هذا القدر من ايمانها الساذج كان يبعث في نفوسنا الارتباك والبلبلة : فما أجمل الدين والله ! ولله درّ العم ما أمهره في الاضطلاع بأمور الدين !

لقد كنت مدركا أسباب ذلك الهدوء المؤقت الذي حدث بغتة . ذلك أن القوم جميعا كانوا خائفين . كان من اللازم لهم أن يضعوا خطة محكمة بعد التأمل واطالة التفكير. فكانوا يطيلون التشاور فيما بينهم حول الاجراءات اللازم اتخاذها . وكانت يمّا لا تفهم شيئا اطلاقا فيما يخص الامور التي كانت تجبك حولها . فكانت منصرفة الى قضاء حاجات المنزل حتى اذا كان الليل طفقت تهذي شبه هذيان واذا ما حلّت القائلة صنعت لنفسها احلاما لطيفة . لم يكن ليمّا أية شخصية قوية ولم يكن لها حتى طيف ارادة بل كل ما في الامر الخضوع والاستسلام . ولم يكن يحمول

عزيمتها الذاتي يدخل الشك في نفسها . كانت تنصرف بدون هدف واضح . وتتراجع فتصادف قلب جملة من الجمل فتطلب منا ان نكرر لها ما قلناه آلاف المرات وتقول انها لا تدرك معنى كلامنا حق الادراك . كانت تضحك ايضا ويحمر وجهها احمرارا وكانت تصاب على الدوام بشيء من الهوس (أهو انقطاع الحيض عنها ؟) كانت تترنح في مشيتها . وتعانقنا أحيانا وأحيانا تنفر منا وتدفعنا عنها وتشهق باكية منتحبة . ثم أنها بعد عرض نفسها على انظار الناس بما فيه الكفاية كانت تتناول سبحتها فتحمد الله ألف حمد وتشكره ألف مرة على رأفته ورحمته . وكانت توقد الشموع على سبيل النذر وتنتن رائحة المنزل بأن تلهب في كانون ضخم محمر الجمر نباتات كنا نصاب بصداع أليم لرائحتها الكريهة . فكان زاهر يبرق ويرعد لذلك . ياله من سحر شيطاني ! ويالها من تخميرة خاوية من كلّ معنى ! فكان الخوف يراودنا على أمنا وقد دخلت في طور غريب فأخذت تبتسم بدون سبب بين الحين والحين،لقد صرنا نكاد لا نثق بأنها هي هي لشدة ما اصابها من البله،أكان ذلك مجرّد تصنع ورياء منها ؟ لا أبدا . لم نكن لنعتقد ذلك البتة ! بل غاية ما في الامر انها كانت تهيء نفسها لاجتناب طعنات الاعمام وذلك بأن تباغتهم فتقطع الطريق في وجوههم.وكان زاهر قد وقع في فخ صمته الذي اصبح صمتا مأساويا كانت أمنا أهم ضحاياه ولكنه كان يقسم في تعنته وعناده بأنه سيصمد الى النهاية . فكانت المؤامرة الكبرى تنقلب كارثة عامة : أمّا السلاحف فكان يصيبها الغم وأما الرضّع فكان يعتريهم انشداه عظيم فلا يتجرؤون على البكاء وينعدم كل شيء . النسيم لم يعد يصل الى وجوهنا المتعطشة الى أدنى نفح من البرودة . ويطول الانتظار وينتاب يمّا الخوف من أن يقرر القوم فجأة اعدامها بتسرع . وكان زاهر أول من حطم قيود القمع . فقد أفاق فجأة من جنونه وانقطع عن التسكع في المنزل وأصر على التنزه وحيدا بالمدينة . وكان عند رجوعه ليلا الى المنزل يخلق حوله جوا حقيقيا من الحيويّة وذلك بأن يقص

على النساء الحبيسات أدق تفاصيل ما رآه من أمور. وكان يجتهد في رواية ما طاب له من الكذب ذلك انه كان يعلم ان النساء لا يعرفن المدينة التي يعشن فيها . ورجعت المياه الى مجاريها بصورة تدريجية فاسترجع الذكور ثقتهم بأنفسهم واسترجعت الاناث وشاياتهن يتبارين فيها بغية ارضاء ازواجهن . ولم يحتفظ بهيئته الاولى الا الحيوانات فقط . ولما كانت أمي محكوما عليها بألا تغادر المنزل الى يوم وفاتها فقد كنا جد قلقين لفكرة ذلك الاحتضار الذي سيستولي علينا ولفكرة ذلك الحب الامومي الذي سيبتلعنا ابتلاعا . لقد سدت السبل وانقطعت المنافذ .

كان زاهر يتجول في انحاء المدينة فيرى التموجات الرماديه والاهتزازات المعدنية وخطوط الطريق الصفراء. ولا تثبت المدينة الا مدى ما تستغرقه قعقعة خاطفة كالبرق عند مرور قطار متوجه الى بلدة «البليدة». وما البحر الا امتداد لزج يتغير لونه بحسب تغير نشاط الاسواق . انه يتسرب الى أن يبلغ قلب الشوارع الكبيرة ويلطخ النيون فيحيله الى أيونات محطمة لا جدوى لوميضها الفسفوري وتعوزها الذلاقة الخاصة بالحركة.البحر في مدّه وجزره الأزليين يتحول عندما يبلغ النهار أشده فاذا هو تأجج صاخب، ويقصي الهضبات بعيدا حيث ترى العمارات ذات الاسلوب المعماري الطلائعي تحدث ضربا من التشويه الكثيف . ويفيض البحر على الارصفة حيث ترى العاطلين يهملون أعقاب السّجائر باحتقار للتمكن من تركيز ذهنهم على احلامهم التي تتصور لهم في هيئة سفن تحملهم ان شاء الله الى كبار المدن الفرنسية حيث يصبحون طغاما من العمال يدخلهم سم الطمع في ارتقاء درجات السلم الاجتماعية . والبحر يلحس في لمح البصر ذلك الخليط المتراص من الفلوس والصفائح الحديدية البارزة في الهواء الطلق مهددا الشمس في ثبوتها وعدم حركتها الغربية ، ويشرع البحر في حركة

جزر للتمكن من إحكام حصر المدينة وتضييق الخناق عليها ولكي يفرض عليها ابعاد مقاييسه الذاتية فيعصرها عصرا ويغمرها فتكتظ به . البحر متى وصل الى الميناء فواجهه استحال الى شيء لا يطاق ويهدد القصبة بالخناق ويحملها على التصاعد في متاهات ملتوية ثم يفضي فجأة إلى سجن «بربروس» في استدارته الجبّارة التي كانت كأنها تمدد عمدا انتظار اولائك النسوة اللائي اصطففن أمامه بدون انقطاع منذ الثامن من ماي 1945 ويمررن بين الحرّاس الكورسيكيين فيفتشونهن وهم لا يحلمون إلا بتجريدهن من اخمرتهن البيضاء التي يلقي بياضها عليهم رشاشا جنسيا . البحر يحسد تلك المآذن المرتدة التي ضاقت ذرعا بصلبانها التي ابتليت بها لسوء حظها . البحر يحول للحمام الوطني الغيور أن يلوث كل يوم تلك المساجد القديمة التي اضطروها الى التنكر فألبسوها لبوس الكنائس . وفي نهاية المطاف يهدأ البحر ويترك جميع مطامعه ومطامحه وعندها تسترجع المدينة تفوقها عليه فتطلق العنان لأضواء المرور الخضراء والحمراء والصفراء وتنفجر بجميع انوارها وتخلق نشاطا متصنعا ، الغاية منه إثارة دهشة الفلاح البدوي العربي الذي لا يعرف كيف يخترق الشوارع في الممرات المعلمة بالمسامير والخاصة بالراجلين، وتضفي على وجوه المارة ملامح من قرون المستقبل وتبرز تقاسيمهم في هيئة اشكال هندسيّة وتلصق على اوجههم رسوما دائريّة مختلفة الالوان والأشكال وتصبغها بألوان كدراء . وتتناوب السيارات على قارعة الطريق اللماعة المتوهجة من جراء زوابع الخريف الأولى ويغطّي دويها الصياح المنبعث من المقاهي حيث كنت ترى أطفالا مريضة عيونهم يطلبون الصدقة ويجرون وراءهم علبا من الزنك مربوطة الى طرف خيط تقوم مقام اللعبة عندهم .

وكانت المدينة في تلك السنة في حالة تفتح وازدهار تعرض على عين الناظر حظائر بناء شعثاء كانت رافعات الاثقال تشيّد فيها عن طريق الاختلاجات الكهربائية سقالات متشعبة يخيل في كل آن الى الناظر إليها

انها موشكة على السقوط في البحر المغري الذي كان يترصد في كل منعطف من منعطفات الانهج السائح الساذج الذي يريد أن يملأ منه وطابه . ولكن السياجات الخشبية المزركشة بالمعلقات المتدفّقة الألوان تدفقا يبدو كأنه قد انبثق من المادة ذاتها كانت تحول دون اطلاق النظر . وتعود المدينة فتستقر في حالتها العادية التي كانت عليها دائما أي الى تجمع مائج من المساكن تدور حول نفسها وتفوح منها رائحة البحر أبد الدهر . وبالاسفل من ذلك المكان أي في منطقة الميناء تجد الهدوء شاملا والانهج سيئة الانارة وعدد الحانات والخمارات والمطاعم الشعبيّة يضاهي هناك عدد السفن . فترى الصيادين يأكلون فيها السمك ويشربون الخمرة الحمراء ويدخنون « الكيف » . وفي بعض الليالي كانوا يسكرون حتى يفقدوا رشدهم ويتفضلون بقبول نكاح بعض البحارة الاجانب وباعة السجائر من الاطفال الصغار . ها هو ذا الحبق الازرق والجدران المغراء اللون . ان رجال الشرطة متواطئون في القضية فهم يحترمون احلام المستهلكين . ان المدينة تموت هناك اذا حكمنا بالاعتماد على ارتداد امواج البحر القريب كلّ القرب من هناك . وها هي السياجات الحديدية القائمة بمدخل الميناء قبالته تماما . ان الدوي والصخب والضوضاء لمدفوعة قسرا الى مستوى الكوابيس ها هي رائحة الزيت يغلي في القدر حيث تراهم يرمون قبضات ضخمة من الارز الوردي اللون . ان الرجال لناعمو البّال فاترون في دفء . ها هي الشرفات . وهناك دائما عازف على القانون رابض في الطابق الاعلى . ان الاضطراب لا يبلغ الى هنا ابدا حتى عند تفريغ السفن من حمولاتها . ان المدينة اذا نظرت لها من هذا الموضع تبدو لك كأنها خيالية مطموسة المعالم : فهي كما لو لم توجد قط ! والببغاءات الصغيرة لها أقفاص جميلة مذهبة . وها هو ذا الحديد المطروق يبرز من الظلام بدون سابق انذار . ان عملة الرصيف لهزيلون عجاف أجسامهم ذات عقد وفي لحيّهم السيئة الحلق دمّل . ها هو ذا العرين فيه يحلمون احلام اليقظة في اطمئنان ولكن

الأوجه تبقى متوترة : انه انتظار الموت أو انتظار شيء شبيه بالموت . وبنشاجر المخمرون مع مدخني « الكيف » بدون أن يرفعوا اصواتهم . وها هم بالعوا سمك السردين يتراهنون . لا نساء هناك أبدا ! انهن يتعفن في اوهامهن فلا حاجة لهن بالتناجي . ها هي البمامة ! ان الاغاني هنا لحادة ، جافة الوقع وها هي الروائح والعبير ! ها هو ذا رجل يدخل احدى المقاهي ليس فيه الا حصر للجلوس . انه غريب الهيئة لأن رجليه ليس فيهما تلك الرائحة الكريهة علامة الانتساب الى نفس العصبة ورغم ذلك فهو ليس دخيلا . انه يحمل تحت سترته المتخذة من الكتان الأزرق موسى ذا فرضة توقيف انه لا يخرجه ولكن وجوده أوضح من النهار لكنه كان بخلاف ذلك يعرض على الناظرين علبة ثم يفتحها بحركة مسرحية : فيرى الراؤون مئات ومئات من الزنابير المتراصة ويغرق صاحب الموسى زمنا طويلا في عد الزنابير وهو يضحك وحده ، فلا يقلده أحد وعندما ارجع الرجل تلك الدويبات الى علبتها لم ينبس أحد ببنت شفة وهزّ أحد الشيوخ رأسه فلفظ النفس الأخير فتركه القوم يفعل فعلته . ويمرر بعض البحارة الاتراك نصيبا من الحشيش على الجماعة . ها هي ذي الغليونات تدخن . وتمر آخر حافلة عمومية لتلك الليلة تحت نفق الكليات ولكن احدا لم يسمعها : ذلك أن المدينة الصاخبة تفنى في نقطة ما بين ساحة البريد والبحر . ان المطاعم الشعبية مصنوعة من خشب مأروض أكله الدود وكان الدود الذي تعج به يأكل جميع ما يطرح على الارض من نشارة مجعولة لتغطية قيء السكيرين ؛ وكلما ماتت دودة التقطها احد الشبان ووضعها في جيبه . ها هي ذي شبه الظلمة الصفراء ، وقلائد الياسمين . ان صاحب المحل رجل سمين لطيف انه من قوم لوط ولكن لا أحد يرتاب في أمره رغم هيئته وحركاته المتخنثة لأن منزلته من القوم قريبة من منزلة أب الجميع : وهو يستحسن كثيرا شعر زاهر في حين أني أجهل حتى وجود ذلك الشعر . في هذه الحمارة بالذات كان أخي الاكبر يأتي للشراب اذا ما ساورته الهموم

(وكانت الهموم تساوره على الدوام) . معارك الجرذان على ارصفة الميناء . وها هي أضعفها تجري فتلوذ بالنجاة تحت ارجل الشاربين بالذات فيداعبونها بأعقاب ارجلهم . وتطفو قشور الموز على صفحة الماء فتراها العين ليلا بفضل وميضها الفسفوري (أم ترى هل أن ذلك هو مجرد اتخاذ للبصر لدى احد مدخني الحشيش ؟) وها هو زنجي بدين يدخن النارجيلة وقد لف رأسه بمنشفة حمراء قرمزية ولكن لا أحد يأخذه مأخذ الجد . وها هي عصافير الكناري صامتة . ان السقف محلى ببعض صور النساء العاريات فعلى الحرفاء اذا ارادوا جلد عميرة ان يرفعوا اعينهم الى السماء ؛ فيمدّد بحثهم عن لذة الفرج في تصوّفهم ، يا لها من أبهة ؛ أبهة الفراغ والفوضى القابعين في الرؤوس . ويتناكح الذباب على قطعة بلور مرآة مهشمة اربا اربا يقوم صاحب المحل كل ليلة بجمع شتاتها وتلصيق اشلائها . ومع ذلك فالناس لا يتقاتلون في ذلك المكان أبدا ولا يقتلون الغير ذودا عن الشرف . يا لها من مرارة . وكنت كذلك تسمع الأنين والتأوهات في المخارىء الدبقة حيث التغوط قضية عسيرة كأداء بسبب هشاشة ذلك العالم الشفاف المتأرجح في أذهان المدخنين (أم هل أن مرد الامر هو مجرد صعوبات ناتجة عن اصابتهم بمرض البواسير) . ان ثمة لشيئا غير سليم وخيم ... انه الخوف الموسوس من العناكب وهو بالزبائن اشدّ فتكا من البطالة التي تترصدهم عند خروجهم من احلامهم . ورغم ذلك فان كل فرد منهم يحتفظ بحذره واحترازه ، وما تفاؤلهم الاكيفة يكيفون بها ظهورهم علنا في الحياة العمومية . ولكنهم يتذكرون كذلك وقد داخلتهم النشوة الكبرى فاخترقت نفوسهم من جميع منافذها انهم قد فنوا قديما وقد خارت قواهم من جراء بحثهم عن عشيقة متوحشة . ومع ذلك فلا حقد في نفوسهم البتة . فالقضية قضية قصص الحب والغرام ليس الا (لقد قال عمر الشاعر المغبون الذي لا يعرفه احد من اهل المدينة والذي سجنوه في مستشفى المجانين : إن الخمر لحال على خدّ الذكاء) . انهم يجرون بحماس

عارم وراء المرأة وهي في نظرهم المذنبة المقترفة لجميع الآثام ومن أتعس اثامها انها لا تملك ضميرا . هل كان هؤلاء العشاق الجامدون يضحكون في ملجئهم الأمين ذاك ؟ كلّا ! كل ما في الامر أنهم كانوا قد شدّوا الى نصوّراتهم العفنة رغم ابتهتها في الظاهر . انهم لم يعرّضوا انفسهم الى أي خطر البتة . ها هي ذي رائحة الحبيبة وقد شدت الى عودها وإلى زوجها ، لم تكن تستطيع الاتيان ما لم يسيلوا الدم تكريما لها . كانت ليلة جميلة. وفي الخارج لا أثر لأية نبضة أو اختلاج . ولا ارتداد في الامواج . ان للسفن هيئات واشكالا غريبة وهي لا تحمل الا سلعا حربية . ها هي ذي رائحة الأسفنج الطري وفناجين القهوة . وها هو ذا احد الصيادين يوشم صيادا آخر . وتزداد الروائح المتصاعدة من الميناء نتونة : انها رائحة الاسماك الجافة وأحشاء القطط . وينقلب الماء فيستحيل الى طعام مهضوم في الامعاء . وينصرف أحدهم . وينظر آخر الى صاحبه يكتب رسالة غرام على لسانه . ويرتل رجل قد جلس بعيدا عن الآخرين آيات قرآنية وكلّما غابت عنه كلمة عوضها بأختها : ولكن مجموع ترتيلاته يبقى متماسكا منطقيا لأن في القرآن لنشوة وسحرا . ترى هل دخل زاهر أحد هذه المواخير ؟ لم أكن والله أدري ! فقد عاد الى المنزل في ساعة متأخرة جدا من الليل ولكنه لم يكن مخمورا .

لم يكن ابي في الواقع الا مبتلعا نصف ابتلاع ابتلعه فرج زوجته الشابة . ولم يمنعه انقطاعه عن زيارة الدار التي تسكنها قبيلتنا الضخمة من ان يستمر في الهيمنة التامة علينا . ولم تعد يمّا تهمه فقد أهملها شر اهمال . وكان مطمئن البال متوكلا على اعمامي . ولكنه كان يحذرنا كل الحذر . وكان يرى أن وجوهنا وجوه خونة قتلة . فلم يكن في وسعه أن يتركنا لشأننا إذ لو فعل لتآمرنا عليه اتعس المؤامرات . لقد بدأ يشعر أننا نطارده بمضايقاتنا واضطهادنا له . فقد كنا نمتص دمه وماله وحياته . وكنا نأخذه مأخذ الجد التام . واما هو فقد كان كثيرا ما يدخل في اطوار جنونية لاحكام سحقنا ومحقنا . وعندئذ يصبح على هيئة يرثى لها . فكنا سرعان ما نشفق ونعطف بل ونأسف حتى على فساد نوايانا . أما زاهر فقد كان يصمد في موقفه ولا يتراجع ويصرخ قائلا : « ألا ترون أنّه يلعب دورا من الأدوار ويجد في ذلك متعة واهتياجا ! انظروا كيف ينكحنا بلطف !» ، واما البنات فقد كان قلقه بسببهن أكبر واعظم : فقد تجاوزن سن البلوغ فأخذت صدورهن تبشر بنهود بديعة لقد كن من المتعلمات يذهبن كل يوم الى المعهد الا انهن كن يرتدين الحجاب فكنا نخفرهن الى المدرسة أربع

مرات في اليوم وذلك رغم احتجاجهن وشكواهن،الا اننا كنا نعلم علم اليقين أن خفرنا وحراستنا لا جدوى لهما بما أنهن كن يجدن اللّذة الجنسية في داخل المنزل بالذات مع شرذمة ابناء الأعمام الشبقين الذين لا يحصى عددهم الا الله . واما الوالد فقد أصبح من الحمق بمكان ويكثر من اقتراف افدح الغلطات . لقد كانت وساوسه تثير في نفسه من الاغتياظ والقلق ما جعله يخشى الاعتداء على حياته . وحتى إذا ما بلغت البلاهة منه منتهاها صاح على رؤوس الملا بأن الشر كل الشر آت من أمنا التي كانت رابضة بالمرصاد من وراء طلاقها . فقد كانت في نظره غيورة متعفنة بل سحارة من السحارات ! كان يستشهد أمامنا بآيات قرآنية تدعم نظريته في الأم ويضربنا ضربا مبرحا ويخطب مطنبا متحدثا عن جهنم التي كنا نوعد . وفي الواقع فقد كان يشعر بالندم على فعلته . كان يجلس وراء مكتبه ويطلق علينا لعنته . وكان دكانه قد خلا من أهله بصورة عجيبة وأسلمنا عمّال الوالد الى شراسته وقد طفق يناجي نفسه مناجاة شاذة غريبة معتقدا راسخ الاعتقاد أننا جماعة من القتلة بالقوة ينبغي الاحتياط منهم . كان يتوعدنا بجميع المصائب فكنا نرتعد لذلك ذعرا ونتوسل ونصرخ بأعلى صوتنا لاهجين بمحبتنا له . حتى زاهر اصبح في وضع متردد . فقد ضعفت عزيمته. وكان سي زبير اذ يرانا على تلك الحال من البلبلة والقلق يطلق العنان لغطرسته ويخشوشن طبعه ويفحش القول . كان ينعت يمّا بالقحبة المصابة بداء السيفيليس . ويفرك خرزات سبحته بين أنامله وبالله يستعين ومنه يطلب الحماية . ويعلو وجهه تقلص مستمر حتى أصبحنا لا نعرفه . كان يزعق ويخور ويجلس ثم ينهض ويأتي بالاحاديث المشوشة المضطربة ويثقب الهواء بذراعيه المرتخيين ويصفعنا على وجوهنا ويطلق التأوهات والشخرات ويحمحم ويبصق علينا ويكبّنا ويلومنا على جبننا . لقد استقر في نفوسنا الذعر والهلع فأصبح من العسير على المرء ان يعرف هل نحن صبية أم شيوخ ، لفرط انذهالنا امام شطحات الوالد حول طفولتنا المدوسة. لم نعد

نفكر حتى في الدفاع عن انفسنا بل كنا مشدودين كمن شد بالمسامير الى عينيه الشيبيتين بعيني ثعبان أعمى قد بلغ من السن عتيًا . وكان اذا تحدث عن زبيدة يلين لحظة من الزمن بل ويأخذ في المناجاة ولكنه سرعان ما كان يتدارك الامر ويعود الى ما كان عليه. فكانت الصاعقة تهوي علينا فتصيب منا الكبد فتنقطع لذلك أنفاسنا . لقد كان كثير التكرار دائم الاعادة لنفس الحجج وكان اذا قنع بنصيب كاف من ضربنا يهجم على خزينة ماله الفولاذية فيلطمها بمضموميته لطما. كان البغض يخز قلوبنا . فكنا نريد قتله وصرعه في الحال قبل حتى أن يخرج من هوسه المسموم ولكن لم يكن لنا حول ولا قوة على الامر . لقد كان مفرط السمن بالنسبة الى اجسامنا الهزيلة النحيلة .

كان يصيح فينا : « يا لكم من أدعياء بلداء ... تريدون خرابي ودماري ... تريدون قتلي وقتل زبيدة ... وقتل طفلها ... ثم الاستواء على جثثنا ... آه ! ان الحقد ليذيب أكبادكم.تسرقونني ... تنهبونني ... وتريدون أن تجعلوا من حياتي جحيما ... يا لكم من ضفادع ! بل ضفيدعات بل ضفيدعات أقزام ! بل بعرات ! أيها الكسالى البله الحمق اللقطاء والله لأزجن بكم في السجن ولأقطعن عنكم أسباب الحياة آه ! طق ! وينتهي كل شيء » . وكان عندها يطلق ضاحكا مقهقها قهقهة وحشية لا بشرية مشؤومة تنبيء بالكارثة ويتعذر عليه إيقافها فيهتز لذلك بطنه الفظيع اهتزازا موقعا وتقذف عيناه بنور قاطع ويتأرجح رأسه في جميع الاتجاهات .كنا نريد الضحك معه لارضائه ولاظهار خضوعنا التام لرئيس العشيرة بدون منازع ولكننا كنا نتردد في ذلك خوفا من اهانته وجرح عواطفه . ولم نكن نستطيع ذلك في واقع الامر لأن الخوف كان يجعلنا نتلعثم فنفقد اصواتنا وينعدم من نفوسنا الشعور بمرور الوقت فنصبح لا ندري كم الساعة فكانت نفوسنا تترجرج لذلك تذبذبا . وكانت تلك هي اللحظة التي يصبح فيها بحثنا حاسما فنبتغي وضع حد للقطيعة واسترجاع

الابوة كاملة غير منقوصة «استرداد الوالد واعلاءه واجلاله ؟ كنا نرتجي في ذلك الجو المتوتر وضع حد للكوابيس الشاحبة الهزيلة وللتوقفات المضنية والخجل من النفس أمام الآخرين . لقد كان لزاما علينا مهما كانت التكاليف أن نخضع من جديد الى القاعدة والعرف الا أن سي زبير كان لا يرضى بهذا الجلاء في تفكيرنا اذ كان في نظره أقرب الى الاعتداء على الكرامة منه الى السلم التي كنا ننشد . فكان يستمر في التعنيف والتوبيخ وكان اللكان يتزعزع وينهار وكنا متى خرجنا من خطلنا سرعان ما نسترجع حقدنا الحاد الذي كان يحتد بقدر ما كان الفشل أذرع . واذ ذاك يصبح لزاما علينا أن ننتحل التكلف والتصنع في السلوك وأن نتظاهر بالتوبة قصد التمكن من جديد من قطع الصلة بذلك الوالد الذي كان في نهاية الامر رمزا وشيئا يكاد لا يلمس رغم الارهاب والعنف اللذين كنا فريسة لهما كلما وقع بيننا اتصال ما . وأما هو فقد كان مستغرقا في صخبه القاصف المدمّر (من ضجيج وضرب ...) فكنا نفلت جريا بدون أن نكون قد استرجعنا أي نصيب من حقوقنا المشروعة . لقد ذهبت الروح منا وخنقت زاهر العبرة فكنت أحاول تسليته واضحاكه بأن أقلّد الوالد المقيت ولكن عبثا فعلت ! كنا نعود الى المنزل وقد خارت عزائمنا الى ابلغ حد وفي ساعات الليل المتأخرة كنا نطفق ضاحكين بدون أي سبب ظاهر ضحكا متواصلا لا يكف وكان الدوار يأخذ رؤوسنا فلا نهتم بذلك ولا نأبه به . وكنا نتمرغ على الارض ضاحكين فتسرع يمّا لنجدتنا وتطفق ضاحكة أكثر منّا فتفيق بذلك أخواتنا الشرسات الناعسات وتريد يمّا أن تعرف سبب جنوننا المفاجيء ولكننا كنا نصمت عن رواية القصة لها خوفا من ازعاجها واذعارها . وكان زاهر يخلصنا من ذلك المأزق بأن يقص قصة من قصص المجون والاستهتار، وسرعان ما تستاء يمّا لذلك وتعود الى غرفتها . وما ان تنصرف الأم حتى كنّا نقصّ على البنات مقابلتنا مع الوالد. فكنّ يشهقن باكيات من الغمّ فنقع في الفخ ونفعل كفعلهن . لقد بلغت الفوضى

منتهاها وأصبح القوم في تململ واهتزاز . وعادت الى زاهر شجاعته فصاح متهددا متوعدا الجنين بأهول المصائب فكنا نتصور بديلات حقيقية تقوم مقام مقتل الجنين . فنحرق أرجل جدجد ونبخر جثته بافراط حتى ينقلب على ظهره وقد خنقه الدخان المتصاعد من أعواد العنبر التي كنا نتركها تلتهب كامل الليل تكريما له . وكنا في الغد نحاول أن نبعث الحياة في تلك الدويبة المسكينة ولكن بدون جدوى ! وكنا ندفنه في جنازة ذات أبهة فيكون مآل ذلك الجدجد المقدم قربانا اخصاب الارض التي نبتت فيها شجرة الموز العقيمة . وفجأة كانت عينا زاهر تنقلبان فاذا هما زجاجتان شفافتان . هل سيكون مصيره العمى ؟! أم ترى هل سيموت حسرة على الجدجد الزنجي البدين بل وحتى السمج ؟ لم يكن في استطاعتنا أن نتصور بدقة مدى الاضطراب الذي كان يغشى نفس أخينا الأكبر ولكنه كان هو المسؤول الحقيقي عن هذه الاضحية . كانت البنات قليلا ما يشاركن في ألعابنا على انهن لم يكن يصلحن في الحقيقة الا لخلق عديد المشاكل ويهددن برفع أمرنا إلى أمّنا . ولم يكن موت تلك الدويبة الصغيرة ليمثل تقدما كبيرا في حل القضية بالنسبة الينا . فقد كنا لا نزال نجهل كل شيء عن الجنين ذلك الشيء الذي لا صورة له ولا قوام . وكان زاهر اذ نضايقه بأسئلتنا الوثيقة الصلة بالموضوع ينتحل هيئة غامضة ماكرة لأنه كان في الواقع قد تجاوزه معتقده الخرافي الذي اختلقه هو . لم يكن يعرف أي شيء عن الجنين ولكنه كان لا يريد الاعتراف بجهله . وكانت إحدى اخواتنا تزعم انها تعرف ماهية ذلك الشيء الخفي كاللغز وأنه لا ينبغي الحديث عنه . لقد كانت خبيرة بمادة العلوم الطبيعية وكان لكلمتها بيننا حظوة لا يستهان بها . ولكنها كانت متعنتة في اصرارها على أن لا تفسر لنا ما هو الجنين ؟ فكنت أبحث عن القضية . ترى هل أن لفظة جنين لفظة بذيئة ؟ كلا ! كان ذلك جواب زاهر زاعقا . ترى هل الجنين جزء من اجزاء فرج المرأة ؟ ولا هذا أيضا ! ترى هل هو أشد أجزاء إير الرجل إرتخاء ؟ كانت سيدة تجيب

قائله : ولا ذلك أيضا ! كانت تقولها فيحمر لذلك وجهها فيقول أخونا الأكبر : انها كانت تتعمد الظهور على تلك الهيئة من الاحتشام تصنعا ورياء اذ أن بها من الخلاعة ما ينعدم معه الحياء والخجل . (ألم يرها وهي تكشف من فرجها تعرضه على اولاد أعمامها الواحد تلو الآخر مقابل قطعة من الحلوى) . فكانت سيدة تنصرف فتدعنا لشأننا طيلة اليوم لأن وجودها في الحقيقة لم يكن الا مدعاة لتعقيد الامور . واذن لم يكن اي واحد منا يعرف ما معنى الجنين وأما القاموس فقد كان تعريفه لذلك اللفظ مبهما غاية الابهام شأنه في ذلك شأنه في غالب الاحيان . فكان كل ذلك يثبط همتنا فنحور عزائمنا . ترى ما الذي كان زاهر يريد قتله اذن ؟

كانت الايام الموالية ثقيلة تعيسة فكان الألم يخز اضلاعنا ويستولى على نفوسنا الندم . فقد عذبنا في حماقة وبلادة حيوانا صغيرا من محاسنه انه يحسن الموسيقى مصفرا بجناحيه . واما الوالد فرغم الفدية وحرقنا لعوضه فانه لم تؤله رجلاه اذ لم نتمكن من احراقها فعلا. ان لأبي زوجتين شرعيتين وعددا كبيرا من العشيقات . وهو يستيقظ على الساعة الرابعة صباحا لأداء صلاة الفجر . وهو من القائلين بالحريم واذا تحدث عن الهنود من السيوكس قال بهيئة رسمية في ابهة : اخواننا الهنود ! فكان يعرف بذلك كيف يفطر أفئدتنا. ولكن اعتناقه لذلك المذهب كان لا يدوم طويلا، وسرعان ما كان يعود الى هيستيريته الاولى وينسى قصصه المعسولة وهنوده المقتلين وإلاهه الرحيم ويضربنا ويزأر حولنا زئيرا. وكان بين النوبة والنوبة يهدأ هدأة وقتية فنغتنم تلك الفرص لنضحي بجدجد او صرار او بنت وردان. لم نكن نفضل دويبة على أخرى بل كان اختيارنا موكولا إلى الفصل الذي كنا فيه من السنة والأمر الوحيد الذي كان ذا أهمية هو اختيار اللون وكان لا بد لنا من دويبات سوداء اللون . وفي الواقع لم يكن يطيب لنا اراقة الدماء وكنا فيما يتعلق بطقوس العملية وشعائرها نقلد اعمال أمنا التي أصبحت خبيرة بفن السحر . وكانت محنة تلك الدويبات لا تدوم طويلا بالنسبة الى

مدى ما كنا نقاسيه في دكان سي زبير ذلك أن حصصه معنا كانت تدوم أحيانا يوما كاملا ، كان يقوم خلاله بحركات تهريجية مضحكة فيخرج لنا لسانه احتقارا ويجيب عن اسئلته بنفسه وكان ينهار ويلطم جمجمته الصلعاء ويزأر زئيرا فلم نكن ندري هل كان فيلا أم أسدا أم قطا أم جملا أم صرارا ؟ وكنا من شدة تخميننا وافتراضاتنا في ذلك نفقد رشدنا . كان يتهمنا بالسرقة وكأن اتهاماته موافقة دائما للحقيقة ! ولم يكن لنا ما يسعفنا بظروف التخفيف وكان بذلك عليما ولهذا يغتنم تلك الفرصة اغتناما ويستغلها الا أنه كان يخشى الفضيحة فلا يتجرأ على الزج بنا في السجن . فشرف العشيرة كان معرضا للخطر. ثم إنه كان يعيد الكرة فيقول انه يعرف كل شيء وانه متيقن من كل شيء . يعرف أن يمّا كانت تدس الدسائس وتحبك الاحابيل ضد سعادته وانها كانت تمقت زبيدة وتريد سحرها . كان يتباكى لذلك عشقا ويخرج عن طوره أمامنا بدون تحفظ . فكنا بذلك نصبح شركاء متواطئين معه في القضية. وتبرق عيناه ضياء فيصبح بينه وبين « نانا » قطة يمّا شبه وتماثل . كانت عيناه اذ ذاك كعيني القطة المذكورة اذا ما انتهت من ابتلاع احد الجرذان او من لحس اسافل بطن أمي. وعندها كانت حاله مما يرثى له حقا ، فيفقد نصيبا من بأسه وبطشه ويأخذ في التغنج والتدلل مثل سيدة القحاب العجوز ، وتتقاطر عليه سيول الوجد والنشوة فيسيل سيلانا ويحلم . كان ممن يسيرون ويتكلمون وهم نائمون فكانت علامات ملذات الزواج تخترق وجهه المنتفخ الارجواني. لشد ما كانت تلح علينا الرغبة في الانفجار ضحكا عليه لشدة تلعثمه ولفرط سهوه عن الالفاظ التي يحتاج اليها ثم استرجاعها والغص بها بابتلاعها ابتلاعا من حيث لا ينبغي . ولكننا كنا على حذر فكنا نحتاط كل الحيطة خوفا من اعادته الكرة على حين غفلة وخشية أن يأتي بخديعة وان يهجم علينا من جديد هجوم الاعصار . وكان يتعبنا في نهاية المطاف فيأخذنا الضجر والاعياء من المكوث وقوفا ويدخل ارجلنا التنميل فنتوق الى تحريكها بالمشي

والصراخ . الا أنه كان لا يتفهم وضعنا قط : لقد كنا له بمثابة الجمهور بكان يطيب له ويلذ أن يعصرنا عصرا. لقد كان ذميم الخلقة مثل الفأرة تموت فتنتفخ . وكان اذا انتهى من ذكر زبيدة ضرة أمنا — وقد انتهى بنا الامر بالطبع الى عشقهـا — يعود فيشرع من جديد في الاتهام ويرينا الملفات الضخمة التي كونها ضدنا. اف لقد تجاوز خوفنا جميع الحدود. فقد جنّ الوالد جنونا ! واصبحنا نتصور أنفسنا وقد زج بنا في السجن . ولن نستطيع يمّا ولا حتى الاتيان لزيارتنا هناك ، اذ أن الأعمام سيفعلون المستحيل لمنعها من ذلك . وكان أخشى ما نخشاه الحراس الكورسيكيون لا سيما أنه كان علينا منهم بالمعهد قيّم كان يدخل الرعب في قلوبنا . لقد كان الواقع يتدحرج أمام أعيننا تدحرجا فكنا نغوص في الأحلام وتخدعنا آذاننا عديد الخدعات فلا نعود نفهم من الامور شيئا . مجنونا كان أبونا . وكنا نريد أن نصرخ : النجدة ! النجدة ! فلو أودعنا السجن لوجدنا العناكب تسعى.وكانت العناكب أخشى ما أخشاه . وكان القلق يأخذ من نفوسنا شرّ مأخذ ونأمل قدوم الآنسة « روش » لتخليصنا بأن تسرع في الاتيان لتلقين الوالد درسه في نحو الفرنسية فتكون الملامسات والمداعبات الفرنسية والمصاصات الفرنسية . فلو تم ذلك لغاص الوالد بين النهدين الابيضين ولعض الفخذين الاسمرين بمفعول عرضهما على اشعة الشمس ولنجونا نحن فائزين بالحياة . أما الآن فقد كان نظرنا يسرح متنقلا من عين أبينا الى عينه الأخرى حتى يصيبنا حول أخرق،واما هو فقد انقطع عن الاحلام وأخذ ينظر بعين حولاء موفرا لنا بذلك سببا من اسباب الضحك. ولكن الصقر قد لاحظ تحول انتباهي الصامت فلطمني لطمة تقول : طق ! بظهر يده. والله لأعضنها تلك اليد في المرة المقبلة . لأعضنها الى أن يسيل الدم منها فسحقا لها من يد ! انها تغسل بالماء دائرة جلدة دبر سي زبير وتلامس البظر البئر في فروج عشيقاته الفاغرة وتشبع وجهي ضربا فتخط فيه آثارا قزحية الالوان . والله لأكدمنّها في المرة المقبلة مهما بلغت

من فساد وعفونة . انها لقائحة لزجة غائطية مخاطية. واما زاهر فقد كان في تلك الاثناء يتسكع وقد نديت أهدابه.وفي هذا المساء سيسكر الى أن يفقد رشده . كانت علائم الغضب بادية على وجهه فكان يعالج الالفاظ كما تهيأ له بدون أي نظام ولا ترتيب على أنه اصبح لا يجرؤ على النظر اليّ . فالجنين لم يكن الا لغزا واسطورة من اساطير الاولين فقد غالطنا زاهر جميعا وعرقل سعينا للقيا الوالد التي بها تتم العودة الى الدم . ان خلاصة الدم التي كانت تضيعها جميع النساء عند الحيض هي الجنين ذاته ! انه لشيء يبعث على التقزز والقرف ! وانعدمت الثقة في نفسي . ولتعاسة حظنا البالغة كان الوالد يخرج لنا مصفحا من صندوق ماله الفولاذي فيتلو علينا بعض آياته . كان صوته غليظا وكان ينطق بالحركات نطق أهل الريف من الفلاحين أي بالافراط في فتحها . كان يرتدي نظارتيه ويفصل القراءة تفصيلا،وكان يزيد من عنده بدون سبب ظاهر جملا كاملة .

وفي خارج الدكان كان العملة يرقصون طربا . وكان بعضهم يلمس بيده عورته . كانوا يتلذذون كلذة الفرج لرؤيتنا نتألم ويعلّقون على الضربات واللكمات . لقد كانوا منحازين الى جانب الاقوى ، فكنت أتقزز منهم وأعاف فكوكهم التي شوه خلقها مضغ التبغ . كانت اسنانهم نتنةَ الرائحة وكانوا يتجمعون متراصين حول واجهات الدكان الزجاجية . وكان المتسكعون يتدخلون في القضية فكان ماسحو الأحذية الصغار يستسمجوننا ويستثقلون ظلنا. إنها والله لمهزلة بأتم معنى الكلمة. في خارج الدكان ثارت ثائرة الجموع ولكن الوالد كان يواصل تلاوته برباطة جأش غير عادي بشدة الازدحام والغوغاء. كان يقصّ قصصا واهية وكان يهمل قراءة الفقرات التي فيها مجون أو بذاءة فيتجاوزها. وعندها كنت أفكر في حماقة جنازات الجداجد البريئة. وكانت الفوضى تتعاظم خارج الدكان فليس هناك أي وعي طبقي ! لا شيء من ذلك! غاية ما في الأمر التواطؤ مع القوة والتحالف معها. وكان يصيب الوالد الاعياء والضنك في النهاية فيأمرنا في احتقار بالرجوع الى المنزل .

نرى أكانت تلك كوابيس أم أحلاما . لقد كانت ليالي مليئة بالاسواط وبالعضيض . وكان رئيس القبيلة يبدو لي في المنام في صورة هيكل عظمي ولكن مع احتفاظه ببطنه البارز المترهل . وكان يجلدها جلدا ويكدمها كدما وكانت عظامه تطقطق لما يبذله من جهد في ذلك . ثم انه كان يناديا فجأة فننحّي عنه بطنه وعندها يصير ميتا عاديا هادئا ويأخذ في قضاء شؤونه في دكانه . كان الناس يوجهون له الخطاب الا انه كان عاجزا عن الجواب بسبب شفتيه اذ كانتا كالرق المدبوغ دبغتهما آلاف من النساء كن يمتصصنهما الى حد الفناء . واذا ما استيقظنا استرجع زاهر زهوه وخيلاءه وانصرف باحثا عن الجداجد السمينة .

ان أبي تاجر كبير وهو ينام في حيويته ومرحه المطمئنين لنفسه . وأمّي إمرأة طالق . وهي تتوصل الى الحصول على لذة الفرج وحدها بواسطة يدها أو بمساعدة « نانا » قطتها . ان الاولياء الصالحين لفي تكاثر بمدينتنا . وان العلاقات التي يخضع لها مجتمعنا علاقات اقطاعية فليس للنساء الا حق واحد : ان يمتلكن عضوا تناسليا وان يتعهدنه بالرعاية . وانني لصبي نضج قبل الآوان ، أعلمتني بذلك احدى الراقصات وكانت عشيقة من عشيقات سي زبير فلم أفهم القضية حق الفهم ومع هذا فاني لم آت شرا. غاية ما في الأمر أنني نظرت اليها وهي تخلع ثيابها مقدرا أنها أقل جمالا من زبيدة . لقد تركتني انظر اليها ثم أضافت قائلة : « وهذا الشبل من ذاك الأسد » وهنا أيضا لم أفهم ما لمحت إليه . كنت مع زاهر نختلف على المعهد وكنا بذلك مفخرة الاسرة. ولكن اعمامنا كانوا يكرهوننا بسبب تلك الترقية بالذات اذ كانت عربونا على قطع الصلة قطعا نهائيا مع طبقة الفلاحين الغنية نصف الاقطاعية . ان زوجة أبي لجميلة جدا ولكنني كنت أروّج الشائعات بأنها جد ذميمة لأن ذلك يساعد أمي على الحياة . وفي كل صباح عند الساعة الرابعة اذهب الى الكتّاب لحفظ «سورتي»

اليومية وفي الساعة الثامنة أسرع الى المعهد حيث أتمكن من الحلم قليلا رغم ما يبديه «لول غير ربع»(8) القيّم العام الكورسيكي الاصل من احتراز تجاهي. انني اكره الكتّاب وأكره بالخصوص الشارع الذي هو فيه . فمنه تتضوع رائحة الثياب المغسولة والمرقاز المشوي على نار الفحم وهو حسب زوجات أعمامي مرقاز يتخذ من مصران القطط . (لقد كنت وانا طفل صغير آكل منه لكي أتقمص روح القطط فلا أموت لأن أمي كانت تقول وتكرر على الدوام بأن للقطط سبع أرواح) . وفي الشارع المذكور يوجد حمام يدور فوق سطحه حمار معصب العينين دورانا أبديا حول بئر . وكان الحمار غير مكترث للأمر فيما يبدو ولما كانت الاجرة لا دين لها فان من عادة صبيان الكتّاب ان يرجموه بالحجارة وكنت اشارك في هذه اللعبة غايتي الوحيدة من ذلك ارضاء المؤدب اذ هو يشك في تديني ويحسبني من الزنادقة بحكم تأثير أخي الذي تعلق قلبه منذ مدة بيهودي غريب الاطوار . ان همّ الصبيان المشترك بهذا الكتاب هو النعاس. ان النعاس لفن وأي فن !. فالقضية تتمثل في عدم اغلاق الفم وفي التمايل مثل القرد الذيال. وبمجرد ما نتوقف عن الصراخ بالتلاوة تتحرك عصا المؤدب الطويلة ذات الرأس البحاث وتبدأ في العمل . انها لعبة سوقية تشبه لعبة رمي الدمّى بالكرات، يرقص فيها الاطفال وتتململ أرجلهم : ذلك أن لا تلاعب بالدين ! وكم يطيب لي النعاس في فصل الشتاء ولا حول للمؤدب في الامر ولا قوة لأني كنت أهدده بفضح أمره : لقد تقدم اليّ في السّنة الماضية طالبا مني المنكر فقبلت مطلبه لكي يدعني وشأني ويترك لي متسعا من الوقت أحلم فيه بجسم زوجة أبي ضرة أمي اللّدن . ان جميع الصبيان يقبلون مراودات مؤدب الكتاب. كان يداعب أفخاذنا خلسة وبسرعة يلهب شيء صلب عصاعصنا. ذاك كل ما في الأمر ! إني اعرف أن ذلك ليس امرا خطيرا وكان اخي الاكبر بالمرصاد واما الاباء فهم على علم بالامر عادة لكنهم يغضون الطرف لكي لايتهموا رجلا يحمل في صدره كلام

الله . ثم انهم من المعتقدين في الخرافات والشعوذة ولذا فانهم يؤثرون ألا يكونوا عرضة لاذى سحر المؤدب. واما اختي فانها تقول بان ذلك هو بقية من بقايا العصر الذهبي العربي. وفهمت فيما بعد ان الفقر هو الذي كان يحمل المؤدب على اللواط لان المرء بمدينتنا اذ اراد الزواج تحتم عليه ان يكون له اموال طائلة. فالنساء يبعن بالاسواق العمومية وقد شددن بالسلاسل الى البقر، واما المواخير فلا قدرة لضعفاء الحال على دخولها.

ان ابواب الكتاب مطلية باللون الاخضر والجدران بداخل الكتاب حمراء قرمزية مثل دكاكين الجزارين التي تحمل اسم «مجزرة المستقبل» ! اننا جالسون باستمرار على حصر بالية والواحنا بين أيدينا وكنا اذا أردنا مضايقة المؤدب طفقنا نصرخ زاعقين كما لو كنا آلافا مؤلفة فيغضب المؤدب ويضربنا على غير هدى . فتهوى عصاه الملعونة جارحة ، لافحة الهواء والوجوه محدثة صفيرا من نوع ازفت! وكنا لا نجد حتى السبيل الى البكاء! فننظم فترات من الصمت المفاجيء قصد الانتقام. فتوصد في وجه المؤدب الأبواب ولا يدري ماذا يفعل. وفجأة نطفق صارخين الى حدّ البحاح، فيباغته ذلك ولا يعرف كيف يواري فرحه بالتوصل الى قهرنا واهانتنا فيأخذ في هزّ رأسه يمينا وشمالا فرحا وغبطة ! وكنا أثناء حفظ سورنا نكتشف أمورا كثيرة يغيب عنا معناها الواضح ويبقى مبهما غامضا فمنها ما هو مضحك مسلّ ومنها ما فيه حزن وأسى (فيقول زاهر : هذه أساطير) وبأسفل الكتّاب أي بالشارع ها هي ذي العجائز المتسولات قد وصلن بعد. وبعد حين سيمزجن أصواتهن بأصواتنا فنصبح لا ندري هل علينا طلب الصدقة أم تكرير الآيات القرآنية . ونقع في حيص بيص وتختلط علينا الامور فتطرب لذلك نفوس المتسولات طربا شيطانيا وهن يستمعن الينا نثغثغ ونتلعثم في التلاوة . واما المؤدب فهو لا يحرك ساكنا لطرد المتسولات ذلك انه في قبضتهن ايضا اذ هو يطلب منهن المنكر على الدوام فيقبلن شريطة ان يدفع لهن نصيبا من المال .

ان المؤدب لرجل طاعن في السن عيناه مستنقعان قد اكلهما الرمد والتراكوما وهو زنجي او يكاد اصله من الجنوب . كان فقيرا مدقعا يحمل أطمارا قديمة على ظهره ولا ترى له أبدا ازرارا بفتحة سرواله الا ان المرء والحق يقال لا يلحظ ايره أبدا . وكان أمرد قد غرق في برنس قديم يشبه صاحبه في بعض أيام النحس . وكان يجر اذياله وسط حلقتنا فرحا بذلك مسرورا (اليست السلطة في الوسط !) واذا ما راوده النوم قسا قسوة شديدة وانتهى به الامر الى النعاس . وعندها نتوقف عن التلاوة فورا . ان المؤدب نائم . ونشعر فجأة بشيء من البرودة الناعمة ولكن الصمت يبعث في رؤوسنا الدوار فتكون الاختلاجات الدافئة والالعاب في كنف الامر والسلام نلقاهما من جديد : وتكون الايماءات والاشارات بالوجه وبالايد وتكون المحاورات الصامتة . فنضحك داخل بطوننا مثل الثعابين تقرق قرقا. ويأكلنا الخوف ويضفي الخطر، وهو على ما هو عليه من قرب منا، على هذياننا طعما آخر. ونتظم عملية صيد وقنص نتصدى فيها للذباب فتتبعه بنظرنا طيلة ثوان جهنّمية ونتظر اليه يقع على اجفان الشيخ المتورمة ونتظر في قلق شديد أن يصبح في متناول ايدينا ثم هوب ! طق ! ونخطفها بحركة سريعة لطيفة . تلك خفة الايدي لدى التلاميذ الكسالى ! كان من المحتمل ان يستفيق المؤدب فينزل القلق لطيفا رقيقا في قلوبنا مثل مرارة العلال التي لم تنضج. وعندما يحمى وطيس الصيد ويصبح اشدّ اثارة لعواطفنا نخاطر مخاطرة وننكر وجود اية سلطة قد تفصل بيننا وبين الذباب (هبه يستفيق فوالله لوفعل لقذفناه بالمنجنيق ولقطعناه اربا اربا ...) ولكن لو استيقظ فجأة مذعورا لأنهال علينا ضربا ؟ وكانت المجزرة شنيعة نقتل فيها الذباب السمين ونعرضه طويلا على العيان ونقارن بين بعضه وبعضه ونطلق القابا أخّاذة على تلك الحشرات (القاب الملوك والأباطرة لا غير) ثم نتظاهر بدفنها . وقبل ان نقتلها نحاول ترويضها وحملها على الصغير والرأفة والصبر ... ولكن جهودنا تذهب ادراج الرياح ! فاذا سئمنا لعبتنا تلك

ملمنا الذباب الى طفل اسود اللون (أهي العنصرية الكامنة فينا !) مسقّها سفا لاثارة اعجابنا وليبتز منا بعض الدراهم ، وعندها نستعمل طربوش المؤدب لجمع الصدقات والتبرعات . ونصفّق في صمت. وفجأة يتذكر سفاف الذباب أباه الذي اودى به جرثوم داء السفلس اللولبيّ وقد اصابه في احدى الحانات الفياتنامية المشبوه فيها فيأخذ في البكاء فنعطف عليه . وأما زاهر فيصمد ولا يلين لذلك قائلا « لم يكن للأب أن يشارك في حرب استعمارية الى جانب فرنسا بالهند الصينية ». انه اول درس في التعاطف بين الشعوب والأمم ! ولكن المؤدب قد استيقظ وصفّرت عصاه في الهواء كأخلص ما يكون لسان الافعى السامة ! ليس هناك فترة انتقالية . فليس تدفق الاصوات الغزير بالأمر الشاذ . والعجائز المتسولات قد ألفن ذلك ، انهن يفهمن ما يجري من أمور ويأخذن في الهمهمة وفي توجيه الخطاب للمؤدب في سوقية وابتذال واذا استيقظ المؤدب عادت الى الذباب وقاحته وبرز من جديد جيشا عرمرما وتعنت في لدغ أعيننا وانصرف ليجرش العفونات الصافية على سطح الخراء لكي يجعلنا نصاب ببعض الامراض المشبوه في امرها . واخيرا تحين ساعة الخلاص ! فالواجب يقتضي منا الاسراع بالذهاب الى المعهد . فالساعة هي السابعة صباحا .

Bibliothèque-Discothèque
COURT...
66, Ru...
750...

الساعة الحادية عشرة ليلا . ورحى الزمان الجهنميّة الصغيرة تمضي مسرعة في عجلتها المتحمسة وبمّا لا تعرف كيف تقرأ الوقت على الساعة.

ـــ كم الساعة ؟

ـــ العاشرة .

فلا تثق بقولي . انها دائما لا تثق بالاقوال اذا ما تعلق الامر بموضوع الوقت . فهي تخشى أن أكذبها القول . والوقت بالنسبة اليها لا وجود له . فترى كيف يجوز لها ان تكون قلقة محتارة إن كانت قد عدمت فكرة كنه الوقت ومروره ؟ ان امي يخامرها القلق على غرار البقرة أو الكلب . ليس احد ينائم . وبقية القبيلة كانت لنا بالمرصاد . واما الأعمام فلا بد أنهم مجندون للعمل . الساعة ساعة متأخرة من الليل ولمّا يعد زاهر الى المنزل . نحن في انتظاره أنا وأمي . كنت أتظاهر باللامبالاة والانشراح ولكنني كنت في قرارة نفسي خائفا خوفا شديدا فقد تدوسه احدى السيارات فتقتله لأنه لم يصح من سكره المستمر منذ اسبوع . وتتمتم بمّا . انها تدعو وتبتهل في ارتعاد . ويبرز النور بوضوح الزغب الرقيق الذي يغشى شفتها العليا . لكأن لها شاربا . انها لم تبلغ بعد لأنها تتطير من ذلك . وأما الكرسي فتبدو عليه

هيئة وديعة هادئة في صلب التوتر المتناهي المتعاظم (كفاه ما تشجم من حمل اجسامنا !) ان السّرير واسع جدّا . ان تسقيفة السقف الخشبية منشعبة جدا، أصاب بالصداع اذا تأملت فيها . كل شيء في الغرفة يصبح ضخما . الجصّ ... أني أحاول أن اسبح في الخيال وألّا أفكر في شيء ولكن الحيرة تنتاب نفسي وتكبر فيها مثل الدودة البيضاء . ان مقبض الباب كروي الشكل أبيض اللون وهو بارد علاوة على ذلك . أفضل النظر فيها ولكن ليس ثمة شيء يستحق التفضيل.

ـــ كم الساعة ؟

ـــ دائما العاشرة يا بنّا.

ـــ لا بد أن تكون الساعة المنبهة قد توقفت ...

ـــ ألست تسمعين جيدا دقاتها تك ، تك ، تك ، تك؟

حجة قوية والله . وأفتح أحد الكتب . وتصر سبحة أمي صريرا من جديد فأنزعج لذلك . وأقول في نفسي لو نظرت الى سرتي دقيقة من الزمن لتيسر لي نسيان خوفي مدة ساعة . ولكن ذلك كان يحتم عليّ خلع ثيابي فتفشل المحاولة بسبب وجود أمي . انها تتمتم بين شفتيها برطانة لا تفهم . وفجأة حسنت في عيني فاذا هي جميلة . ان بوجهها تجاعيد صغيرة على يمين ذقنها وبما انني لا استطيع النظر الى يسار ذقنها فقد قررت أنه ليس لها تجاعيد هناك . إنها تحسب خلسة مستعينة بأناملها (ترى هل تعلم أن في الدقيقة ستين ثانية ؟) ها هي تحاول التثبت من صحة قولي ذاك . هيّا هيّا يجب أن أسبقها .

ـــ الساعة الآن العاشرة والنصف .

فتتوقف فجأة عن الحساب .ولا تدري ما تقول فتزفر زفرة طويلة.الواقع أن الساعة الآن منتصف الليل وقد بدأ القلق يخامرني بصورة جدية فأحاول

أن احمل أمي على أن تتلفظ بكلمة أوحي بها اليها فأحاول أن ارشدها الى الطريق ولكنني اخطيء المرمى ، فيأخذني الهلع ويهيّج اعصابي هذا الرجوع المباغت الى التطير . فأنهض وأقصد النافذة . الشارع خال . بارد . قذر . الاقذار تلطخ الرصيف والأماكن الاخرى فأعود الى الجلوس وتنهض أمي بدورها فتغادر الغرفة، فأتكهن بالاعتماد على هيئة مشيتها انها ذاهبة لتبول . فأرهف السمع : ها هو ذا ذلك السائل يلفح حوض المرحاض كالسوط فيحدث تستسة ، تسّ ! فاذا بفمي طعم هو كطعم الملح . ويأخذني العرق غزيرا (فهل سيصيبني توعك ؟) انني أتكهّن وأتصور جميع حركاتها كما لو كنت بجانبها . أيعني ذلك أن بي استعدادا الى التلصص للالتذاذ بالنظر الى المشاهد الغرامية ! وتدوم التستسة .! يا له من صوت غريب ذلك الذي يحدث عندما تقضي المرأة حاجتها . لقد كان صوتا صاخبا . وتعود أمي من جديد . ان الغرفة ضيقة والفصل شتاء . الرأي عندي أن زاهر يبالغ . ترى لم يسكر ؟ انه يقول دائما أنه يشرب الخمر ليقوى ايمانه بالله . فلا أرى الصلة بين هذا وذاك البتة . ان أخي في السابعة عشرة من عمره وهو يختلف على الحانات المشبوه فيها بالمدينة منذ طلاق أمي . انه يسكر بالحانات الاسبانية والايطالية واليهودية الموجودة بالمدينة ويأخذ يمّا الهلع فتسرع في الابتهال والتوسل الى النبيء . النبيء الذي كان أبي يتفاني في محبته وطاعته ويطيب له ويلذ أن يقص حياته الا انه يغفل أن يقول ان احدى نسائه لم تتجاوز التاسعة عندما بنى بها . وهكذا فان الوالد لما تزوج بزبيدة لم يعد ان اتبع سنة النبيء . والله لأضربنه ولأشوهن خلقته بمجرد ما يعود الى المنزل ! سأغتنم فرصة كونه سكيرا سابقا لآوانه . ياله من مصاب بداء الادمان على الكحول ! ولكنه سيقول في صلفه الهائج إن لفظة الحكول هي احدى الالفاظ الفرنسية النادرة التي من أصل عربي ولهذا فلا داعي الى أن يحتقر الانسان نفسه اذا أدمن على تناول الخمر والكحول . انه خبير جدا بهذه المواضيع وانا عاجز عن مباراته في هذا

الميدان . ان زاهر تلميذ لامع وهو يختلف على معهد ثانوي فرنسي ــ عربي حيث لا ترى شبح اوروبي يدور ابدا باستثناء رجل كورسيكي الاصل منحيز الى الانشقاق عن فرنسا. إنه «لول غير ربع». وهو معقّف الرجل ومن عاداته أن يقول : « ان نابوليون لبعرة ! والعرب بلداء أغبياء تحيا كورسيكا حرة مستقلة ! سكوتا ! »

ان دقات الساعة تك ! تك ! تك ! تك ! لمضجرة متعبة ويمّا جالسة أمام الساعة المنبهة تنظر اليها بدون انقطاع . ان في ذلك لضربا من السحر مازال متواصلا . انني خائف . لكأن مزلاج الباب قد تغير شكله ، فأنهض وأمسّه بيدي انه بارد وشكله من بعيد ليس كشكله من قريب فلا استغرب. ذلك فوق الحد : ان امره كأمر ذقن أمي ، بين صورته من بعيد وصورته من قريب فرق دائم . وتعود يمّا الى عدّ الثواني ولكن لم يعد لزوم للقلق بالنسبة اليّ فهي لم تعد ملمّة بالقضية . لقد انعدمت من المقصورة كل رائحة وليس فيها أيضا رائحة المرأة . انقطعت منها تلك الرائحة منذ أن هجرتها أمي . وفي الحقيقة فقد أمست يمّا لارائحة لها البتة . ان المرأة اذا رامت أن تكون لها رائحة لزمها الاقشعرار فاذا اقشعر جلدها فاحت منها رائحة الماء الازرق . ان امي لا تشتهيها النفس الا عندما تكون بصدد الوضوء فعندها يعلو الحبب بشرتها ويقيني أنها لا بد أن تجذب الذكور بذلك. ترى ما العمل؟ فهل ينبغي علي ان انزل واذهب لابحث عن زاهر؟ ولكن ترى أين سأجده ؟ إن الانسان يستطيع بمدينة الجزائر أن يشرب الخمر في حانات من جميع الجنسيات وفي عدد عديد من المواخير . فالبحث عنه فيها يؤدي الى زيارة عدد من المواضع فوق طاقتي !

ــ كم الساعة ؟

ــ الساعة الواحدة صباحا .

وأهم بأن اتدارك أمري ولكن قد فات الأوان فتشعر يمّا بغتة بالوقت

وتبرز من خلال آلامها كمن به مس من جنون فتذهب وتجيء بالمبخرة تهيج الاموات وتنادي الاجداد وتطلب منهم بصورة رسمية أن ينجّوا ابنها . وأهرع الى الدرج فأنزله جريا وقد عقدت العزم على العثور على السكير أينما كان، فاذا بأجي بأسفل الدرج وقد انكمش على نفسه ووضع رأسه على الدرجة الاولى من السلم .

— لم استطع الصعود ...

ان رائحته منتنة وهو يتلوى . وتثنباً يمّا بوجوده فتنزل وتعاون عليه فنحمله معا الى فراشه . وتنصرف الأم تاركة أيانا في الظلام . فينطق زاهر بكلام غير منسجم ولكنه حافظ على جلاء ذهنه .

« لقد عقدت العزم على قتل الوالد ... فذهبت الى « الفيلا » ولكنّي لم استطع تنفيذ فعلتي لأن زبيدة كانت نائمة في السرير الكبير مع سي زبير ولأن الجنين كان نائما في زبيدة . لم أقدر ... بل ولقد ذهبت فاقترضت من الشيخ عمار سكينه. وفي غار الشيخ عمار كانت الازهار تنبت في قوارير الجعة وسط الخشخاش والكيف وبه أصوات فيها بحّة وأقمصة باهتة اللون . لم يكن وحده لقد ضحك رفاقه من ارتباكي وشمل الظلام مشروعي من كل جانب حائلا دوني ودونه ... وكانت نوبات السّعال غارقة في نور ضبابي يشع من قنديل . وكان على عين سائس الخيل السمين اليسرى ودقة بيضاء مليئة بالثآليل . كان الحصان حاضرا هناك ولكنه كان لا يحدث أي صوت . كان الخل نظيفا وهاجا قد بيضوه بالكلس . كان في نيّتي أن اطلب منه مديته ذات فرضة التوقيف وأنصرف قاصدا ليلتي العائلة ... ميمما نحو « الفيلا » الخاصة بزبيدة قصد القضاء نهائيا على الوالد وعلى الجنين . ولكن الجماعة عرضوا عليّ الشراب فخلتني قد رفضت ولكن اصحاب الشيخ ألحوا عليّ في الشراب الحاحا قبلت معه في آخر الأمر . ولست أتذكر الا أغانيهم الغبية (مثل غرّد القمري ...!) والفلفل الذي

ألتهمته . ولقد أرادوا بي التقزّز والاشمئزاز فشرعوا في سحق بعض الديدان وفي اشتمامها بمناخرهم ففعلت مثلهم على الفور ... وصلت في النهاية الى « الفيلا » ولكن الهلع امتلكني هناك. فعدت أدراجي متوجها الى الحمارات حيث شربت الخمر الى أن طردوني » .

كان زاهر كثير المرض وكان اذا لزم الفراش عالج قمر حلقه بأصابعه في غير نظام محاولا بذلك أن يتوصل الى القيء . وكان يقول انه في الواقع كان ينقّب عن روحه ليحاول التخلص منها . ونادرا ما كان يصل الى بغيته . فكان يظل الايام الطوال جامدا لا حراك به (كان يقول ويردد : « انني اتعاطى مذهب الأتاركسيا اليونانية لأنني عربي مزيف » (تلك كانت الجملة التي كثيرا ما يرددها) . فكنت لا أفهم دائما كلامه ولم يكن لي متسع من الوقت لمحاولة الفهم لأنني كنت أسعى في نفس ذلك الوقت الى اغراء زوجة أبي . وسعيا الى ذلك الهدف كنت أحاول أن أتملق الوالد قصد تهدئته والوصول الى غايتي وأن أنال ثقته . وأما زاهر فانه لم يكن ممن يحبون النساء بل كان عاشقا لأستاذه في علم الفيزيا وكان يهوديا ذا عينين زرقتهما شديدة وقصر بصرهما شديد . كان يختلف كثيرا على دارنا رغم عداء أمي له عداء واضحا . وفي بداية الأمر كنت أحسب أن اللواط علامة على التفوق والامتياز لأن اليهودي كان فائق الجمال وذا صوت رقيق لطيف ولأنه كان سريع البكاء . وكلما حاولت أن افهم كنه العلاقات التي كانت تصل أخي بأستاذه كان زاهر يغضب ويغتاظ فيصيح قائلا : « عليك ببنات أعمامك فاذهب وتشمم رائحة أفخاذهنّ ». وكانا اذا أرادا التخاطب بحضور الغير استعملا مجموعة من الرموز المعقدة جدا ابتكراها ابتكارا . وكان اليهودي كثيرا ما يردّد قوله بأنه « هيماتلوس » ولما كنت لا أفقه لتلك اللفظة معنى كانت أعصابي تتشنج الى درجة أنني كنت أدخل المرحاض فأجلد فيه عميرة . وكان « هيماتلوس » غنيا جدا لأن أباه كان من أكبر أطباء العيون بمدينتنا وكان اخلاصه لمهنته قد بلغ به مبلغا صار

معه أعمى . وكانت أمي تلعن اليهود وأما عصابة الأعمام فكانوا يقاطعوننا مقاطعة من أجل نوعية صداقات زاهر المشبوه فيها من ناحيتين . وكانت أمي بمجرد ما ينصرف الاستاذ اليهودي تفتح أبواب الغرف وشبابيكها ليدخلها الهواء وتغسل الكؤوس التي شرب منها ذلك الكافر وتتلو الرق والتعاويذ . فيتركها أخي تفعل ذلك ويبقى هادىء الأعصاب . وكان لا يريد أن يفسر لي أي شيء من تلك القضية في حين أنني كنت أتلهف رغبة في الاستزادة من التفاصيل عن تلك القصة الغريبة . وكان يقيء أحيانا قيئة هامة ويرفع ملاحف السرير الى أن تبلغ دقنه ثم يأخذ في التحديق فينا بعينين شاخصتين ويظل على تلك الحال الايام الطوال دون أن ينبس ببنت شفة .

(من كناشة زاهر وقد عثر عليها بأحد الجاروورات بعد موته) .

عند التقيء اشعر دائما بنفس الشعور الوخيم المتعفن الذي شعرت به في أول مرة رأيت فيها دم الأنثى . كان يسيل على فخذ أمي فخلتني أشرفت على الهلاك لذلك . أنا لا أستسيغ القيء ولكنني ما أن أفكر في الدم حتى تنقلب أمعائي فتصعد الى فمي . إنني لا أتظاهر بأي شيء . فأنا مريض حقا . كانت يمّا جالسة وكان الدم يسيل على فخذها الايسر وسرعان ما تكونت منه ساقية على الارض . كان الفصل صيفا وكانت الحرارة شديدة ولم يكن أحد ينطق بشيء . وفكرت لحظة بأن أمي كانت على وشك قضاء نحبها ولكنها نهضت مسرعة وانصرفت وهي تصيح . ان « هيماتلوس » مثلي في ذلك : فهو لا يحب دم النساء ولهذا السبب أحبني وأحبيته . وفي الواقع فإن هذه الحاجة الى التقيّؤ ليس مردّها الغثيان بل سببها الاصلي هو عدم الفهم : فاذا لم أفهم الامور بوضوح تقيأت . طق في ذاكرتي ها أنا أجد من جديد سببا أقدم لتوعكي ، انه انطباع اللون الاصفر البرتقالي . كان عمري ثمان سنوات عندما اكتشفت وراء باب

المطبخ خرقا مبللة بدم مسود اللون . الرائحة كريهة منتنة وبين كل قطعة وقطعة نسيج هلا مي دبق . وكانت أشعة الشمس تهوي في هيئة صفائح تعشي البصر على ذلك الكدس الفظيع الشنيع . وفاجأتني احدى زوجات أعمامي هناك فصفعتني على خدّي ولكنه لم يكن في امكاني الانصراف لأن احدى كريّاتي كانت محصورة تحت الخرق الدامية . وفي ذلك اليوم أدركت ان ذلك دم نساء فتقيأت لأول مرة . وكنت في صباي أرى في المنام أكداسا جامدة من القذراة يقصدها عدد عديد من الذباب والدويبات المتعطشة الى دم الانثى . وكنت أرى في منامي كذلك أن جميع النساء قد متن وأنهن قد ذهبن فلم يخلفن أي أثر عن وجودهن عدا تلك النتونة .ومنذ أن التقيت هكذا ببواطن الانثى صرت أعتبر النساء كائنات على حدة تحمل كلوما مريعة تجذب إليها الخنافس وبنات وردان وراء ابواب المطابخ . ومع هذا فقد كان يتفق لي أن اشعر بانجذاب عارم مريع نحو تلك السيول الخاثرة الكريهة الرائحة التي كنت اراها تنبع من بين أفخاذ بنات أعمامي عندما كن يسمحن لنا بالوصول الى حفرتهن التي دأبن على نتف شعرها فوق السطوح عند قيظ الهاجرة . كانت الأشكال إذ ذاك تبعث في نفسي الجنون والخبل . فأتقهقر لائذا بالفرار مؤثرا النظر من بعيد الى لطف انفراج ما بين الفخذين المبهم .

« ان رشيد لمنزعج باطلا . وكان لعبي مع « هيماتلوس » لا يتعدى طور الملامسات على أنه هو الذي كان يرفض تجاوز ذلك الحد . لقد كان احيانا غريب الاطوار . ونحن الآن بيننا جفوة لأن هذا اليهودي الملحد يزعم أن التوراة هي أجمل قصيدة شعرية كتبها البشر. ووضعت حدا لتحمسه هذا بأن ادعيت أن القرآن أجمل من التوراة بكثير . وهو الآن قد هجر علم الفيزيا ليتفرغ الى تعلم اللغة العربية حتى يتسنى له المقارنة بين الكتابين . أكبر الظن أن أمي لا تفهم نوعية علاقاتنا حق الفهم ولا فائدة في أن أطلعها على القضية ، فلو أحببت يوما بالحقيقة لتعاظمت سلعة

عنقها وابتلعت وجهها الجميل . وكما أنه من الممكن أن ترد الفعل بأن تضاجع احد الاولياء الصالحين الذين تعودت الذهاب لاستشارتهم في أمورها بصحبة رشيد (أليسوا يراودونها عن نفسها منذ عديد السنوات ؟)

(من كناشة لرشيد عثر عليها زاهر فحفظها من الضياع) .

« المغارة واسعة . خالية . منتصف النهار في عنفوانه. ينصرف سي زبير ليقيل قائلة طويلة . وابقى وحدي ، ليس هناك أي حريف . الفصل شتاء ، البرد قارس . القائلة تلائم صحة أبي المصاب بارتفاع ضغط الدم ، سبب ذلك على حد قول الأطباء تكثيره من المهيجات . الانتظار . الأمل في حصول شيء ولكن لا شيء يحدث . فراغ أبيض في رأسي . وأمي كذلك ثقيل في قلب الشتاء . تلك طريقة من طرق قضاء الوقت . كل الأمور قذرة وسخة في هذا المحل . فها هي دفاتر الحسابات والفاتورات رائحة الحبر والخشب . اليوم يوم أحد : انه يوم عطلة بالنسبة الى المعمرين . أنا في انتظار امرأة . شبق. اعضائي جامدة . الامور تجري ببطء وتؤدة . النساء . احيانا تدخل الدكان احداهن . وداخل المغارة يشعرن بأنهن في مأمن اذ يجدن انفسهن امام صبي أمرد فلا يترددن في ازالة الحجاب عن وجوههن . ألامس ذكري واداعبه من وراء المكتب . المرأة تتكلم . شعور باللّذة . انها تطلب بعض السلع. انعاظ . أتصنع عدم الفهم وأمدد في فترة المقابلة . انه لحضور الانثى العارض العابر على مشارف الكوابيس الملتهبة الملتوية . الارض جافة : لا وجود حتى لأي طيف من الرطوبة . إن التوق الى اغتصاب حتى أقبحهن منظرا وأطعنهن سنا ليس الا تعلة لظهور ذلك الغيظ المتدلي من كرتي فلقتي عيني اللتين قلّصتهما الشهوة الخداعة ، يا له من انحطاط ذريع فادح . ويدوم استمنائي طيلة فترة ما بعد الظهور كاملة . القوى خائرة . ان الالتذاذ بلا امرأة يجعل صورة ضرة أمي أقرب الى متناول آفة هذياني المشؤوم . كلما تدفق المني تركني تدفقه تائها زائغا . الدخول

لي موت بطيء . الانتظار المحموم . ولكن لا يحدث شيء . نفس القلق الذي اشعر به كلما رأيت أمي نائمة : إنها تتنفس تنفسا غريبا من جراء الانتفاخ . إن الحفرة هناك فلا فائدة في البحث عنها في مكان آخر . جانب جدار ابيض وجرس في رأسي . انها نفس الوحدة . فقدان الذاكرة الكامن المتربّص . انه عبث الأمور نكررها . انها تهيئة بدون طائل لأفعال وحركات وألفاظ قد لمحتها بعد في بعض الأماكن وأحطت بها بجميع حواسي . يا للعبث ! استيقاظ كئيب في الصباح . قضاء حاجات زبيدة . كل صباح كنت أطبق جفوني لكي أنظر في شهوة أكبر الى فخذها الصقيل اللماع اللّحم وأحلم بعانة خضراء مثل كلإ الساحة الشرقية بالمعهد . آه من عانة زبيدة ! ويتكون صف أمام بائع الفطائر . انه نونسي . فأغتنم تلك الفرصة لتدفئة يدي فوق قدر زيته الجاثش وهو يرمي فيه بعجينه بحركات أنيقة رغم ما برأسه من قرع كان يأكل جلدة دماغه . وما أن يوجه لي بائع الفطائر الخطاب حتى تتشنج أعصابي . انه اللواط الكامن الخفي . فجميع الناس على علم بأن له علاقات فاجرة مع أخي . فيفهم الاقرع ولا يلح . أنصرف بالفطائر التي اشتريتها لزبيدة . أنظر اليها وهي تأكل . إنها أحاسيس لا أشعر بها الا في فصل الشتاء : الزيت الساخن والنشارة والشاي بالنعناع يشربه الصناع الأعوان . الضنى والتهالك. اصبعان في الفم ... إخّيت ! إخّ ! التقيّؤ . شعور بوخزة في أنفي ، الدرج الحلزوني . الفيلا . البذخ والأريحية . تعفن الدم.البطن الزنبقي.ها هي وقد اتكأت على الجدار تلمس بطنها وتصقله . يالها من بنت حرام ! هل كانت تأتي ذلك لمحض في امعائها أم بسبب الحيض ؟) انها ساكتة . الصمت مخيم بيننا (ترى هل كان الماء يسيل من الصنبور ؟ دائما هذا الخوف من الصنابير التي لا تنغلق كما ينبغي) . الماء يتقاطر في الحوض المتوهج ضياء بمفعول شمس الخريف . ومع ذلك فهناك شعور بالهدوء والطمأنينة . يداي مشبعتان زيتا.انطلقت تضحك . انها التورية (الزيت

تورية عن الفازلين والفازلين عن النكاح) كانت تُرقص يديها الرقيقتين أمام ناظري فلا أطيق لذلك احتمالا . فينتابني التلعثم في نفس الوقت بالضبط الذي ينبغي فيه أخذ القرارات . انني احلم واقفا في اليقظة (احلم بالقحبة ذات التّبان الاصفر . انه رفيق في المعهد لجلاج كان من عادته الهروب من دورس العربية لارتياد الماخور . وهو يقص علينا ذلك ، ويشنج اعصابنا لأنه يلجلج في كلامه في أشد مواقف القصة إثارة . وكنّا نطالبه بالتفاصيل ونلح عليه في ذلك . لماذا لا تخلع هذه القحبة تُبّانها الأصفر؟ ليس يدري . هل نهداها كبيران ؟ انهما ضخمان جدا ! وهو يعرف ايضا المرهم اللزج الذي تضعه في ذلك الشيء الضخم . كان لا يجرؤ على التلفظ باسمه . ويخرّ على مقعده ويلتذ جنسيا من جديد أمامنا فيذهب عنا حب العمل فلا نفكر الا في الذهاب جماعة للتحديق في تلك الفتاة في شبق وللتثبت من صحة أقوال مزاعم رفيقنا اللجلاج ...) المغازة . منتصف النهار دائما . القائلة . الطعام . أنا آكل كسكسيا متوبلا على كرسي . الفلفل كثير . النار تلتهب في فمي . ان التغوط للتخلص منه سيكون أشد وأعسر . أنا مهدد بمرض الباسور الاحمر كبواسير أعمامي . افتح فاي فوق الصنبور. صوت عبّ الماء : غرغر ... انني ارنجي امرأة في عصر يوم كئيب من أيام الشتاء . ها هي ذي امرأة تدخل وتخرج . جلد عميرة . الجيئة والذهاب ؟ أنا ألمح من خلال زجاج واجهة الدكان المصقولة ملامح أجسام المارة وقد صغرت وتقلصت . يلصق احد الاطفال وجهه على الزجاج ويخرج لي لسانه اهانة فأخاف خوفا شديدا : هناك ثقبان مكان العينين . ذهاب الانتفاخ . ان فكرة الموت لا تنفك تنمو في دماغي . والشبق مازال كاملا رغم تعب عضوي . انه الضجر ضجر البذخ والابهة : واتثاءب . لا وجود لطيف حريف . هل أنام قليلا أم اتظاهر بنوبة عصبية فأستثير بذلك جميع الحي فأخرج الوالد من فراشه . لو تظاهرت بالمرض لربما كان لي أب . السعال . وخارج الدكان كان الطقس أقل برودة قليلا .

دخل الدكان رجل مسن أحدب . ابتسامة فقيرة معوزة . الانف يسعى سابحا نحو الأذن الضخمة . كان يجر وراءه صبيا هزيلا بلغ به الهزال درجة كان يمكن لأبيه أن يدخله في جيبه ويخرجه منه ! ولو فعل ذلك لسلاني ذلك لحظة ! الطفل ينفنف بأنفه بدون انقطاع ولكن من غير أن يخرج الأب من طوره . هل اختفى تحت المكتب وأعج في وجهه صائحا: طي طي ! ولكن الخطر هو أن الطفل قد يأخذ في النباح كالجرو ونقع في مأزق لا خروج منه . لا ! فقد يقتضي صرف انتباهه الى شيء آخر قلب عربات الترام ... فالطفل متخلف ذهنيا فلا بد أن يكون أبوه وهو يكونه قد ارتكب جريمة شنعاء بدون أن يغادر الفرج المقدس فرج المرأة المباركة . لقد علت شفتيه برطمة كان يحاول أن يجعلها حلوة عذبة . انا اعرف زوجته : وهي سيدة ذات جمال، تصرفه كما يحلو لها. صدرها خصب سخي يكفي لارضاع جميع قطط الحي . وحمائل رافعة نهديها الوردية اللون تنغرز في لحمها الناصع البياض . أفي ذلك دعوة الى الشبق والفسق ؟ رائقة هذه الزوجة ! يجب الاعتراف بذلك . واني لأتصور ذلك الرجل الشنيع وهو يسيل في قعر فيها لعابه اللزج الخاثر . كان يحمل عمامة . وكانت لحيته تنبثق كالزائدة الفحلية في ذلك الوجه الطري المسترخي . أما بقية جسمه فغارقة في ما لا اسم له . وأما لحيته فقد كان يتعهدها بالرعاية ! هو بورجوازي من رقاق البرجوازية . يحمل جبة فضفاضة من حرير خام . يداه مثل أيدي قبّار ومهنته شماع يبيع الشموع . وتجارته نافقة جدا لأن المدينة زاخرة بالاولياء والصالحين . كانت المزاحمة شديدة بين اولئك الصالحين ولهذا فهم يرفعون شكواهم الى السلط الاستعمارية ويطالبون بمزيد من الاعانة والمنح . وكان صاحبنا يملك حانوتا صغيرة جدا . هي خليط خليط من الاشياء الا انها كانت تعجبني كثيرا . وكان يخدم مصالح الفرنسيين فيعرقل تطور النساء . ها هو ذا يدخل المغازة متلطفا مداريا ... هل أقول قولا لطيفا ؟ لا ! ان الغلام لقادر على قذفي ببعض البذاءات . ولو فعل

لشعر أبوه بوجوب اخراج سبحته لطلب المغفرة من الله ولوقعنا في مأزق لا مخرج منه البتة ... هل أصمت ؟ إن الصمت طريقة استراتيجية بدائيّة ! ولكن عليّ أن استعمل تلك الطريقة على أية حال إنّ الرجل من أكبر انصار سي زبير وهو معجب به اعجابا لكثرة عدد عشيقاته . أما هو فمن عادته الاقتناع بخادمات المنازل الطاعنات في السن . هل أهش وأبش ؟ الطفل نظيف. في نظافته شيء من التكلف . مسكينة أمه! لا بد أنها تقضي وقتها في غسله وصقله ولكنه كان يحمل بلهه كما يحمل الأعمى عصاه البيضاء : فعطف الناس على الطفل . عليّ ان اراقب هذا الغلام فلا أرفع عيني عنه ! فهو مفتون بالتليفون . (لا ينبغي أن انسى أبدا أن أمي مريضة بتضخم غدتها الدرقية وأنه كان من الممكن أن اولد أبله) ماذا عساني أقول للرجل ؟ أأقول ان أبي نائم ؟ لا ! أأقول انه الآن يدلّل عشيقته لا ! أم أقول أن أبي الآن يحاول ارقاد أمي المتألمة بغدتها تألما حادا ؟ لا ! لا ينبغي أن أقول شيئا وبالاخص هذا الكلام ! يجب ألا يعرف هذه الجزئيّة . ياله من اغلال وتدهور . لكأنه ينظر اليّ نظرة شاذة (فهل يتكهن بأفكاري ؟) ياله من مهذار له نفوذ الشموع وشرّ حفار القبور . هيئة وجهه كهيئة سيدي عمر الملهمة وهو ولي من أولياء تونس ذاع صيته في كامل المغرب الكبير . وتزعم يمّا أن المسلمين يأتون من الهند لزيارته . وقد سافرنا مرة أنا وأمي حتى بلغنا تونس لنطلب منه اعانتي على التحصيل على الشهادة الابتدائية ، وخلافا للعادة لم يعارض الوالد في ذلك بلا شك بسبب خطورة القضية . ان هذا الولي في الواقع ليس الا رجلا مشلولا شللا عاما ضحية مرض الزهري،وكان مسجونا دائما في قفص عظيم من تلك الاقفاص الخاصة بالأطفال الصغار يرتع فيه عاريا كالدودة . ان بطنه أضخم من بطن أبي بثلاث مرات وهو شيخ طاعن في السن ينتابه النعاس فيغفو في أغلب أوقاته وهو لا ينظر الى أحد وليس على هيئته ما يدل على أنه مرح جذلان. وليس حوله الا النساء ، وكان يطلق من حين الى آخر

صرحة حربية صغيرة . ويقضي حاجته الطبيعية أمام الناس وعندها يضحك مثلما يضحك الأطفال الصغار تماما . وكلمته يمّا فلم يصغ إليها حتّى مجرد الاصغاء . ولقد أثرث اسرة هذا المجنون بعرضه هكذا على العموم في تمام براءته الطبيعية ، وشجعت الادارة الاستعمارية القضية بصورة خفيّة . وكان أشد الخلق سعادة به هم النساء : فهن يعشقنه ويتخمنه بالحلاويات التركية وكان يحبها حبا جمّا . وعلى الزائرين قبل الانصراف أن يدفعوا ثمنا باهظا جدا . فانصرفنا منسلين ...

لا لم يتكهن صاحبنا بأفكاري . ولو فعل لتجاوز الأمر الحد المحتمل ! يجب ألّا يعرف أن أمي مريضة بغدتها : ففي الحديث عن عنق المرأة من الاثارة الجنسية ما قد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه (آه من زبيدة !.. الاصطدمات) لقد حكم عليّ بألا أكون الا لاحس شقوق مستطيلة (اني أشعر دائما بطعم الملح هذا عندما أجامع امرأة أو اسمع أمي تبول أو عندما تتركني بنات أعمامي انظر اليهن وهن يبلن) لقد خارت قواي (ألست مراهقا عاشقا ؟) ونصيبي من الهدوء والاطمئنان أين هو ! ان النساء مسجونات وراء الجدران وهن راضيات بذلك . ولهذا فلا ينبغي لهن أن يؤجّجن شهوة الذكور الابرياء . الرجوع من الحمام . احمرار في العقر . الفرج مغسول محلوق معطر ولهذا فلن أكلمه عن أمي . يقول الناس عني إنني غريب الاطوار ولكن الحقيقة أن الشمس قد رعتني مرة . ويقبل الشيخ عليّ متظاهرا باللطف وتبدو على وجه ابنه فجأة هيئة لا عهد لي بها من قبل . ومع هذا فاني أعرف هذا الصبي حق المعرفة . ترى ماذا يريد الشيخ مني . بقيت لي التذاذة جنسية يجب اجتلابها ؟ (هل أفكر في زبيدة وهي تلبس جوربا وتدخله في رجلها . ولكن الم استوح هذه الصورة من السنما ؟) عليّ أن أقول شيئا ما كأن أسرد بصورة آلية بعض العبارات المألوفة الجاهزة . ينبغي أن أحذر زلات اللسان ! والرجل قد انتصب هناك تائه النظر . واضح انه يتألم .

ـــ صباح الخير ...

ونزل على رأسي وابل من الدعاء والتسليم . وكان صاحبنا فخورا بزوجته وبابنه وعلاوة على ذلك فهو فخور بامتلاك جميع العلوم الدينية ، وكان يطيب له ان يتصدر الاجتماعات السياسية والدينية التي تعقد في مكتب الوالد . وهو يكره أبن رشد فيبصق على الارض تنديدا صائحا « انه رجل ملحد » . وبعد ذلك يطفق ابي يعتزّ ويفخر باظهار قصر باعنا في مجال الفقه الاسلامي فنحن لا نعرف عن ذلك شيئا . إنه الجهل المدقع . فتكون الدروس الدينية تلقن لنا بواسطة الضرب واللطم بالمضمومات والمجموعات . وبدخول صاحبنا المغازة تدخل معه رائحة لطيفة هي رائحة الكافور والعنبر المحروق . إنه القبار وهو يجلس جلسة قبار . ويسأل عن أبي . فاشتم رائحة الفخ واتركه يتكلم كما لو كان لا يعرف أين أبي ! فجميع الناس بالمدينة على علم بالقضية . أأقول له ان أبي يراجع الآن درسه في النحو الفرنسي ؟ ولو فعلت لكان من المحتمل أن يقهقه قهقهة قد تؤدي به الى الغص والاختناق (لشدة ما به من هزال). ترى هل يود أن أفصّل له الحديث ؟ إن عينيه تشتعلان ثم تنطفئان كما على مضض ، ثم تستقران ثانية في العالم المحيط بهما . يا لنظرتهما الباهتة! ووددت لو رأيته يضحك . ولو ضحك لبدا مثل شموعه . لقد اعتدت أن أزور دكانه : وذلك مجرد تعلة لاختراق الاسواق . فها هو سوق النحاس ومرارة الشوارع السخنة المضمخة بماء زهر البرتقال . وها هو « سوق العطارين » . إن دكانه هناك . ها هو ذا وقد بدا أضخم من عادته واثقا من عظمته ، بعيدا عن الحمالة الوردية لرافعة نهدي زوجته وعن جموع ذراريه المتخلفين ذهنيا . إن عينيه أشد صفاء مما في العادة . ويخيم الصمت بيننا فأتركه يتواصل (لكل امرىء الصمت الذي هو جدير به) . لا ينبغي ان اقدم له قهوة . اذ لو فعلت لجاز ان يستسلم فيسارّني ببعض الاسرار وانا لا اريد ان يكون لي مع هذا النذل أية ألفة او دالة . وها هو الابن يضرب

الهواء ،برجليه الهزيلتين على غرار الجراد . انه يختنق .

ـــ ربنا هب لنا من علمك نصيب يومنا .

فلا اجيب بشيء لئلا أهيجه . فيشرع في التلفظ بجملة ولكنه يلمح ما يلوح على هيئتي من تهكم وسخرية واضحين فيعدل عن جملته وينكص فجأة ثم يحرد ويظهر الاستياء . انه يبدو لطيفا في الظاهر ولكنه هو الذي يشجع رئيس العشيرة على ان يطرح علينا أسئلة ملؤها الخديعة والغدر عن الحضارة الاسلامية (من نوع : يا رشيد هل تعرف كم كان ثمة من حمّام في عهد الهيمنة العربية بمدينة قرطبة وحدها ؟ فأتردد قبل الجواب !... يجب ربح الوقت . واتخذ هيئة من به إلهام لكي أتمكن من التفكير مليا ثم اختار التملق . يجب أن أكون سخيّا . فاجيب برقم هائل فيضحك الوالد ضحكا يجمّدني هلعا . ويتبسم بائع الشموع ابتسامة الرحمة والغفران ، غفران الكبار لبلادة الصغار ... اما الآن فقد بدت عليه علائم الضجر ونفاذ الصبر . ولم تسعفه سبحته البتة . سأجعله يشمئزّ !

يقول :

ـــ ان الذباب ....

فأجيب :

ـــ ... آ !

وألوح بيدي فأشير بهما اشارات مبهمة وأتصور في قرارة نفسي ذبابة تسفّ قطا في بقعة ما من الارض . وأطفق ضاحكا ، وأكتشف في تلك اللحظة بالذات أن لي يدين تابعتين لي (عجبا والله ! ما أغربهما !) وأما صاحبنا فهو يهيء نفسه للخروج من تحفظه . سأحاول اثارة اهتمامه . وأسمعه يتململ ويشرع في بعض حركاته ثم يعدل عن ذلك . ثم يرمقني ويخرج في آخر الامر مصحفا من جيبه .

ـــ هل يمكن أن اتلو بصوت مرتفع ؟ ... إنها العادة . وأنت تدرك ...

ان في سؤاله مكرا ودهاء . كان يرتاب في ويحسبني من اتباع ستالين !

على انه لم ينتظر جوابي بل شرع في التلاوة (صوت جميل) .
ـــ لا ! لا !

أتعمد مقاطعته . فينقطع ويتساءل في نفسه صامتا . ثم ينغمس من جديد في التلاوة . ان التعب سرعان ما سيصيبه . وفجأة يزعزع نفسي قلق شديد . لعل ذلك كان دسيسة حبك خيوطها أبي . ترى أي فخ كانوا ينصبون لي ؟ يجب أن أجد أسباب زيارة هذا الرجل . واخيرا أفهم القضية : فهو لم يأت الّا ليغفو غفوة القائلة مفتوح العينين مرتعش الصوت كالعنز . فأرمقه . ها هو ذا قد نام الآن ! وأما الصبي فقد جلس أمام التليفون يتأمله بعينين مثل عيني الكلب (بامكانك أن تعوّل على هذا) . لقد فهمت . لا بد أن تكون زوجته قد طردته من المنزل . فهي المشاجرة الزوجية وأنا الملاذ ! ياله من ابتهاج عظيم . وأتخيلها وهي تعيد حمائلها الى مكانيهما . ليقل قائلته ولينصرف !

بعد حين سيعود الي مشرقا متهللا رغم دمامة خلقته مرتديا جبة من حرير أصفر منتعلا نعلين مغربيين إنه جميل الهيئة . وآنذاك سيلزمني أن أذهب لأحضر له الشاي بالنعناع الطري والماء المبرد بالثلج في اناء ضخم من فخار . انها الطقوس التقليدية . وستقطع رائحة النعناع المغموس في ذلك الشراب المحرق صوت القبار المعسول وقد بوغت فبرز من قائلته الندية المضطربة في هيئة يرثى لها أمام هيبة سي زبير وبهجته . انه الحلم قد شرق به وغصّ . ثم يكون مجيء أول باعة الياسمين في ضوضائهم وصخبهم . أما الآن فان صاحبنا نائم نوما ثقيلا فاغر الفم وقد سقط المصحف على الارض بجانبه . واما الطفل فهو لا يحاول استفزازي ولن يلبث أن ينام بدوره . وفيا لسحر التليفون وفتنته على الطفل .

كنت مصرّا على حبي لزبيدة وكانت تدرك نواياي في ذلك . وقد ساءت حالي واخلولقت حتى اصبحت مثل الخرقة ولم تفهم أمي انتكاصي المفاجيء الجذريّ. كنت أقلد السائرين المتكلمين في المنام وكنت سابحا في حيرة وتردد . وكنت لا آبه بتوبيخات الوالد (لا ينبغي تعكير الجو !) كنت الذكر الوحيد الذي كان مسموحا له بالحوم حول ضرة أمي وكان عليّ أن أحافظ على ثقة ذلك التاجر الكبير . وكانت تبدو على هيئتي وانا في المعهد علائم الاندهاش الى حد كبير حتى أنني أصبحت فريسة مستساغة لشر « لول غير ربع » . وكان حبي قد وافق فترة يقظة مشاعري السياسية فكنت أنفث مذاهبي في أنفس رفاقي بالمدرسة وانشدهم أناشيد عمر الشاعر . لقد أتت تعاليم سي زبير القومية أكلها واصبحت متصلبا في أفكاري لا أتنازل عنها قيد أنملة ! فقد خرجت من جلدي وقد ضقت به ذرعا فأصبحت لدودا لا أقبل المصالحة مع أحد : وكانت تشكيات بنات أعمامي وتذمراتهن تنغّص عليّ حياتي ، فكنت أركل القطط والسلاحف وعصافير السطح والحمام وأحتقر جميع الناس شامخا زاهيا ماحقا إياهم ولا تسل عن دهشة النساء من سرعة غضبي . ومع طول الأمد انتهى بهّن الامر

الى العدول عن محاولة كسر قشرتي والتطلع الى ما تحتها . وأصبح زاهر أكثر ادمانا على الخمر من ذي قبل . وكان يجمع مالا كثيرا بتعاطي التجارة . وكنت أترك أمي تحمله كل ليلة من أسفل الدرج الى غرفته وانقطعت عن النظر الى نفسي في المرآة كما كنت افعل في الزمان الغابر ، اذ كنت أجدني شديد الدمامة فلم أكن أحب أن تثبط عزيمتي أمام تلك الحقيقة . وكنت وأنا اتوق الى اثارة اعجاب الرعاع أسب الدين وأجدّف على الله أكثر من سائر الناس وتتصاعد من ابطي رائحة قوية . كان الجو مدلهما من كل جهة وصوب حول عشقي .

يالزبيدة من ضرة خارقة للعادة ! كل نهد من نهديها بدر في تمامه . والعينان دعوة دائمة الى الشبق الفيّاض الفعليّ . والبطن واسع عريض والشعر غزير ثقيل . لقد كان يلذ لها أن تفسد على أرباب العائلات الذين يعترضونها كل شهر وهي في طريقها الى الحمام لياليهم الكافرة . يالها من أنوثة حادة ! ترى هل كانت وحشية شرودة ؟ أجل . فمن من الناس يستطيع الدنو منها بدون أن يثابر على القيام بعمليات تمهيدية طويلة صابرة . كانت تجهلني بل قل تتجاهلني . لقد كنت اقضي حوائجها وأزحف بين يديها ذلا واستكانة . انه العمى مزج اندهاشا وذهولا . يا للألم ألمي ! كانت تستفزني فتبدو عارية أمامي أو كالعارية عند خروجها من الحمام وقد فاحت منها تلك الرائحة الخاصة بالماء الموسخ . لقد زاد في جمالها كونها وضعت مولودا فأصبحت أما . وكنت فريسة للألم والعذاب المبرح فنسيت الوالد . وكانت أحيانا تتناول وجهي بين يديها وتنشدني من شعر عمر قوله « ... يا ربي هل يرضيك هذا الظمأ والماء ينساب أمامي زلالا ... »فكنت أقاطعها وانصرف وقد أخذني الفزع مما كان سيحدث . لقد كنت بين نارين نار الوالد المنيع الحصين ونار زوجته المنفرجة (لقد كان اتصال بشرتي ببشرة اخرى امرا حيويا بالنسبة الي فكنت أتمس بنفس

الحميّة والحماس صفعات الوالد وملامسات الضرة . وكان ذلك في الواقع طريقة من الطرق الممكنة التي استعملتها للخلاص من الشعور بالذنب . وكنت بنفس الطريقة أترك الرائحة المقيتة المتصاعدة من رئيس الأسرة ، والشذا اللطيف المتضوع من سبيّته يختلطان في دماغ ويمتزجان. بل إنّه كان يتفق لزبيدة أن ترفع أمري الى رئيس القبيلة فتبلغه خبر بعض الهفوات التي ارتكبتها ، كانت تشي بي الى رئيس تلك القبيلة التي برزت من جديد على سطح الارض بمعجزة لا اعرف لها كنها وذلك بعد أن قتّلت تقتيلا وأبيدت في زمن مقاومة الامير . ولقد استغربنا جميعا حدوث تلك العودة التي لم يعد يتوقعها أحد . وكان اطعن اعضاء العشيرة سنا يعتبرون ابي المنقذ الاخير الذي نجّى القبيلة المبعثرة في كل فج وصقع .

وكان سي زبير مجبولا على روح الصراع والنضال وكان أصله البدوي قد غرز فيه تعنتا مخيفا وجشعا تحزن له النفوس . كان يهتم بكل شيء وكان العلم يفتن لبّه فوق كل شيء وقد اهتدى الى حذق التكلم بعدة لغات بدون أن تطأ قدمه أرض مدرسة قط . فكان في نظرنا محاطا بهالة هي هالة العلّامه . كانت جيوبه مكتظة على الدوام بالكتب والمجلات يقرؤها أنّى اتفق له ذلك . وكان يتفق له أحيانا أن يعلق أمامنا على بعض الكتب التاريخية حتى اذا ما اتسعت الحلقة المحيطة به استشهد بنا في الموضوع (أليس كذلك ايها الاطفال ؟) فكنا نهز رؤوسنا بقوة علامة على الموافقة وقد شعرنا بشيء من السعادة اذ قد أنزلنا ولو لمرة منزلة الابناء (ذلك انما هو الرجوع رجوعا عابرا وبصورة انتقالية الى الابوة المضنية !) كانت زبيدة تبعث القلق في نفسي بسبب ذلك الطيف الزاحف الذي كنت اراه يبرز من خلال قماش الحرير الخفيف عند حدّ ثنة فخذها . وكانت إذا أفاقت من نومها بدت عيناها تائهتين وقد بلغ الغموض منهما حدا كنت أتساءل معه في نفسي هل كان حبها لي قد أعمى بصيرتها فكنت أقع بسهولة في فخ الغرور ، غرور الذكر الذي لم ينضج بعد . فتتوتر علاقاتنا توترا

شديدا . كنت أريد ركوبها وهي تترنم بصوت خافت بقول عمر الشاعر :
« يا ربي ! هل يرضيك هذا الظما والماء ينساب أمامي زلالا ... »

كانت ترضع ابنتها كاشفة عن ثديها أمامي فكان امتصاص الرضيعة يبعث في نفسي شهوة جنونية . فيذكر دمي عمليات الابادة التي جدت في الزمن الماضي ، واسترجع الطبيعة الحيوانية ، الا أن الشهوة كانت ترخي أعصابي فكانت القضية بأكملها تؤول الى نهاية يرثى لها . كانت وقد أخرجت نهدا واحدا من نهديها تبدو كأنها قد زلت بها القدم فسقطت في اتجاه منحرف وعثرت بها رجلها على مجردات واضحة وضاءة . ترى هل ستتحقق وساوس زاهر في يوم من الايام ؟ ان التكهن تخمينا بدون فهم الموضوع قد جعل من القضية أمرا مشكوكا في صحته . فكنت أتوسل الى الروائح المتصاعدة أن توضح لي سرّ الدم والظل . ولكن هذه العلامات كانت تحتفظ بصمتها ولم يكن لي في أمي أي عون على ذلك . فكنت أعيش اذن عيشة الوحدة والانعزال . كان زاهر كثير الاسفار وكنت أنا أختلف الى الحانات المشبوه فيها باحثا عن امرأة قد تشبه زبيدة . ولكن بدون جدوى ! وعبثا كانت ربّات تلك الحانات يبحثن ويبحثن اذ لم يجدن لي قط امرأة تكون مثيلة لتلك التي كنت أحمل صورتها معي على الدوام . وأمّا هي فقد كانت في تلك الاثناء تعاني السآمة والملل وتعيش سجينة في الفيلا الخاصة بها : لقد حرّم عليها كل شيء حتى النزول الى الحديقة التي استولى عليها نبات الحريق واحاط بها حزام من ألواح الخشب العالية في حين أن منحدر تلك الحديقة الصغيرة كان ينتهي سهلا الى حد البحر .

وبعد ذلك وفي يوم من الايام وبدون أدنى توقع لحدوث الامر قررت زبيدة أن تعشقني وتهيم بي فتلعثمت العبارات في حلقي اعترافا مني بالجميل . السرير من حديد مطروق اخضر . والزرابي بيضاء والشمعدان الكبير ذو فروع . كان لا قوة لي ولا حول على تحويل نظري عن القط السمين . وكان كأنه مبهور بهره البذخ وصدر العشيقة الزنبقي البياض وقد امتدت على

عرض الفراش . كانت على هيئتها تلك توهم الناظر بأنها نائمة . وكان جسدها ممتدا الى ما لا نهاية له ولحمها متراكما . وكان الجزء الاسفل من جسدها منعكسا في المرآة : السرّة كفرج ثان أشد غموضا وأعظم جهنمية من الفرج بكثير . والحزمة بين الفخذين . واذا ما تمّ السفاد كنا نمكث هناك ونلزم الصمت وقد وخزنا الالم وخارت قوانا . وكنت اذ ذاك أتردد بين طلب النعاس والخوف من البرد . وفي نهاية الامر كنت أبقى بين الامرين دون أن ابّت في أحدهما : الفرج ندي مخضل . البذخ والأبهة . النتوءات تعميني . النوم في صلب المرأة التي طمعت فيها مدة أعوام ، والسعي الى الاتصال بالجنين المحاط بالالغاز ... وتنغلق ضرّة أمي على نفسها وقد وضعت يديها بين فخذيها . فأطفق أتحسس كالاعمى بحثا عن الألفاظ أغذّي بها هذياني . وتبكي الوليدة في الغرفة الاخرى فتنصرف عارية وتقدم لها ثديا ما زال مرضوضا بملامساتي ، مبلّلا بريقي . ثم ترجع يتقاطر منها ذلك السائل اللبني الذي كانت تحاول عبثا أن توقفه . فأتذكر نهدي بنت عمي الصغيرة الهزيلين فيتحقق خوفي المقيت من اللبن . ونظل صامتين ويعجز جميع القطن الذي كانت تستعمله عن ايقاف ذلك النزيف الابيض . ضقنا بالامر ذرعا لأن اللبن قد أفسد علينا كل شيء وجعله محل سؤال ونظر . (ترى هل ينبغي أن نقتل وليدة سي زبير لوضع حد لهذه الكارثة ؟) . كان الوقت ما بعد ظهر يوم دبق لزج من ايام نهاية صيف عفّن فيه شهر سبتمبر المدينة . وكان البحر هائجا مائجا . وكانت الايدي والوجوه لزجة دبقة من شدة الحر . ورغم كل ذلك كنت أشعر بالبرد . لا بد ان الوالد كان بصدد قضاء القائلة عند احدى عشيقاته . ولم يعد هناك أيّ حيلة للخلاص ! كيف السبيل الى حبه وقد زحف عليّ الدم واللبن المتنبأ بهما زحفا ما انفك يقوى ويشتدّ . والالفاظ الباهتة المرتجية على تخوم الاستيقاظات المشبوه في أمرها . وكنت من حين الى آخر أغفو غفوات قصيرة جدا . واذا تكلمت كان وقع صوتي يطرق أذني كئيبا

ملؤه الكرب والهموم . وكنا اذ نواجه الفعلة العظمى نتردد في ملازمة لذتنا الصاخبة القلائية . ترى هل انتهى بها الامر الى التراخي والفتور ؟ من يدري ؟ كنا في تعاطينا الحبّ كالأعميين يعبر جسميهما النور . كانت تطلق الزفرات وتحملني بذلك على منتهى الاغتياظ . وفعلا فقد كنت أطالبها بمزيد من التستر والكتمان وانا ابحث عن ذلك النسل المأسوي . كنت اخترق احشاءها اختراقا فتخصب تحت بشرتي وتهب نفسها بدون تحفظ . كانت الغرفة جميلة صغيرة جدا والجدران بيضاء (انها دائما فكرة المصحة . ولكن ترى ما العلاقة ؟ ما العلاقة ؟) واذا نامت أظل وحدي في حالة نعاس مضطرب في ظل ذلك الفرج الغريب الكريه الرائحة . كان هناك رسوم هيفاء ممشوقة : انها جدرانيات « تسلّي » على الحيطان . ولكن الغرابة كانت تفسد علي كل شيء . انه الشعور العميق بالاستنكار تجاه قدرتي على التعلق بهذا الشيء الفوضوي المشقوق بأعجوبة فظيعة من اعاجيب الطبيعة . التعلق بهذا الينبوع من الحرارة ! مثله مثل الحصبة تسخنها شمس الشطوط وتخربش عليها الرموز . ومع ذلك ففيه تكمن النشوة العظمى .

كنت إذن اضاجع زوجة أبي الشرعية . ترى هل كان سبب ذلك ضغنة الرحم المهانة طيلة قرن كامل من العنف والنار ؟ لقد كان إرث السلف يحرّك خوفي لأنني كنت لا أريد أن يكون سلوكي كسلوك رئيس العشيرة . وكانت القطيعة واضحة جلية . وأما سي زبير فقد كان مصرا في صرامة على رفضه . فكان لا يفوته قط أن يوقفنا دائما عند حدنا فكنا نتعلق بجلده مثل البق العنيد : ان التلميح الى الدم كان جليا ولم يكن حبي الآثم لزوجة أبي الا مرحلة من مراحل الكفاح . وأما الوالد فقد كان يتركنا نتشتت وقد أطل علينا من أعلى مرارته في جو من التناغم المشبوه فيه . كان لا يأبه باضطراباتنا ولكنه كان فخورا بجوعنا المتلهف . فلم يبق لنا ملجأ نركن اليه سوى النهب والزنا بالمحارم والخمر : فاذا ما اتفق له أن يرتكب خطأ تبلبلت

نفوسنا لذالك فيغتنم تلك الفرصة ليرفع عنّا ما كانت تفرضه علينا مشيفاته اللاتي كن يشحذن أظفارهن طوال النهار للتمكن من تحسين عرفهن على القانون . لقد كان يحبسهن هن الاخريات ايضا فكن يقضين أوقاتهن في تلحين شعر شاعر يدعى عمر لا يعرفه أحد في المدينة سواهن : لقد كنّ فيما مضى من المنضمّات الى دور الزنا فأخذن هناك عن المغنين اليهود من مدينة قسنطينة أبدع الموشحات الاندلسية . وكنت عند الاستفاقة من النوم أتناول العشيقة سالمة كاملة فأنقب بأصابعي في أدخل طياتها وأخفاها باحثا عن خال كنت فخورا بأنني أول من اكتشف وجوده الا أن ذلك لم يكن قمينا بأن يهدّىء من قلقي . لكأن لقلقي راس جرادة ضاغبة . القط ! كان مستمرا في اندهاشه من فخامة اشكال جسد زبيدة . وكنت اذ اراه يسير بهيئة متصلبة أتنبأ بأنه كان يشتهي رفع رجله والبول على سروال الضرة القصير وقد ترك سهوا تحت حراسة ذلك السنور فكان يتشممه بدون انفكاك (كان لون السروال ورديّا باهتا كلون قطع الحلوى ، يا له من ذوق سمج) . ولكن هذا القط العنيد كان لا يتجرأ على البول لأنه كان حسن التربية وكان له وعاء يبول فيه في الحديقة . وكان وهو على تلك الهيئة ينظر الى البحر الساعات الطوال : انه لافتتان الضيون ! كانت تدلله وتتملقه . وكانت حركاتها تدخل الهدوء في نفسي : فيزول عنّي الخوف : كنت كأنني قد متّ بعد وظلّ فكري يتنقل جيئة وذهابا داخل رأسي وجثتي المنهوكة . كانت يمّا لا تحب زبيدة . القط السمين ذلك هو العدو الحقيقي ! كان من اللازم أن أحوّله عن عشيقتي وكنت أستعمل لذلك « نانا » قطة أمي . والا لوجب خصاؤه ! ياله من انحراف جنسي عند الحيوان . كانت زبيدة نائمة كالكدس النابض . رائحة تتصاعد رخصة لدنة .كنت أريد أن يزداد تعفني داخلها قليلا وأن استعيد تلك الحالة من الفراغ الكري بالقوة وبالهذيان . كنت اثناء انتجاعي أنقب باصبعي باحثا عن بعض الفجوات غير المنيعة التي من شأنها أن تمحو

ذنوبي بصورة نهائية . وكنت وأنا في حالة التراخي واللامبالاة قلما أجد منفذا لسوء حظي الذي فاقت فيه المغالاة وجه الحقيقة . وعندئذ كنت أسلك من جديد الطريق الوعرة فانتهي الى نفس الوسواس من نساء مزقزقات الى رجال في حالة غضب على صهوات جيادهم الى حيوانات لا تغيب البتة عن مثل هذه الحالات الحلمية .

ترى هل كانت تضحك ساخرة من خيبتي ؟ .

أجل كانت تلك العشيقة العجيبة تضحك وهي منتصبة بالضبط على الحدود الفاصلة بين الحلم والواقع اليومي . وكانت كذلك خبيرة بأنشودة الماء فتجعله يختلج عند مساس جسمها . كنا نستحم معا بغرفة الاستحمام الخضراء الفيروزية اللون الخاصة بالزوج المداس العرض والذي كان في ذلك الوقت يفقد جميع الصلات التي كانت تربط بيني وبينه . لقد كانت تفهم بالفطرة كيف كنت قد عنّفت في ضميري وأحرقت كالجصّ في أحاسيسي ومشاعري فكنت مسحوقا ممحوقا مثل السّرفة ذات البصيرة الثاقبة بافراط . فكنا نبقى حبيسين لنبلد ذهننا تجاه عالم كانت رموزه الهيروغليفية المعلقة تعذبنا بوخزاتها الى حد الانهزام ثم بعد الهزيمة الى حد الرضى والموافقة . أجل كانت تضحك . تُرى هل كانت شاعرة واعية بذلك الانذهال الذي كنا نعيش فيه في انتفاش وفيضان وافر ؟ وكنت اطالبها ملحا بأن تسيطر على الوضع عوض أن تتكهن به حدسا . كنا ننام ونستيقظ وقد وفقت الى إبعاد رتابة الحياة اليومية عن هوانا . وكانت الالفاظ وقد خلت من كل فائدة في حالة الصمت تتمزق فتفقد كل مادة وقوام . انه اليكم نستهلكه بصورة ناسخة فاسخة . ترى هل أن الرخويات في الخارج لاصقة بغبار الشوارع الملتهبة حرارة ؟ ترى هل تجازف بالسطو على زبائن المقاهي العربية الذين كانوا يحتسون الشاي في ظل الأقواس البارد ؟ لم تكن تدري الجواب عن كل ذلك .

كانت تقول : بل انظر الى هنا ، أنا يطيب لي أن أحدّق في ظل فرجي

الهجين على ملحفة الفراش البيضاء انظر لكأنه علجوم أشعر بالذات !

كنت اتركها تتكلم فكانت تلتف على نفسها ويغمى عليها من فرط اللذة . وتغتسل وترجع فتخر على الفراش . انّه حقا لضفدع اشعر قادر على افراز جميع انواع اللعاب والرطوبة . وكنت أمرر عليه يدي مرة واخرى . وهندئذ بدا القط كأنه يضحك ضحكا بلغ حدا اختلجت له شعرات شاربه (كان يشبه قط معلمتنا الفرنسية العجوز التي كانت تنفق وقتها في النظر الى البحر . لقد كانت تفرض علينا أن نجيء لها بنصيب من السمك لدرس العلوم الطبيعية وكانت تقدم السمك لسيدها الضيون . ومهما كانت الحيوانات والنباتات التي كنّا ندرسها فقد كانت دائما وابدا لا تطالبنا الا بالسمك . وفي يوم من الايام عقدنا العزم على وضع حد لذلك النزيف المالي الذي كان يحدثه تعهد ذلك القط بالقوت في ميزانية عائلاتنا فقررنا أن نضع القط في كيس وقذفنا به في البحر . فماتت المعلمة كمدا . فانقطع بذلك مقتها للعرب . رائحة ابطي الانثى . شعور بالأسف والأسى ... انفتاحة ضئيلة ... لقد كانت لذة قتل الوالد فاغرة فاها . ينبغي قتل القط بل جميع القطط . كانت تقول : بل ابتلاع البحر أفضل عندي ! وكنت ازاء رفضها ذاك أظهر لها السخط فكانت تخاف لذلك وترتاع . انه دبيب النمل في رأسينا . إن أبي مازال تاجرا كبيرا محترما جدا وعندما يمر بجانب المسجد يقطع المؤذن أذانه ليسأله من أعلى الصومعة عن احوال صحته . ياله من صوت جميل صوت صاحبنا المؤذن وياله من افراط في الاحترام والمجاملة ! وأسألها : هل كان أبي يكثر من مجامعتها فتقول مستغربة : ترى هل يجوز أن تغار من أبيك ؟) . كانت خبيرة بعصر وجهها وعجنه عجنا وخصوصا بالتحكم في تلك الخصلات التي كانت تتيه فتصل الى ملتقى ركني شفتيها وإرجاعها على جبينها . وكنت أقصد الى جعل زوجها بغيضا في نظرها فكنت أقص عليها بكثير من الحقد قصة اخوتي الذين كانوا يربّون في صحون الديار العربيّة . فلم

تفاجئها قصتي تلك . كل ما في الأمر أنها استغربت عبقرية رئيس الاسرة وقوته على النسل الكثير . « وانكحوا ما طاب لكم من النساء ... » كانت تعرف نتفا من القرآن وكان يلذ لها أن تعرض على الملأ معارفها القرآنية القليلة . وبالعكس فان أمها كانت متضلعة جدا في الدين راسخة القدم في الشعر . ان زبيدة لما اشتراها أبي في سن الخامسة عشرة كانت بصدد الاكتشاف بأن لها استعدادا فطريا للغرام .. هل كانت كاذبة في ذلك ؟ لقد كنت أظن ذلك منها بسبب ذلك القط وكانت تفرض عليّ وجوده اثناء رتعاتنا الغرامية . ياله من أمر يدعو إلى الضحك ومن هيئات ووضعيات جسديّة غريبة تدعو الى السخرية . وكانت المرآة تفتننا وتسحر ألبابنا أكثر من جسمينا لقد كنت أعبدها ولعل مرد ذلك الى أنها كانت أول امرأة امتلكتها جنسيا حقا ... فقبلها هي ، كنت قد باشرت بنات أعمامي ولكن لم يتعد الامر معهن حد الملامسات الخبيثة على تخوم المناطق المثيرة للّذة . لكم تشنجت اعصابي لذلك ! لقد كان الألم يضني خصيتي من جراء ذلك . وكنا احيانا نحضر عملية النتف الجماعي ينتف فيها عدد من الصبايا البالغات فروجهن الهزيلة ويعرضن في كآبة وأسى عاناتهن وقد جزّت نصف جزّ . وكذلك كنت قد مارست اولائك النساء اللائي لا أعرفهن واللائي كنت ألقاهن في حفلات الاعراس فيدخلن معي مراحيض الديار العربية ويختلين بي هناك . ولكن كثيرا ما كان لهن وليد من واجبهن ارضاعه (انه دائما التبوّ بالحليب) فكن يسرعن في العملية اسراعا مفرطا . فيأتين عمليات خرقاء .

هل كان يطيب لها الاستماع الى هذياني ؟

أجل كان يطيب لها ذلك . وفي الواقع كان ذلك طريقتي الوحيدة لاثارة اعجابها . كنت أحس بها وهي تدخل في صلبي وتمتزج فتستوي في انغامي المجهورة القاطعة . فيتضبب الفضاء ويخرق الزمن خرقا لوليّا وهو حي ؛ فكنا نسبح ونتيه مع التيار . وكلما زاد الهذيان انتظاما زاد اعتناؤها

بالتفنن في الغرام . لقد كانت لا تستعمل جسمها فحسب بل تستعمل أيضا حيلا أخرى اما طويلة مسهبة أو قصيرة موجزة : لقد كانت توفق الى اضفاء حلة شعرية على العالم المحيط بها بواسطة مجرد نتف من الصور ونتف من ابيات الشعر وكانت رغم حياتها حياة المرأة المسجينة تتقن التقبيل مثل الفراشة فتبوسني واهدابها تخفق فوق شفتيّ خفقانا . وخلاصة القول أنها كانت مستسلمة استسلاما تاما الى فنها فن المرأة التي خلقت لتعبد العشيق ولتغيب عن الدنيا وتنسى الواقع . ترى هل كانت تتقن العزف على القانون مثل بقية زوجات سي زبير ؟ لا بل قل انها كانت مبتدئة تعزف بدون مهارة فكانت أظافرها لا تقوى على الصمود في وجه وصلة من الموسيقى الاندلسية فكانت لا تهتدي قط الى جعل الآلة تنطق بالنغمة المنشودة . فأصبحت الآلة بذلك مجرد قطعة يتزين بها . وكنت أفضل الاستماع الى الاسطوانات فكنت أذهب فأجتلبها من عند بعض صعاليك الحمارة التي كان أخي يختلف عليها . وكان ناسها لا يحبونني ولكن زاهر — وكان في نظرهم راسخ القدم في العلم — كان له من الهيمنة عليهم ما كان يجعلهم لا يتجاسرون على رفض قضاء حاجتي . وأما أنا فلم أكن أحبهم أيضا وذلك لأني كنت لا أشرب الخمر ولا أدخّن « الكيف » فكنت كلما زرتهم شعرت بأنهم يعتبرونني مخلوقا من المخلوقات الاحادية الخليّة قد أشرف على الضلال وسط عرينهم .

كانت تقص قصة زواجها بأني فتقول : زواجي انما هو تتويج لصفقة تجارية لا أكثر ولا أقل . وكانت أمها رغم تضلعها في نوبات الموسيقى الاندلسية وفي اغاني الحب والغرام قد وقعت في قبضة سي زبير فكانت علاقتهما علاقة غامضة بل قل مريبة لأن ذلك الزواج قد تسبب في مساومات خارقة للعادة : ذلك أن أم زبيدة كانت في حاجة الى المال. وعلمت عند ذلك أن أمها كانت على علم بعلاقة ابنتها بي وانها كانت

تشجع على ذلك وتحث عليه لاعتقادها أن سي زبير في الحقيقة ليس الا شيحا هرما أضعفته غدّة البروستات وعشيقاته العديدات . كان الجو حارا . وكان القط مستمرا في عدم تجرئه على البول وكان يكبت رغبته في ذلك كبتا بلغ حدا صار معه يظلع في مشيته . وكان مع ذلك يغفو من وقت الى آخر غفوة قصيرة ثم يستفيق . أهو حب الكسب والربح ؟ أهو الطمع واللهفة على الانتفاع ؟ انها الرغبة في القضاء على عادات أجدادي المانوية واسترجاع الابوّة المستلبة . وزبيدة هذا الزنا بالمحارم الزاخر هنا في متناول يدي . فتنتابني الشهوة من جديد ومن جديد ألجها . اقتحمها طفلا سيدا .

حمّارة القيظ سائدة بالخارج ولا بد أن يكون الناس قد أثقلتهم قائلتهم الندية ، وكان الشيوخ يلعبون بلعبة الدومينو في المقاهي الزنخة . الزنا بالمحارم . كنت اذ ذاك دفعا للتخاذل انتحل هيئات كهيئة الطفل وقد انكمش على نهد العشيقة السخية التي كانت تبدو لي في المنام في صورة قزم . الرجوع الى الجنين المبهم المعالم اللزج المتقاطر . ولكنه مع ذلك وثيق الارتباط بأحشاء الأم ذات الغدة الدرقية المريضة . كنت أخلط في فترة قمة الالتذاذ الجنسي التي يسيطر عليها الاختبال المجرد بين زوجة أبي وأمي : يمّا نقيض الزنا بالمحارم تماما ! يمّا ذلك الخنوع الذليل الدائم الصادر عن امرأة مصابة بداء الخزب . وكان هذياني لا ينفك يتفاقم مثله مثل الجرح القائح على أديم اللاوعي مباشرة وقد كشط كشطا واغتصب اغتصابا . ولا يبقى بعد هذا المد الا إحساس باللون الاحمر يخطف الابصار له اصداء تنتار حتى تدرك أذنيّ وقد بهرهما كمال تلك الدائرات الاهليجية الصاخبة الحامية . الشعور متفاقم عظمه الجنون المترصد . الهزات والانتفاضات . المعدة معقودة . وكان الخوف يستولي على نفسي عند مستوى السطح من وعاء بول زبيدة المبرقش باللون الاغبر . المستشفى . المرضى مصففون على

الكراسي وفي ايديهم القطط وعلى هيئتهم علائم من ينتظر القطار . ترى هل كان ذلك مصحة خاصة أم محطة قطار ؟ وهمزت العشيقة ملحا عليها أن تفسر لي سر ذلك . فكانت تطمئنني قائلة :

أجل انها مصحة خاصة بعلاج حالات الادمان على الكحول .

فأقول :

وهل رافقت اليها زاهر ؟

كانت لا تدري . فكنت أصبح لا أفهم شيئا . في البداية كنت لا أريد دخول ذلك المكان وبعد ذلك أصبحت لا أريد الخروج منه . وكانت زبيدة تلخص كامل القصة قائلة :

ان ما يستهلك نفسك انما هو العشق والعبادة !

وكنت انصرف بسرعة . كانت فترة ما بعد الظهر مشرفة على الانتهاء والحرّ ما يزال شديدا . وكانت هي تنظر اليّ وأنا ارتدي ثيابي وأركل القط برجلي قبل أن انصرف . أكانت ترتضي وجودي اجتنابا للمصاعب ؟ أجل وبدون أي شك لأنها كانت لا تخفي عليّ إعجابها بزاهر بينما كان زاهر يبغضها بغض العدو اللدود . وفي الخارج كانت الحرارة خانقة وهي علاوة على ذلك اختلاجية . وكانت الشموس العنكبوتية تبدو كأنها تزحف من خلال السحب ذات اللون الواحد . وكانت الشوارع ثقيلة الوطأة متهيئة تماما لتلقّي عارض من المطر كان يتباطأ في النزول لتطهيرها من غبارها وتوترها . بل كان من المتحتم أن يأمل المرء نزول طوفان كامل لشدة ما كان الجفاف يقبض النفوس ويغمها غما . وكان غشاء السماء المعادي يدخل التقزز والنفور في قلوب المارة القلائل . الحرارة خانقة ... واقتحمتها . وأحسست بالدفء بملامسة ذلك الجو الهلامي الاخوي . ولاقيت الرجال من جديد بلهفة لا مثيل لها : كنت خارجا من الكابوس .

كان عدد النساء قليلا : وكن يسرن ملتصقات بالجدران كالجرادات المطليّة بالكلس الابيض . وكن مترددات في مشيتهن كما لو كن في بحث دائم عن توازنهن الذي كان في الواقع غير ثابت جدا . وكانت الدكاكين والمغازات كأنها منهارة . وكانت ابوابها وقد أغلقت نصف اغلاق تبدو كأنها وجوه رجال عنيدة مشقوقة . وكان للكلاب لهاث منظّم بدقة واتقان كان من العسير على المرء ألا يقلده . الصنابير العمومية تصب ماؤها . وكان الاطفال يكدون ويجتهدون في حلبها . وبعد حين ستأتي بشائر البرودة . وكانت المدينة تنتفض انتفاشا ملؤه تهافت الأنين العديم الجدوى ، لم يعد في استطاعة جرأة المتسكعين العاطلين ان يوقفوا تقدمه . وكانت النساء الجرادات يتركن من جديد محارمهن فينسين انقطاع حيضهن ويترصدن بفارغ الصبر باعة الماء البارد ذي طعم القطران (يا لها من مرارة عزيزة على النفس) وزهر البرتقال . ويبتهل القوم الى بعض الآلهة المحرّقة خرقتها البرودة . وكان الذباب المرح المبتهج في دندنته يرتع ويجيّش على البطيخات الحمراء الضخمة وقد شطرت شطرين لاثارة جشع الشعب الذي كان لعابه يسيل لرؤيتها وذلك رغم السلح الذي باضه الذباب في قعر تلك الثمرة الحمراء . ان سكان عاصمة الجزائر لا يتصدقون الا مرة في الاسبوع وذلك يوم الجمعة . وبين الجمعة والجمعة لا يهتم احد بالمتسولين الذين كانوا يسبون الجلالة في سائر الايام ، ويستفزون رجالات الدين غير الآبهين بما هم فيه من ضيق وشدة . ولكن هؤلاء المتسولين اذا ما اعتراهم الخوف من وعيد المشائخ انقلبوا الى مردة أشرار كريهي الرائحة وأخذوا في جوبان شوارع المدينة في شراسة وفظاظة . وكان جميع الناس يخافونهم ويجتنبونهم . أما هم فقد كانوا يضحكون بصوت خافت ساخرين من سلطتهم هذه التي لا جدوى لها ولكنها كذلك لا تزاع فيها . كانوا يحترمون النظام القائم ولا يهجمون على المساجد الا يوم الجمعة بعد صلاة الظهر . وكان المصلون يسخرون منهم ويغالطونهم فكان الفقراء يطاوعونهم في ذلك

لأنه كان يطيب لهم أن يثمروا أموال الأغنياء بالدعاء لهم بالبركة .

رائحة الصوف المحروق ... تهدأ الحرارة قليلا بقرب الاسواق فتترك المجال لتحل محلها شبه ظلمة عتيقة منطوية في عقر الأزقة المتشابكة الواحد في الآخر والتي كانت تشرف جميعا على البحر . ان الذهاب لزيارة ذلك « القبّار » في دكانه المكتظ بآيات من العجائب والغرائب لاغراء خطير يجب على المرء أن يدفعه بسرعة : إذ كنت أخشى أن افاجئه في حالة غير لائقة ولو حصل ذلك لكانت تفسيراته وتعليلاته طويلة معقدة . كنت اذ أمر بالمقاهي العربية استنشق رائحة الشاي بالنعناع التي كانت تنغرز حتى داخل منخري . فتتحرك لها أجفاني حركات لا ارادية لا أكاد اتحملها . كان الفضاء أمامي مجرّد تناوبات بين العمى والانبهار كانا يتعاقبان بحسب هيئة الاماكن التي كنت فيها . وبدأت برودة الجو تبعث الحياة في خلائق العباد والحيوانات وقد بدأوا يتهيؤون للخروج من سباتهم الذي كان في الواقع سباتا لذيذا . وزادت البرودة بسرعة خاطفة في عدد المتنزهين الذين كانوا يجتهدون كادّين في التمتّع بها أطول وقت ممكن . ومع ذلك فقد كنت أحلم « بدوش » بارد صاخب وذلك لكي استبدل جلدي بجلد آخر جديد ولكي أمحو آثار بصمات زبيدة ! (ترى هل كانت لا تمّحي ؟) الترنح عند تذكر القصفة التي مرت . صدمة النهود وأثرهما فيّ . حيوية الابطين الفحميين . شبق حركة جموع الخلائق الخصبة التي كانت تحبس هندسة الاشكال المكورة لمناضد الباعة الخرقاء المضحكة . ركام من سقط المتاع ذو نتوءات تخترقه زوايا حادة وتليّنه دوائر ذات لونين (لون المغرة ولون الدم الاحمر) . وغدت المنازل مجرد فوهات براكين مقعورة في الهواء الطلق . كنت سعيدا وأنا اخترق الزحام المختنق حيث كنت اشعر بأنني انسان خاص على حدة ، وأنني رجل يدمر هذه الامة التي أحرقها كما يحرق الجصّ زناي بالمحارم الذي كنت اجره في دخيلتي .وكدت في تكالبي على اجتناب الوحدة ، كلفني ذلك ما كلفني ، أمنع حلقة الخلائق من أن تلفظني

فكنت أسعى جاهدا الى البقاء على اتصال بالجماهير التي كنت أضيق بها ذرعا فأزعزع من حين الى آخر خدرها وسباتها المعديين (ترى هل خطر على بال هذا الجمهور على الأقل وجود رائحة عشيقتي على بشرتي ؟) ومع ذلك فقد لزمت الصمت حتى لا أجعل من هؤلاء المارة اللامبالين مجموعة من الطغاة المتعسفين . وكانت الوحدة .

ـــ ليس في إرادتك اخذي الى المستشفى أي جدوى . فسأهرب منه وأذهب لمشاهدة الفظائع التي يقترفها زوج سيدة . (أليس يتسلى بحرق بطون اطفاله بطرف سيجارته المتأجج ؟) إن مشروعك محكوم عليه بالفشل ! ولن أذهب الى هذه المصحة التي مدحت لي مرافقها وطرقها الثورية في العلاج . وترى لم اذهب اليها ؟ الأولى أن تدعيني أقص عليك القصة ، علنا نتمكن بالتعاون معا من تعيين مكان الداء ومن استئصاله . سأغمض عيني وأعتبرك غير موجودة هنا كأنك لم تدس قدمك قط ارض هذه الغرفة الحقيرة . هل أنت خائفة ؟

ـــ نعم بالتأكيد .

ـــ أنت لا تريدين أن تكلميني كما يكلم الناس المرضى . فأنت تحذرين حساسيتي. وأما المستشفى فلن يجدي نفعا . فقد عقدت العزم على الفرار منه .

ـــ لن تكون هذه المرة الاولى ...

ـــ لست أدري . لعلي قد فررت في الماضي من احدى السجون .

ـــ من سجن ... أو من محتشد ...

— نعم .

وحنقت سيدة عليّ من أجل ذلك حنقا شديدا .
أعرف ذلك .
لقد كنت طفلا شرطيا أمنع الذكور من الاقتراب منهن واشتمام رائحتهن .
انها رائحة الشرف العائلي الخاصة المدفينة في قرارة النفس .
لقد وهبتني العشيرة ثقتها .
فتهت تيها وعجبا بأهميتي ، أنا زباني الزبانية .
كنت رئيس خان القوافل . وكنت الخصّي المغتر بخيلائه أحرس باب الحريم الثرثار . كنت الحارس الواقف على باب أمي التي كان يترصدها خيانة زوجها وتتربص بها الساحرات العجائز اللائي كن يختلسن المواليد ويبعنهم للنساء العاقرات ويبحثن عن الارامل ليستغللنهن في ملتقيات القصف والمجون التي يمكن أن تقام .

(وكنت أحيانا أحس بعطف وحنان كان ينبغي عليّ توقعهما . يا للأسف ! لقد كنّ مستعدات للتحرر من ربقتنا ربقة عصابة الاعمام وللانصراف الى أي مكان من الارض حتى ولو قادهن ذلك إلى غبيّ يبول ، وقد بلغ سن الاربعين ، في فراشه ، وظلّ متعلقا بأمه المهيمنة التي كانت تدلّله وتغدق عليه المرطبات التركية . وكانت سيدة تمقتنا . ولكن مفعول العادة سرعان ما أباد في نفسها كل ثورة . ولم يكن رفضها للكفاح الا تعريضا : فهي قد دخلت بعد في الشقاء . وكانت كل يوم تغيّر ملاحف الفراش الزوجي . ترى كم وضعت من طفل قد نجا في آخر لحظة من داء الاغتراب . لقد اقلعت عن عادتها القديمة عندما كانت تكشف عن صدرها من وراء الشبابيك المشرفة على دكان حلاق باهت اللون كان أصحاب زاهر يأتون اليه بين عمليتين من عمليات تدخين غلايين

الحشيش لاعادة ربط الصلة بالواقع . (ولكن لماذا الحديث عن زاهر ؟ ألم بت ؟) خلاصة القول اذن أنها حياة امرأة جزائرية طويلة ! الشرف ، البخور ، عمليات الختان ، المؤن المخزونة من الكسكسي و الطماطم المجففة والقديد ، وصلوات المغرب والعشاء وأشهر الصيام التي لا تنتهي والاضاحي ... وكانت هي ايضا قد تعودت على استعمال سبحة العنبر التي احضرها لها حموها من مكة حيث سيحج بعد زمن قليل حجته السابعة . فكانت تفرط في عرك خرزاتها بدل ان تمررها حبة حبة بين أصابعها بصبر واحتمال على غرار العجائز المتورعات . وكان لا يزال لديها متسع من الوقت لكي تنسج في بطنها منيّ مجنون . كان الوضع يقع كل تسعة أشهر في جو من الاحتفال مثل الحفلات الخيرية : كان جميع القوم يصرخون ، وكانت سيدة تبتهل الى جميع الاولياء الصالحين متوسلة اليهم بالاسراع في خلاصها . الحمد لله استنشاق تلك الرائحة الحادة الثقيلة لم يخنقها ؛ وتطفق الزنجيات في الزغردة للتبشير بنزول وحش جديد).

وكنت اذا فكرت في ذلك أخذني الأرق . انها أخلاط زاخرة كانت تتركني في شبه ذهول وقد توهجت أحاسيسي من جراء السهر ودخلت في الاحتضار .

السجائر لا يحصى لها عدد .

المدينة خضراء كالنحلة الطنّانة الضخمة تصر صريرا .

وكذلك حدة صرير الجراد وقد جنّنه نور القمر الساطع . أن أضع نومة على عرض جلدك .

وأن أجـ ــ وّ ــ لها الى أن أصل الى استيقاظة مدينة القصدير ؟

ان جنوني ليبرز عند مستوى وعاء بول ليليّ قرمزي مصبوغ بالفوّة لونه لون السياط. أكان وعاء بول لمحته في غرفة أمي ؟ أم وعاء لزبيدة ؟ (كانت كسولة لا تريد مغادرة غرفتها وكانت قد حاولت أن تفعل كما يفعل الرجل

بأن تبول في « اللافابو » ولكنها منيت بالفشل فحنقت عليّ بسبب تفوقي عليها في تلك القضية) أم هل كان مجرد وعاء القط المتسكع في الحديقة التي اكتسحتها الاعشاب الطفيلية ؟

إرادة حملي الى المستشفى غلطة كبيرة .

الغليونات تهشمت ، والسجائر نفذت .

كمون عانة ، مثلثة الاضلاع .

وكنت وقد دخلتك من جديد تستنجدين بالابتهال الى الشبق الماكر، شبق أحد المتاجرين بدوية الخلد .

وكان خضاب جفونك يسيل على نصف اسطوانة كنت أجتهد في اعادة وضعها على الاكتروفون الذي استعرناه من احدى صديقاتك .

ترى أين لاقيتها هذه الفتاة الاروبية .

لم أكن أعرف أي شيء عن ذلك الموضوع .

كنت في غرفتنا الحقيرة المنحنية السقف أقص عليها حياتي وكنت في ذلك كمن يرحي القهوة (وفي الواقع فقد كانت سائمة) .

كانت احشائي ملتصقة بجوانب دبر لم يغسل كما ينبغي (كنت اسلك طريق الدبر وذلك اجتنابا للحمل) .

انها الضرورة ضرورة تبليغك متحركا قابلا للانعكاس ، وهو والحق يقال متحرك ثقيل الوطأة ، وضرورة الاستمرار في مسكك هكذا طيلة الليل بدون انقطاع . كان من الواجب عدم الغشّ ولقد كان لزاما عليّ اذ كنت ترغبين فيّ أن أدخل فيك سم تلك القارورة من الجنون التي تباع في الساحات العمومية وفي الدواوير بجهة « عين بيضاء » و « سدراته» .

وهكذا فقد كنت انقل إليك أنت ــ أيتها الاوروبية الساقطة من قارة لا يعلمها الا الله ــ عالما ملؤه في نظرك الافراط والمبالغة .

ستبرز المدينة من جديد . خفش البصر بسبب الخطوط التي تحدث فوهات براكين على القمر .

وستكون لك هالات ملء فيك .

ويبرق فرحي العالق العنيد وقد عضّه فكّ عربة من عربات الترام كانت نقلّ بائع اللبن تحمله الى غرفتنا الحقيرة حيث كنت أحبسك لكي أقص عليك كيف كانت أخواتي يحبسن .

ياسمينة (كانت وقد أوشكت على الاندهاش قد خاطت لي سروالا مضحكا يوم انصرافها الى السجن الآخر وقد زودت بمهندس فلاحي سجان) .

السعال الموشم

يصدر من حلق احد عملة الرصيف وقد انصرف باحثا عمن يشغّله وقد ملئ « كيفا » يسد الثغرات الصاعدة الى مستوى فراغ الحلم مباشرة بدون أي فرقعة ولا انفجار .

انه داء الشرث (وتتحول النساء الغربان ــ نساء مقابر مدينة قسنطينة ــ الى طيور نورس بيضاء وهن يهيّئن الكسكسي في منازل البورجوازية وفي مساكن من حظوا بالترقية الاجتماعية من افراد « التعاون الفني » من المتعاقدين الاجانب) .

التفاهة .

ــ تريد سيجارة ؟

ــ نم الآن

ــ لست في حاجة الى النوم ...

غدا أقص عليك ، انه تناعس يجب ملامسته من جديد

وستكذب يقينا عندما ستحاول أن تجعل من العانة المثلثة الخضراء منبعا من منابع اللامبالاة .

وكنت لا أحب المعادلات وذلك لأن التعزية العتيقة تعزية الأم ــ الاخت ــ العشيقة ــ المريضة بغدتها الدرقية ' (ترى ما العلاقة بينك

وبين هذا ؟) ماتزال بمثابة مأزق مرصع بالألماس يقطع الحلوق الحامد الحرشاء .

مجنونتان هاتان البيضتان المخضلتان النديتان في حين أن المدينة باردة .

باردة مثل سحور بمستودع الجثث المجهولة الهوية

ثقبته أوارق العنب الرفيعة التي كان يستعملها للسحر زنجي كنا أنا وأمي نذهب إليه لاستشارته بدون علم أبي ، وكان « يتخمّر » ويدخل في نوبة جنونية بعد أن يشدّ على رأسه بمنديل متعدد الالوان . كان مقامقا مهنته رفع القذرات بالشوراع ويستعمل قائلاته لسلب أموال النساء واعدا إيّاهن برجوع الزوج الضائع . ترى ماذا كنت تصنعين ؟

شعور بالحاجة الى النوم . كنت تقولين ذلك (ولكنك لا تفعلين شيئا) .

كنت تحاولين في الليل الأليل البهيم اذ لا يطفو الا بصيص من النور الأحمر يحيط بطرف سيجارتك المتأجج، تحاولين تبيّن معالم هذه القصة الغامضة التي ورثتها عني مذ عرفتني والتي بدأت تميزين ثقلها ولا واقعيتها . وكانت النجوم (ولم يبق منها في السماء الا القليل لأن ضوء الفجر يوشك بعد حين أن يلامس كتفك الفرنسي) كانت تبدو كأنها أشد حيوية .

أن تمنع السلاحف من أن تدبّ دبيبها بمثل ذلك البطء وأن نطرد جميع اليعاسيب ذات الاجنحة المثقوبة ثقبتها عثث خزانة ملابسنا البائسة .

لعل بعض الكلمات قادرة على اخراجي من قميص المجانين

بالله قولي لي : ترى من هو المجنون في الواقع !

كنت إذ ذاك أتركك واذهب فأقف في الصف على ابواب المواخير المليئة بالبق وبيدي قرص من أقراص التليفون (عارية كانت الغرفة وكان بها كانون محمر الجمرات كان يسخن عليه شيء من الماء مجعول لغسل الزبائن ولتدفئة تلك الغرفة الباردة كالثلج ، وكانت على الجدران صور لبعض النساء العرايا قصت من بعض المجلات المختصة بمذهب العري . وكان هناك حوض

لغسل الآنية وسرير وكذلك كرسي كانوا يضعون عليه الثياب لانعدام معلاق . وكان العرق يتقاطر من جسمي رغم البرد القارس وكان على الفراش منشفة ملطخة بالأدران مبسوطة عرضا . ترى أيمكن تجنب النظر الى حوض الاغتسال ؟ لكنه كان الشيء الوحيد الذي كان يلصف في تلك الغرفة : انه أداة عمل تعهدت بالرعاية والتنظيف ، وكانت تفتنني مثل المقصلة . وكانت القحبة تجلس عليه مفرشحة رجليها وكنت أشعر شعورا واضحا وهي تغتسل ببقبقة الماء بين يديها وفرجها . ثم اضطجعت بعد ذلك على الفراش وقد وضعت اليتيها فوق المنشفة المبسوطة بالضبط ثم رفعت ساقيها . وفجأة وبدون أي فترة انتقالية كان الفرج الضخم يبرز محزما بسيور لحماته المسترخية الغائرة ومشققا بالشعرات والطيات . وكانت تخرج نهدا منهوكا . وكنت دائما أخلع ثيابي ... ثم انظر بين ساقي تلك المرأة العمومية وكانت مصرة على رفعهما في الهواء . وكان في أعلى الفخذين وبقرب عضو الشهوة صفيحتان من اللحم الأسود كان بينهما وبين بياض الساقين السمينتين جدا تنافر في اللون . انقطعت اذ ذاك عن الرغبة في الفعلة وعدلت عنها . مشكلة رباط حذائي الذي لم أوفق الى حل عقده ! فكنت اجتهد في ذلك بدون جدوى الى حد الشعور بالألم في اظفاري . وكانت تلك المرأة البدينة تتململ وقد فرغ صبرها من تحت ساقيها وهي مازالت رافعة اياهما في الهواء ولم أتجاسر على أن اطلب منها خفضهما ولا على أن أقول لها إنّ وضعها على تلك الهيئة كان يبعث في رأسي الدوار اذ كنت اخشى اهانتها بذلك . كان من المتعذر عليّ أن أخلع حذائي الأيسر وكنت اشعر بالخجل بسبب عريي وعرقي المتصبب . واصبحت تلك المرأة العمومية تحتج احتجاجا سافرا . وكان الزبائن في الخارج يتململون من نفاذ الصبر . وكانت تقول : « أفّ لك ايها الشقي ألف أف ! » ثم تأتي لنجدتي فتقرر الذهاب للبحث عن مقص وتأخذ في نبش جاروراتها بأصابعها وقد تدلى منها ضرع مسترخ . فكنت اغتنم تلك الفرصة

فأرتدي ثيابي من جديد بسرعة وأعتذر لديها وأدفع لها الثمن وانصرف . لم تكن تفهم من ذلك شيئا !)

كنت بيديك الملتهبتين تبعثين الحياة في تلك القوة المجعولة لاقتحام الابواب.

ترى ما العمل !

كنت دفعا لارتكاب الخطيئة مع زوجة الاب أقهقه قهقهة وسط تلك التلميحات الصباحية المكررة التي كانت توافق فترة الصلوات الهذيانية عندما كان الرجال يتظاهرون بكونهم صردين وذلك لاخفاء غمهم وأساهم. وبعد حين وبمجرد ما يطلع الصباح ينبغي أن تصحبيني الى المستشفى (اذ يجب أن نرفع هذا الالتباس) . ترى كم كان عددنا ؟ لقد كنا قبيلة عملاقة تشتت فيما بعد ذلك ولم يعد في قدرة أحد أن يعيد ائتلافها ! وقد مات زاهر ومر على موته قرون وقرون بعد. وأما ياسمينة فهي تحتضر الآن في مستشفى آخر. ومازلت الدار الكبيرة في حوزة سي زبير ولا بد أنها تؤوي عما من أعمامي قد عاد ناجيا من الحرب.

وفي الواقع أنت خائفة مني. واعترافك بذلك لن يكون فيه حل للمشكلة ولن يخفف من احترازك مني. ان الذي تريدينه هو حبسي داخل هذا المرض الخرافي الذي اختلقته اختلاقا لكي تتمكني من التخلص مني ومن وقاحتي : لقد كنت اخفيت جميع شفرات الحلاقة ومدية المطبخ الوحيدة وانقطعت عن ارتداء جوارب النيلون. ولكني لم أفكر في خنق نفسي لأول مرة الا عندما رأيت ساقيك عاريتين بدون جوارب (ترى بماذا كنت تريدين أن توحي إليّ بالضبط ؟) يا لك من اضحوكة وانت تنظمين مثل هذا الاخراج المسرحي لدفعي الى الانتحار !

ـــ لم يكن ذلك في الخلاصة الا وسواسا في صدر من ارتكب الخطيئة مع زوجة أبيه ؟

ـــ لا لم يكن حتى ذلك، اذ لم يكن هوسا حقيقيا ولكن رأسي كان يتضاءل ويتضاءل الى أن صار مثل النقطة المضيئة الكثيفة الحرشاء.

الماء عكر (أصبحت لا اتجاسر على الاغتسال به خوفا من أن أطفىء كل شيء) . انه الألم الكثيف ينبع من منفجر ماء كريه الرائحة. خرطوم فيل. فكنت أجتنب حدائق الحيوانات والحدائق العمومية فأمرّ بجانبها حتى لا أصاف قردا سيء الخلاقة (اذ لو حصل ذلك لكان من العسير أن ادفع الشعور بالتشابه بيني وبينه. وبالتالي أن اجتنب معانقته !) . ان الاستمرار في الحوار شيء عقيم لأنك ستقولين لي وأنا فريسة لهوسي المثير للغيظ إنني لا أفعل شيئا سوى الهذيان ومناجاة النفس وانا ملتصق بطرف بطانية تشيكية الأصل قد بدت لحمتها من شدة بلاها (انها قصيرة جدا هذه البطانية ذات لون الحرير الخام والتي اجتلبت من المحتشد) كنا نشعر بالبرد يلسع ارجلنا بدون انقطاع. أنت لا تحبين هذه الصورة صورة الارجل المقطوعة : والواقع أن الغرفة هي الباردة كالجليد : ان زجاجة الشباك اليمنى قد تهشمت فأصلحتها بأن ألصقت قطعة من الورق المقوى بشريط من السكوتش. ولم يثبت طرفه كما ينبغي بسبب الرطوبة. انك تنتظرين دائما فصل الصيف ولا تصدقين بقساوة فصول الشتاء بالجزائر. انها فكرة أخرى من الافكار المسبقة المتحجرة ! ان بلساني تشنجا أحدثه هذا الصراخ العالي الذي أحاول بواسطته أن أقص عليك الوقائع المضحكة في حياة عائلة بورجوازية ظلت عالقة بألفاظ القرآن التي كانت تهدهد طفولتي المقلوبة رأسا على عقب. كنا ننهض من الفراش على الساعة الرابعة صباحا فنذهب لنغفو في غرفة صغيرة هي حجرة سيدنا ذلك السيد المصاب بحمى المستنقعات، ونبول على حصر كانت تجرّح أفخاذنا وذلك تجنبا لطلب إذن بالخروج كنا نشك في نيله فلا يسعنا الا أن نتمدد على الجناح الازرق جناح طائر الخرافة الميت. فكنا عند ذاك نطفق في القهقهة والهذيان إلى أن يبرز احمرار نقطة أفقية كانت تبشرنا بساعة الخلاص. إنني أكرر

وأكرر قصتي وأمنعك بهذا التكرار من أن تعلقي بأهداب النوم المرخصة ومن ان تتيهي وقد هدهدتك هدهدة حلوة الحماقات والمآزق الكامنة في صوتي وقد صار ذا نبرات مرتعشة كصوت العنز من جراء الأرق (وأزيد في تدخين السجائر!...) لقد أريتك يوما صور ياسمينة وكنت جالسة بقرب السرير فتربعت وتأملت فيها طيلة ساعات. فتانة أختي ! لقد ذهبت في سيارة مزّينة بالشرائط الملونة زعّاقة الأبواق. كانت المدينة بأكملها على علم بالأمر. بالحماقة هذه الأعراس البورجوازية. ان ابواق السيارات كانت تنبىء بافتضاض البكارة الدامي ! وفي المقاهي كان الناس يقفون ليحكموا النظر الى الركب في زحفه نحو ليلة الصدق، ستبكي أختي اثناءها وتنتحب وسيضيع دمها. ورغم ذلك كنت في انبهاري الصبياني أتمنى وضع حراسة مشددة عليها : كانت ياسمينة رائعة الجمال وكنت أخشى على العشيرة من العين (لقد كنت تقولين معجبة : ما أروع عينيها). ولم ينبنا في حراستهازوجها بل حماتها. كانت حارسة باحدى مستشفيات المجانين فاكتشفت فورا عند ياسمينة نزعة الى تعاطي السحر والى التظاهر والتصنع فاعتبرتها مريضة ولم تكلمها الا وقد ارتدت بلوزة بيضاء ووضعت على رأسها طاقية الممرضات.

ـــ والزوج ماذا كان يقول ؟

ـــ في الحقيقة لم أكن أعرف عن ذلك شيئا. الا أنني كنت أظنه متواطئا مع أمه وذلك لأن عملية ازالة بكارة أختي قد أتعبته تعبا كبيرا فساعدته أمه طيلة شهرين حاول فيهما محاولات باءت بالفشل. ونصحته حماته. وكان أصدقاء العائلة مفجوعين كمن أصابتهم كارثة وتحدث الأعداء همسا فعزوا الامر الى قصور الزوج. وأما يمّا فقد كانت تخشى شر أذيّة فذهبت لاستشارة عدد لا بأس به من المشعوذين المريضين بالأعصاب ولكن بدون جدوى. وقررت الحماتان أن تخضخضا الماء في مهراس

كتبت عليه سورة من سور القرآن ولكن القضية كانت تحتاج الى ليلة يكون بدرها في تمامه. ولما كانت احوال الطقس فاسدة باستمرار فقد عدل الجماعة عن تلك الطريقة وركنوا الى أختها : أن يبوّلوا العروس الجديد على سيف متأجج نارا يملكه أحد الاولياء الصالحين. وفي نهاية الشهر الثالث حدثت المعجزة. فأقيمت احتفالات جديدة وعرضوا على رؤوس الملا قميصا ملطخا بدم بشري. وكانت ياسمينة قد اصبحت ممتقعة اللون شاحبته. يجب تسخين ما بقي من القهوة من جديد. آه من بلادة هذه البطانية ! الأرجل جامدة من البرد. وأخذ ياسمينة الهزال : انها الاحلام الثخينة. كانت خائفة. وألقت عليها حماتها «للّة عائشة»سحرها المؤذي فضربها مس من الجنون فحبسوها في قسم من المستشفى كانت حماتها تعمل به وكانت ياسمينة تمقت العصا التي كانت حماتها تسيرها بها. وراسلتني أختي فقالت :

«انه لسيل من الدماء. انه الزنبور في أبدع معالم الزينة لونها لون النار. إنني لأجول جولانا وسط نشوات لم تكن في الحسبان قط. لقد اغتصبوني على الكرسي وهم يجرون علّي عملية الصدم الكهربائي فهدأ غيظي. انه التّبر. إنه الجحيم خلال الفخذين عرضا. وعوض أن أموت من الخجل اخترت الرقاد وسط كدس من اللحم المسترخي لحم ممرّضي الدميم الفظيع البطين. كان من أصل تونسي يتقن العزف على العود الى حد الابداع. تلاقينا خلسة في احدى الليالي. نهدان سليمان كان يعشق عركهما وليال من الندم الفظيع. قل لي يا رشيد ترى ما العمل ؟ . لقد عشقته وهمت به ففغرت جسمي من جميع حواسه وكان يغمى علي من شدة الحب بمجرد ما اسمع وقع خطى ممرضي الحبيب.

إنها أخت مسخت مسخا. وكنت لا أريد أن أصدق بذلك لأنها كانت في السابق دائمة الخجل والعفة. وفي يوم من الايام غادرت

المستشفى ورجعت الى دار يمّا لأن زوجها لم يعد يرغب في تلك المجنونة السحارة. وقضت فترة في النقاهة والابلال فشحذ ذلك من رهافة حسها. ولكنها نسيت جميع اسماء آلات الموسيقى ولم تكن قصة الممرض في الواقع الا محض خيال.

ـــ وهل كان لها عشاق خرافيون آخرون ؟

ـــ لا. وانتكسها المرض فاستبدلت عشيقها بعشيق آخر (ان ملايين من البغايا يردن الدخول في بطني. انني خائفة. ينبغي أن يدخل البحر من جديد في فرجي حتى يخفق ماؤه) . وشفيت مرة ثانية وأوت بصورة نهائية الى دارنا حيث ماتت فيها بمرض الخياطة (وكانت تمقت الخياطة مقتا) وبحمّى الامعاء ولم تعش أكثر من واحد وعشرين ربيعا.

المستشفى . أشجار البغونية في الحديقة . النوافذ مفتوحة . الممرضات المصابات بنتوء عروق السيقان يتجولن تائهات ويحذرن المرضى والعقارب الهائجة المائجة تحت الأسرة . انهن خائفات ولكن كان الاولى بهن ألّا تكون لهن سيقان على الاطلاق بدل أن يشنجن أعصاب المرضى بانزلاقات خطاهم المختلسة . ترى ما الغاية من هذا الذهاب والاياب في رفق منافق متكلف؟ إن نشاطهن لا جدوى فيه لاسيما أنهن في مأمن من كل خطر : فإذا وقع أي حادث تدخل رجال متوارون وراء الابواب وأخمدوا كل محاولة انتفاض . ها هو ذا يترنح : انه مريض داخل وكأنه ناسك قد أفاق من تخميرته . واذا ما مددوه على الفراش فإن هذا المريض الجديد يفقد كل أهمية بالنسبة الينا فلا يبقى لنا الا البحث عن شيء آخر يشد انتباهنا . أشجار البغونية إنها تبدو ذات موقف سلبي . العقارب ؟ انها لا تنفك تدور وتدور في حلقة مفرغة ولا يمكن للصوت الذي تحدثه عند اصطدام بعضها ببعض أن تدركه الا أذن خبيرة . وتصدّر طبق مليء غلالا على الخوان الصغير المشدود بالبراغي الى سريري : اذن فقد جاءت . أن أضبط بالتدقيق ساعة قدومها أو ساعة انصرافها أمر فوق طاقتي . أن

أتذكر ما قالت لي أمر يتطلب مني جهدا من شأنه أن يتركني مرهقا منهوك القوى طيلة الاسبوع . البشرة تتلصق . والشعور بأنني قد غيرت جلدي باستعمال دواء ملين من المحتمل أن يكون الطبيب قد أعطانيه خفية لأن القانون يحظر مثل تلك الطرق من العلاج : كأن تبدل جلدك . لا فائدة في أن أتذكر ساعة قدومها ولا لون فستانها . أنا لا أعرف الا اسمها وهو « سيلين » . وكذلك أعرف رقم سيارتها وهو رقم خاص جدا . انها كثيرا ما تعودني . وكان الطبيب يرخص لي في الانصراف معها لقضاء نهاية الاسبوع . وعند ذاك نأوي من جديد الى الغرفة الدميمة ونستعيد البطانية المخلولقة . وسرعان ما أشعر بالحاجة الى الرجوع الى المارستان وذلك رغم أنني قد قضيت الليلة مرددا أنني لا أريد العودة اليه . لم يكن بالقسم الذي أنا فيه أقمصة جبرية ولم يكن أحد من المرضى يصرخ . ولا شيء سوى الممرضات ينغص علينا لذتنا وراحتنا . انهن دميمات الخلقة ودأبهن الدائب المستهجن تجفيف مناديل مخاطهن على حافات شبابيك القاعة العامة الكبرى . وكنت ترى على وجوههن عجرة تضفي عليهن هيئة ثابتة من المناعة والصرامة . إنهن مرعبات حولاوات قرديات الهيئة هزيلات كالأفراس . وكن يعتبرن أنفسهن شهيدات لأنهن كن يعالجن جماعة من المجانين . كان بين احداهن وبين «للّة عائشة» حماة الفقيدة أختي شبه غريب . انها تجتنب النظر اليّ ، وكنت أفعل كفعلها . ان ابنها قد تزوج من جديد منذ عهد قريب (كيف علمت ذلك ؟ لا أدري والله !) الارتعاد ... والاختلاجات ... والعرق يا أماه ! وكانت المدينة تصل الينا في صورة ضرب من الضجة لا تدرك باللمس مفرطة في القوة . وأما الصيف فقد كان متأبدا صادرا عن البحر وأما نحن فلم نعد ندري ماذا نصنع . يا «سيلين» أذكري لي بتأنّ اسم المدينة التي أنا بها واسم البحر الذي يحيط بها ... ان الاطباء يرفضون أن يخبروني بذلك تعللهم أنني أتصنع الجنون .

اليوم هو « يوم الكراسي » يراها الرائي تبرز كما لو انبثقت من الارض . انها كالحة الهيئة مرتبة في صفوفها أحسن ترتيب ملتصقة تماما بذلك الجدار الجموح الذي سيستعمله المرضى بعد حين لحك ظهورهم وللقهقهة قهقهة لا تنتهي . ان ذلك يخرجني من طوري بنفس القدر الذي يثير به غيظي ذلك الطبيب الذي له عينان لا تشبهان عيون سائر البشر . (بل قل أتراه له عينان ؟ الله ورسوله أعلم ! انه يخفي عينيه وراء نظارتيه ذات الزجاج الباهر الذي يعكس صورة كل شيء موجود بالغرفة التي نحن فيها (المكتب والمنضدة والارائك والجدران والالوان والنباتات واللوحات الخ) . وفي خضم ذلك الخليط المنظم القاسي تخزني صورتي الشفافة ، (كان الموضوع آنذاك أن ننصرف باحثين عن شرذمة من الناس قد مزقهم الرقص وكرات المدافع فتواروا وراء أخدود هائل عجيب في فج مقفر كانت الأمارة الوحيدة عليه نفقا سوده الدخان وحظر على الارتال المرور به وتتبة فيه ذاكرتي . كنا كامنين متسترين ثم لا نلبث أن نبرز بسرعة فنستوي قائمين نفعل ذلك كله لاهثين في هذيان جنوني ملؤه الزعرور والحصى . وكانت البنادق ترصع مسيرتي وكذلك رائحة الدم الكثيف الهرهار المتدفق خطًا مائلا من حلق لعله حلق أحد حراس الغابات الكرسيكيين . واذا ابتلّ زادنا وتلطّخ حرمنا من الأكل مدة أيام وأيام لا لانعدام الغذاء وانما الذنب ذنب ذلك الفقيد الكورسيكي ذي الشارب الغليظ والذي كان بطنه السمين الزغب لا ينفك يناوش كوابيسنا ويعفن حتى جو المغارات التي كنا مستترين بها . ولن يستقر لنا قرار حتى نقتله عشر مرات بل عشرين مرة . الا انه يبرز الى الوجود من جديد عشر مرات بل عشرين مرة من أعماق تعنته التليد ، ويرسل وراءنا سيلا من الافاعي ودود الارض فيضّر بحدباتنا التي اضحت لا تطاق ونحن على جنبات الهضاب حيث كان الرجال الورديو اللون يطلقون مقهقهين ساخرين من لا مبالاتنا المتصنعة . وكنا بدورنا نتقاطر دما ولا ننفك عن تحريض جماعة بنات آوى الى حد أن سوء التفاهم

المتكرر كان يسبب لنا داء الحكاك ، وكان شيء من الشمس يتساقط من حدود الخراب الحادة وكانت على حدتها تجلب معها ذلك الابهام والغموض الضروريين لبقائنا على قيد الحياة ؛ واذا ذاك يشمل الليل الهضاب وتصير الحصوات الملساء باردة رغم الحيات القرناء التي كانت تديم الى الأبد مداعباتها الغرامية المنحرفة والتي كان يلذّ لنا على كل حال انقطاعها . وفي تلك اللحظة لم يكن أي انعكاس لذلك العدم الخاطف الضارب الى الزرقة يبلغ الينا ؛ إلا أننا كنا متيقنين من قرب البحر الذي سنتمكن بعد حين من أن نريح على شاطئه أرجلنا التي أدمتها مسيرتنا المرهقة .

الارتعادات ... الآلام . اليوم المشؤوم . الكراسي ! لم كل هذه الكراسي ؟ وكنا على كل حال فخورين معجبين في قرارة أنفسنا بسبب هذا الاشهار الذي كنا محلا له . هل كانوا من الطلبة ؟ أم من الصحافيين ؟ لم يكن لاعتزازنا حدود ؛ ولكن العرق كان يغرق راحة أكفنا ويزيد في حيرتنا وبلبلتنا ذلك لأن في الامر اعتداء على ضمائرنا التي بقيت في حالة خدر وقد رسخت في بدائيتنا المهلسة . وفي ذلك اليوم كان على كل واحد منا أن يغتسل اغتسالا كبيرا فكنا نتهاتف ونحن نزخرف أنفسنا، وأما الممرضات فكنّ يخرجلن في مشيتهن خلال الممرات الفاصلة بين أسرتنا وذلك لاجتناب الوقوع في الحب من أول نظرة ولو حصل ذلك لما استفادت به فروجهن في شيء قطعا بعد أن شاخت تلك الفروج وتعطشت لفكرة الموت الداهم العنيف، فقد كنا عاجزين عن الجماع وكن بذلك عارفات حق المعرفة وقد أتخمننا بمادة البرومور . وكان الحفل يجري على أحسن وجه . ولم تكن الكراسي لتكفي فكانوا يضطرون الى الذهاب لاحضار كراسي أخرى، فكنا نغتنم تلك الفرصة فنتيه في متاهات الأروقة ونذهب للنظر الى أنفسنا في المرايا اذ قد لاحظنا منذ حين وجود بعض الصبايا المكتنزات اللحم وقد تراءت لنا طيات أفخاذهن السمينة المغلفة بالنيلون . وعندئذ تبدأ اللعبة :

كانت الغاية تسلية جمهور متحمس، فكنا وقد شحذ عزائمنا اهتمامهم بنا نطلق في هذيان شبيه بالحلم لا يخطر على البال . وعبثا كان الطبيب قد حذّر تلامذته بأننا كنا نبالغ ونزيد عمدا . فلم يكن ذلك ليضايقنا مضايقة مفرطة ؛ بل كنا بالعكس نشعر بفرح لا يفنى لاننا أدخلنا في أذهان الجالسين على الكراسي بعض الشكوك المؤذية في قيمة أستاذهم الحقيقة ولأننا نقلنا إليهم عدوى قلقنا الذي سيظل عالقا بهم مدى الحياة. وكان الجو داخل القاعة شبيها بجوّ الحفلات الخيرية . وكان يبلغ ذروته عندما يشرع الحاضرون في القاء أسئلتهم علينا . وعندئذ كانت نقاشات طويلة تجري على سطح عري تفكيرنا مباشرة على أننا كنا نودّ لو كان تفكيرنا تفكيرا معقدا لا معقولا . فكان مخاطبونا يصيبهم الارهاق . وأما نحن فقد كنا في مستوى المسغبة التي أخذت تنخر رؤوسنا : كان من اللازم أن نقحم من جديد في كل واحد منهم بضع قطرات من الجنون مقترين في ذلك تقتيرا . وكان الضجيج ودخان السجائر ووجه الطبيب النفساني العديم التعبير واضطراب المرضين المحموم وقد اشتد بهم الغيظ اذ رأونا نعرض أنفسنا فرجة للمتفرجين وأوجه الطلبة الغبية الحمقاء والشبق الكامن الذي كان يرصع ما بين بعض النماذج الجميلة من المرضى وبعض الفتيات المتعاطفات من علاقات، كان كل ذلك يمكننا من التحليق كما لو كانت لنا اجنحة فكنا لا ننفك ننظر في شموخ من أعلى شذوذنا، وهو شذوذ أثرى وأغنى بكثير، الى هؤلاء الخنافس ذوي اللعاب السائل الذين جاؤوا يتكسبّون على حسابنا بضعة احلام مغصورة بين الواقع والابهام وذلك ليتحصلوا على بعض الديبلومات الخزعبلات. ولم يغب ذلك عن الطبيب فقد حدّد تلك الحصص بساعتين في الاسبوع !

الاروقة الفارغة . والفضاءات المزورّة بعنف على بلاطات الارض . والأوجه المتحمسة . لقد قطعت الصلات نهائيا . أذكري لي في غير عجل

اسم المدينة التي أنا بها . وكانت الأيام الموالية ليوم الكراسي عسيرة كأداء : بعضنا كان لا ينهض طيلة اليوم . وأما المصابون بالسوداء فكانوا ينتحرون الواحد تلو الآخر . وأما الممرضات فكن يطاوعن خانقيهن فيخنقن بدون أية مقاومة . وأما أنا فكنت انتظر قدوم الفتاة الفرنسية التي كانت تجيء لي بباقة من الزهور في كل مرة تزورني فيها وتقدمها لي على مرأى ومسمع من الفلاحين الريفيين فكانوا يتضاحكون لذلك طيلة الاسبوع بدون انقطاع . كنت انتظرها لكي أعرف اسم المدينة واسم الشارع الذي به ذلك الكوخ الحقير الزاخر بالكتب والمزين بصورة تمثل شخصي مرتديا زيّا عسكريا أخضر كلون الزيتون . كان من الضروري أن أعرف ذلك لأنني كنت أشعر بصلة أخذت تنبثق من قرارة نفسي صلة عسيرة التأكيد بين دخولي ذلك المستشفى وبين تلك المسيرات المرهقة التي سرتها في سالف الزمن بحثا عن مكمن أو مورد ماء أو كوخ من شأن أهله أن يقروني بكثير من التردد والتحفظ .

لقد جاءت ، لقد ذهبت بدون أن تستطيع مدّي بأقل علامة اهتدي بها . وكنت أظن احتمالا أنها تعرف كل شيء وانها متواطئة مع الطبيب الذي كان لا يؤمن بصدقي . وبدأت أيضا في التساؤل لمعرفة هل أنني لم أقتل أحد اولائك الرجال الورديين ، حينما كان مجتهدا في نظم الشعر ، عن نية وقصد . ان هذه الصورة لمضحكة صورتي التي أقحمتها بيديك في حزّة تلك المرآة المعلقة فوق المدفأة ! فكانت تجيب قائلة : ومضحك أيضا منظرك بهذه القبعة الادغالية التي تحملها في هذه الصورة ! (كان دأبها اهمال ذكر الدقائق والتفاصيل) . وكانت الليمونات التي جاءتني بها تنتفخ بمفعول الحرارة وتخطط عيوننا وجفوننا . وكنت قد لاحظت على بشرتها تلك السمرة التي يحدثها البحر على الجلد . وكانت تجيبني بأنها كانت ترتاد كل يوم تلك الشروم الصغيرة التي كنت قد عرفتها بها وأنها كانت تتمكن هناك من الاسمرار في الشمس ومن برنزة جسمها كاملا بدون أن تتعرض الى

مضايقة أي مولع بالنظر الى النساء عاريات . فكنت أهمهم معبرا عن توقي الى الذهاب الى تلك الأماكن من جديد لكي ألتهم جسدها فكانت تصوت لذلك وتقوق مثل الدجاجة من اللّذة . وفجأة كنت ألفيها في نفس الوقت سوقية ليس لها قدر كاف من الشبق الشهوانية . لماذا كانت تضحك هازئة ؟ لقد كانت تبعث في نفسي حنقا لا يطاق . فهل كانت تضحك لأنها كانت لا تتصورني على شاطىء احد شروم البحر بعد الخروج من الوضوء الأكبر ؟ المستشفى المجيء والذهاب . الليل الكئيب . حشرجة الحلوق . صوت دفّاقة ماء المرحاض أصوات الممرضين الكامنة وقد أرجعتهم رقة المساء الى النظر الى الأمور نظرا أشد هدوءا ووداعة . أشجار البغونية . الريح بالحديقة الكبيرة . كلب بالفيلا المجاورة . كانت الاضواء زرقاء معلقة في السقف . أنين بعض المرضى المساكين : من المستحيل أن أركز تفكيري !

لقد قالت لي اسم إحدى المدن. فعلت ذلك خلسة وكادت تفعله مع ذرة من الحياء في صوتها. ترى هل كان ذلك بسبب فكرة الياسمين التي كانت توحي بها تلك المدينة ؟ أم بسبب زلزال يقال أنه دمرها منذ بضع سنوات ؟ لم تهتد الى جواب ولكي تخفي ارتباكها أخذت في الضحك مثل الحيّة غير المؤذية. وعندها انفجر احد رفاقي ووبخها بشموخ وأمرها بالسكوت. فقالت ويدها تبريش في شعرها كما لو كانت تبحث عن مساك شعر مفكوك : « يا لكم من مهوّسين ؟ » . وكان أغلب المرضى يجهلون الفرنسية ولكنهم كانوا كلهم يضحكون من انفعال عشيقتي الفرنسية التي كانت تعودني وتأتيني بالازهار والثمار وبمقتطفات للكاتب الفرنسي « آندريه جيد » يتحدث فيها عن مدينة بسكرة وقد خربشتها على صفحة ورقة كراس تلميذ من المبتدئين. كانت تحدثني عن الصورة، لم يكن بقفاها تاريخ التقاطها (كانت تقول : الأمر بسيط فقد شاركت في الحرب في مكان ما وفي زمن ما ولكن الحرب قد انتهت !) فما قولك في السجن

اذن ؟ وفي المحتشد ؟ فكانت تقول وتكرر بدون انقطاع : انت تخلط بين الامور ، فكنت أخرج من طوري وأطردها. وكان روعها يهدأ فجأة فتتركني في مرارة اغتياظي وتبتسم لي كما فعلت ذلك أول مرة وكان ذلك باحدى المقاهي التي لا تقدم فيها الخمور والكحول. اين كان ذلك ؟ كانت تقول انني أعرف الجواب حق المعرفة. هل كان ذلك في تونس ؟ أم في الرباط ؟ أم في قسنطينة ؟ فكانت تصيح متعجبة : « ها أنك تعرف الجواب أحسن مني ». كان ذلك بتونس ! يا للعجب لقد كان جسمي يتصبب لذلك عرقا باردا. هل كان في وسعها أن تفسر لي أمر المحتشد ثم أمر السجن بعد الاستقلال بكثير ؟ لا لم تكن تعرف شيئا عن ذلك الموضوع.

لقد جاءت ثم رجعت بدون أن تمدّني بما كانت حالتي العقلية تتطلبه من يقين الامور ، حالتي العقلية التي كانت مع ذلك هادئة. كنت أعد نبضات قلب شيخ كان يحتضر بجانب سريري. لعل الامر يقتضي استحضار الطبيب ... ترى لم لم أنبس ببنت شفة قط بشأن ليلى أختي اليهودية من أبي ؟ كان النوم أمرا مستحيلا. وأنّى لي أن أنام وقد اقتحمت القبيلة علينا فجأة هذه الغرفة القذرة من غرف المستشفى وسط رائحة مناديل المخاط الجافّة على حافات الشبابيك المفتوحة على ليل المدينة المتلألئة، بأسفل وهدة « المرأة الوحشية » ؟ ترى الى أين انتجعت هذه القبيلة لكي تنتظر آخر لحظة قبل اطلاق سراحي فتأتي لمحاسبتي ؟ ياله من بدر منير في بذخ وأبهة ! كانت أجسام أصدقائي النحيلة الرقيقة تلصف في الظلمة الخافتة ظلمة هذا القدر العظيم من الضيق الذي تعطل بصورة وقتية .

وصلت ليلى الى دارنا بعد جنازة ياسمينة بزمن قصير . كانت بنتا غير شرعية أنجبها سي زبير من امرأة يهودية كانت تشتغل خياطة. لم يكن أحد على علم بوجودها. قال لي أبي : « هذه أختك » بدون أن يضيف أي

تعليق آخر. وكلفت بالاعتناء بهذه الملتحقة وبتلقينها مبادىء الحسابيات. وأما امي فقد رفضت اقتبالها رفضا باتا. ولكننا أنا و زاهر الححنا عليها لكي نستبقي ليلى معنا فنزلت عند رغبتنا في النهاية. أما زاهر فقد فعل ذلك بسبب نسب ليلى اليهودي وأما أنا فقد فعلته بسبب جمالها الخارق للعادة. وكنت ألقنها الدروس صباحا. وأما فترة ما بعد الظهر فقد كنا نقضيها في التساؤل حول شؤون الوالد، وكانت ليلى لا تعرفه الا قليلا. كانت تضحك بدون انقطاع فتهيّج نساء الدار ويتسارعن الى المكان لكي يرين عن كثب هذه الفتاة المتوحشة التي نقلت كالنبات من تربة الحي اليهودي الى هذه الدار التي كان الاسلام يمثل فيها التعلة الدائمة. ولكنني كنت أعرف كيف أطردهن وذلك لأن سلطتي على نساء أعمامي وبناتهم مافتئت تتعاظم. وكنت أعرف عند الاقتضاء كيف أقرض اصابعهن سهوا بصفق الباب فجأة بعنف. ترى أي سحر بل أية رقية مؤذية كانا يستأثران بي بغتة ؟ لم يكن الدفاع عنها أمرا كافيا بل كان من اللازم أيضا التذرع برحمينا وقد أذهلهما ذلك الامر الشاذ الذي كان أيمّة الاسلام وأحبار اليهود متعنتين في تاكيده وابرازه.الملامسات ... كنت أطردتها من غرفتي عندما كانت دندنة حاستي الجنسية تنذرني بدنو ذلك التبذير المحتوم المشتق من الوالد المنسل، وذلك لأن ليلى كانت تأتي كل ما في وسعها لكي تهيج مشاعري وتتواطأ معي في الخطيئة. وكان من اللازم مخاطبة الطبيب في تلك القضية : ترى هل اغتصبت أختي من أبي ؟ اذ لو فعلت لكان في ذلك تعليل لتدخّل القبيلة الشيطانية في هذياني وقد خرّت ترتجف شوقا إلى التلاقي من جديد وإلى انضمام اشلائها انضماما تاما وذلك لأن استقلال البلاد قد جاء فجاءت معه تصفيات الحسابات والثأر والاحتفالات وعمليات الاثراء الجديد بلا حياء ولا خجل.

لم يكن استيقاظنا بالمستشفى ليجري بدون تنازع بغليظ القول بين

الممرضات والمرضى وهم ما زالوا متعلقين تعلقا واهيا بشلي من أشلاء كابوس من كوابيسهم. كانوا يجتهدون كادين في فهم معناها ؛ هباط ومباط. الصدمة الكهربائية. أشجار البغونية، الشبابيك المفتوحة. الممرضات بلا سيقان . مناديل المخاط. العروق الناتئة على السيقان. ترى أي انواع الضحك، وأي سعادة يمكن تعليقها على وجوههن التائهة الشاحبة شحوب الشمع ؟ وكان الأمر ينتهي بي الى الغفوة عند مطلع الفجر الجليدي.

وبعد التلمس كالأعمى جاءت المرارة. ولم يكن ثمة أي شيء من شأنه أن يجعلني مستعدا لتحمل مسؤولية موت ، حتى ولو كان موت زاهر ؛ ولذلك فقد وجب أن أترك حومي ولفي حول أمي وزوجة أبي وبنات أعمامي والقطط والاعمام والوالد وأخيرا حول ليلى، وأن استقر نهائيا بين أحضان النقمة والحقد. كان كل شيء غارقا في عالم سيصبح فيه دور الوالد لغزا تاما. ولم يعد هناك شيء نبحث عنه لأن زاهر قد مات بدون أن يهتدي الى توضيح لغز الجنين ولا تصرفات زوجة الوالد الشبقة التي قد أفلتت من وسبط الحريم وأخذت تتفنن في خلع سروالها التركي في تلك الغرفة الصغيرة حيث كانت القطط تأتي اليها لتلحس بمحضري اللبن الذي كانت تقدمه لها بضغط أحد نهديها على الآخر ؛ نهديها الرائعين العجيبين كعجيب أساطير الأولين. ولم يكن يبقى لي الا مركن واحد ألجأ اليه : أن أتعثر على تناقضاتي وأن أعجنها عجنا وأسيء معاملتها حتى أصل الى استحضار عالم كنت أشعر شعورا ملحا بأنني قد أحسست به من قبل، أو الى تصور كلمة يقطعها جرس احدى عربات الترمفاي وأخالني قد سمعتها من قبل في نفس الظروف. وهكذا فقد كان كل شيء في تدحرج وانقلاب ومرة اخرى

كان اولائك التجار الكبار على حق وكانت سبحاتهم التي كانوا يفركون حباتها بين أصابعهم بسرعة جنونية تبعث في الرأس الدوار وتقنعني راسخ الاقناع بأنهم كانوا على حق. كانوا يرفعون حواجبهم ويرخون شفاههم المسترخية المبللة للتعبير عن أن موت زاهر لم يكن شيئا عرضيا بتاتا لأنهم كانوا يعرفون منذ زمن بعيد أن ذلك سيحدث لا محالة. وكانوا يبرزون للناظر وجوها عطوفة زائفة ومناديل للمخاط جديدة يستعملونها لتجفيف دمعة مختلسة تنزلت الى حافة العين سهوا. ولكن الاسى الحقيقي كان كله من نصيب النساء ذلك أن النساء وحدهن كن يعرفن كنه الحب والمودة وكن لا ينقطعن طيلة الاسابيع عن اطلاق صرخاتهن المشنجة للاعصاب ويجمعن بصراخهن سائر نساء الاحياء المجاورة فيهرعن للنجدة واغاثة المستغيث فيقطعن ثيابهن ويمزقن وجوههن حتى تسيل دماؤهن وذلك بمجرد ما تجتاز قدمهن عتبة الدار ويزبدن من شدة الألم ويتمرغن على الارض. واما الوالد فقد كان يرقص حول خزنة ماله الفولاذية الخالدة وقد تبدلت ملامح وجهه فرحا. ذلك أنه كان يمقت ابنه الاكبر منذ حدوث الطلاق ؛ تلك العلة التي لم يبلّ منها واحد منا قط : لا يمّا وقد هيمن عليها هيمنة تامة جماعة السحرة المشعوذين ولم تنل منهم شيئا ؛ ولا الوالد الذي كانت زوجته تخونه بسبب ذلك القط المحجوز في تلك الحديقة المهملة التابعة «لفيلا» حي « البيار » وهو قط مفتون بالبحر فتنة بلغت به مبلغا جعل مشيته مشية عرجاء ملؤها الارتجاج ؛ ولا زوجة الوالد ضرة أمي وقد شدت الى قيد حلمها العملاقي الذي تحقق حول حماقات سكير لم تشف غليلها منه قط، الذنب في ذلك ذنب رجل مدمن على تعاطي اللواط يعشق ذكور اليهود ويدخن الكيف مات في بلد أجنبي بعيدا عن الارض المدمّرة وعن القبيلة التي كانت لا تميل كثيرا الى تصرفاته التي بلغت ذلك الحد من الشبهة والريبة، ولا أنا في النهاية وقد دأبت على تكديس عمليات الزنا بما حرّم الله وذلك بسبب يدي الاثنتين الصردتين اللتين كنت أحاول سدى

أن أدفنهما على ذلك الجسد المتأجّج ذي اللحم الاحرش المكسو شعرا والذي كان منبعا تتضوع منه روائح لا تطاق وتنبثق عنه تجديفات غاضبة حانقة كان الذكر ينتهي به الامر دائما الى ترك روحه الملعونة فيه. لم يكن موت اخي سوى نتيجة طبيعية لاعمال القبلية التي بدأت بعد في الاستعداد للأخذ بثار طالما انتظرته ولم يكن زاهر الا ضحية قدمت طلبا للغفران والتكفير عن عنف اجباري كان سينصب على البلاد فلا يسلم منه أحد ؛ فالكحول مثل الدم كانت ضرورية لهذه الارض التي انكشف عنها الطوفان والتي قلبت أوضاعها طيلة هدنة طويلة لا تحتمل.

ان زاهر لم يكن له أب قط ولن يمكنه تنكره في صورة جثة نتنة الرائحة في حالة متقدمة من التعفن من أن يكون له أب. فقد كاد ذلك التاجر الكبير يطير ابتهاجا في دوي وصخب وكان لا يخفي فرحه بتغلبه في النهاية على ذلك الابن القليل الكلام الذي كان سي زبير يخافه ويخشاه دائما أكثر من خوفه من أي انسان آخر. وفعلا فان علمنا بتصرفات الوالد كان عظيما جدا وكان ذلك يجعل شيخ القبيلة الحذر يزبد ويرغي فينتقم منا بأن يجعلنا مسخرة في نظر تلك الكائنات الجنينيّة في السابق والتي بلغت بضرب من خارق المعجزات سن الطفولة وذلك رغم اللبن المسموم الذي سمّمه ريح فم ذلك الضيّون الأعرج، ورغم جميع الجداجد التي ضحينا بها وبترنا أعضاءها فاضطربت اضطراب المتخمرين، ورغم الزنا بزوجة الاب الذي لم نقنع فيه بفراش الوالد بل انتقلنا به الى حوض الاستحمام حيث كان الماء لا يزال دافئا دفأه وضوء الزوج صباحا قبل أن ينصرف مبكرا ليصلّي بعض الصلوات العاجلة. ولم يكن سي زبير وحده فرحا منشرحا بموت أخي. بل ان اغلب اعمامي كانوا سعداء أسعدتهم تلك الغنيمة العارضة غير المنتظرة وذلك لأن زاهر كان يبعث في نفوسهم الرعب والارهاب على الدوام. وأما بنات أعمامي فانهن كن لا يغفرن ما كان يبديه لهن من احتقار واستصغار. وكانت زبيدة الشخص الوحيد الذي شاركنا

ألما حق المشاركة فقد فوجيء جميع القوم بذلك الحماس العنيد الذي أظهرته في تمزيق خديها وفي عضّ شفتيها. أما أنا فقد كنت أعرف منها ذلك الحماس في الصراخ وذلك لأنها كانت تتصرف نفس التصرف عندما كانت تشعر باللهفة الجنسية تدخلها وعندما كانت تتدحرج معي في أعماق الفراش وقد ساء خلقها لاعتقادها أنها ستقتنص الخلود الشعشعاني من خلال أسفل بطنها وقد تفرقع بألف عنف جنسي وعنف كانت كلها مكبوتة في حضور زوجها المترهل الشحم الهرم . وكان انتظارنا لوصول جثة زاهر قد زاد على ثقل وطأة الجو ثقلا آخر . وكانت النساء من حين الى آخر تصيبهن نوبات من الصمت المريع كنا نخشى معها من أن يكن قد فقدن توازنهن العقلي . وكانت النائحات المحترفات القادمات من مدينة قسنطينة يدرن المأتم بحكمة ودراية فيرفعن عقيرتهن بالدعوات والابتهلات، وكانت المجموعة الصوتية النسائية تكررها بعدهن. ولئن حدث لهن أن يلطمن خدودهن فانهن كن يفعلن ذلك بأقل ايمان وصدق من أمي أو زوجة أبي. فترى كيف سيكون الأمر عندما سيأتون بالجثة الى الدار الكبيرة ! لم يكن الامر في تلك الفترة الا مجرد مقدمات تمهيدية للمأتم. وكان المنزل قد زحف عليه الناس من كل فجّ وصوب فاكتظ بهم اكتظاظا. وكانت النائحات يصلن ويجلن حاكمات مقننات، يغمزن بأعينهن قراء القرآن الذين كانوا يلعبون لعبة الورق ريثما يتهيأ لهم الشروع في نشاطهم. رائحة البخور مرة أخرى ! وكان القوم يأكلون الكسكسي الذي غصت به الغرف وكان الأمر يؤول بهم في النهاية الى اعطائه الى المتسولين الذين كانوا يهرعون الى المكان بسرعة في مثل هذه الظروف. ويطول الانتظار ويتأبد وتنتقل الاسرة وقد عيل صبرها من حالة الخدر العقلي الى حالة من الاستيقاظ ترجع بها فجأة الى طور الصياح والعويل والعنف والتألم.

وبطول المدة غدا نواح النائحات مجرد خلفية صوتية تنعكس عليها زقزقة النساء المؤثرات بدون أي تحفظ. فقد كن يعتبرن أنهن قد قمن بما فيه الكفاية من أعمال في تلك المرحلة فأخذن في الاستراحة لكي يكن قادرات على الاضطلاع بالواجب احسن اضطلاع يوم الجنازة. وكان الوالد قد سافر منذ اسبوع الى فرنسا ليعود بجثة الميت. وكان يقول في التليفون ان الجثة قد بقيت على حالها بفضل الوسائل التقنية المحكمة المستعملة في بيت الموتى النموذجية التي كان من حسن حظ الميت أن نقل إليها. كنا في شهر جوان وكانت الحرارة مخنقة ولم أتجاسر على حلق لحيتي خوفا من أن أقدم للقيل والقال فرصة سانحة للتفاقم والتكاثر. وقد زاد انزعاجي وتحرجي لا سيما أن هيماتلوس (صديق أخي اليهودي) أصبح بعد عودته منذ زمن قريب من اسرائيل لا يغادر غرفتي خوفا من أن تكتشفه أمي فلا تقبل وجود هذا اليهودي في دار الميت. وكنا نكاد لا نوجه الخطاب لبعضنا بعض ؛ وكان ذلك الاستاذ يقضي أوقاته في حل مشاكل من علم الفيزياء وفي انشاد بعض القصائد الشعرية بصوت مرتفع، وكان يقطع انشاده من حين الى آخر ويسعل سعالا خفيفا ويسألني إن كان فعله ذلك يشوش عليّ راحتي فوق الحد أم لا. وكان أحيانا يغرق بلهفة في قراءة التوراة مرمرما : «قراءة التوراة تهدىء اعصابي...» وكان ينتهي به الأمر إلى اخراجي من جلدي فألح عليه ولا أتركه حتى يقبل أخذي معه في سيارته الى إحدى خليّجات « تيبازا » فكنا نعوم هناك ويكتسي موت أخي ابعادا أعجوبية كان جبل الشنيو في تغيراته الأبدية يعززها الى حد الابتهاج المحلّق. وكان اليهودي يتعمد تعهد ذلك الابتهاج بانشاد قصائد من شعر المدرسة الحرفية (9) وكنا نركض على الحصى الاملس وعلى الصخور ريثما تغيب الشمس فتتجرد الاشكال تجردا غريبا يكاد يكون معميا للبصر. وكنت وقد تشنجت أعصابي فوق الاحتمال بسبب سعة اوهامي السرابية أطفق في صب وابل حقدي على ذلك الاستاذ فلا أنفك أتهمه بأن لواطه لواط مزوّر فلم يكن

ألمنا حق المشاركة فقد فوجيء جميع القوم بذلك الحماس العنيد الذي أظهرته في تمزيق خديها وفي عضّ شفتيها. أما أنا فقد كنت أعرف منها ذلك الحماس في الصراخ وذلك لأنّها كانت تتصرف نفس التصرف عندما كانت تشعر باللهفة الجنسية تدخلها وعندما كانت تتدحرج معي في أعماق الفراش وقد ساء خلقها لاعتقادها أنها ستقتنص الخلود الشعشعاني من خلال أسفل بطنها وقد تفرقع بألف عنف جنسي وعنف كانت كلها مكبوتة في حضور زوجها المترهل الشحم الهرم . وكان انتظارنا لوصول جثة زاهر قد زاد على ثقل وطأة الجو ثقلا آخر . وكانت النساء من حين الى آخر تصيبهن نوبات من الصمت المريع كنا نخشى معها من أن يكن قد فقدن توازنهن العقلي . وكانت النائحات المحترفات القادمات من مدينة قسنطينة يدرن المأتم بحكمة ودراية فيرفعن عقيرتهن بالدعوات والابتهلات، وكانت المجموعة الصوتية النسائية تكررها بعدهن. ولئن حدث لهن أن يلطمن خدودهن فانهن كن يفعلن ذلك بأقل ايمان وصدق من أمي أو زوجة أبي. فترى كيف سيكون الأمر عندما سيأتون بالجثة الى الدار الكبيرة ! لم يكن الامر في تلك الفترة الا مجرد مقدمات تمهيدية للمأتم. وكان المنزل قد زحف عليه الناس من كل فجّ وصوب فاكتظ بهم اكتظاظا. وكانت النائحات يصلن ويجلن حاكمات مقننات، يغمزن بأعينهن قراء القرآن الذين كانوا يلعبون لعبة الورق ريثما يتهيأ لهم الشروع في نشاطهم. رائحة البخور مرة أخرى ! وكان القوم يأكلون الكسكسي الذي غصت به الغرف وكان الأمر يؤول بهم في النهاية الى اعطائه الى المتسولين الذين كانوا يهرعون الى المكان بسرعة في مثل هذه الظروف. ويطول الانتظار ويتأبد وتنتقل الاسرة وقد عيل صبرها من حالة الخدر العقلي الى حالة من الاستيقاظ ترجع بها فجأة الى طور الصياح والعويل والعنف والتألم.

وبطول المدة غدا نواح النائحات مجرد خلفية صوتية تنعكس عليها زقزقة النساء المغرثرات بدون أي تحفظ. فقد كن يعتبرن أنهن قد قمن بما فيه الكفاية من أعمال في تلك المرحلة فأخذن في الاستراحة لكي يكن قادرات على الاضطلاع بالواجب احسن اضطلاع يوم الجنازة. وكان الوالد قد سافر منذ اسبوع الى فرنسا ليعود بجثة الميت. وكان يقول في التليفون ان الجثة قد بقيت على حالها بفضل الوسائل التقنية المحكمة المستعملة في بيت الموتى النموذجية التي كان من حسن حظ الميت أن نقل إليها. كنا في شهر جوان وكانت الحرارة محنقة ولم أتجاسر على حلق لحيتي خوفا من أن أقدم للقيل والقال فرصة سانحة للتفاقم والتكاثر. وقد زاد انزعاجي وتحرجي لا سيما أن هيماتلوس (صديق أخي اليهودي) أصبح بعد عودته منذ زمن قريب من اسرائيل لا يغادر غرفتي خوفا من أن تكتشفه أمي فلا تقبل وجود هذا اليهودي في دار الميت. وكنا نكاد لا نوجه الخطاب لبعضنا بعض ؛ وكان ذلك الاستاذ يقضي أوقاته في حل مشاكل من علم الفيزياء وفي انشاد بعض القصائد الشعرية بصوت مرتفع، وكان يقطع انشاده من حين الى آخر ويسعل سعالا خفيفا ويسألني إن كان فعله ذلك يشوش عليّ راحتي فوق الحد أم لا. وكان أحيانا يغرق بلهفة في قراءة التوراة مرمرما : «قراءة التوراة تهدىء اعصابي...» وكان ينتهي به الأمر إلى اخراجي من جلدي فألح عليه ولا أتركه حتى يقبل أخذي معه في سيارته الى إحدى خليّجات « تيبازا » فكنا نعوم هناك ويكتسي موت أخي ابعادا أعجوبية كان جبل الشنيو في تغيراته الأبدية يعززها الى حد الابتهاج المحلّق. وكان اليهودي يتعمد تعهد ذلك الابتهاج بإنشاد قصائد من شعر المدرسة الحرفية (9) وكنا نركض على الحصى الاملس وعلى الصخور ريثما تغيب الشمس فتتجرد الاشكال تجردا غريبا يكاد يكون معميا للبصر. وكنت وقد تشنجت أعصابي فوق الاحتمال بسبب سعة اوهامي السرابية أطفق في صب وابل حقدي على ذلك الاستاذ فلا أنفك أتهمه بأن لواطه لواط مزوّر فلم يكن

نه اذ ذاك من حيلة يركن اليها الا ضربي واسكاتي قسرا. فكنت وأنا مهزوم أتلمس تضاريس حادة أقطع بها رأسه، ولكنني كنت، وقد ثارت ثائرتي رغبة في تلطيخ كل شيء، تضيق انفاسي فأخر على الرمل الملتهب لاطفىء بذلك تلهفي على القتل والاجرام. كان الماء الجليدي الازرق اللون يدفع بي في دوار قوامه التقطع وأشلاء الاشنان التي كنت ألمح بياضها الجنوني عند متناول يدي. فتبدو لي كأنها ذكرى باهتة لم تبرز من أعماق سوء نية كئيبة بل كنت ألعقها في حرارة بلساني فتغشيه فورا بثور قلاعية تبقع داخل الفم وتغطي مرارته الاولى. واذ ذاك يبدأ شيء كأنه بداية الموت في الاستيلاء على نفسي وكان ذلك الاستاذ الفظيع الذي يرثي لحاله لا يحوّل عني بصره مقلّبا في ضميره وعلى مختلف وجوهه بعض الخطط الشاملة التي لم تكن حماقتها لتخفي على نفاذ بصيرتي. وكان الماء يمتلىء فجأة بقماقد البحر فتضفي عليه لونها الاحمر وتمنع السابحين من ولوجه. واذ ذاك لم يبق لحق لنا الا في رشاش من ماء البحر كانت تقشعر له جلودنا اقشعرارا لذيذا صردا وتزبئر شعراتها وتنتفش انتفاشا وكانت وخزاته في الهواء الساخن تبعث في نفوسنا لذات لا نظير لها. وكنا أنا و « هيماتلوس » وقد استسلمنا الى تفتح قنافذ البحر والى دمار التربة الحمراء التي كانت تشرف على الآثار الرومانية لا يسعنا الا التصالح ربما ترجع نجثة الاخ (بيد أنه كان من الضروري بالخصوص ألّا يمسّ اليهودي ذلك الجسم المسترخي جسم أخي الذي سيصب عليه شيخ العشيرة وابلا من الآيات القرآنية ملؤها الغضب والاغتياظ) وكنا نقضي على الشاطىء اياما كاملة، وكثيرا ماكان يخيم علينا فيها صمت يبلغ حدا كنا نسمع معه خرخرة الجو حولنا التي لم يكن يقطعها في حمارة قيظ الظهر الحانقة بين الفينة والفينة سوى وصول بعض بائعات الفحّار الصغيرات خفية، قد جاءت لتتبرّد من حرارة غبار الطريق. فتدخل الماء بدون أن تخلع فستانها الطويل. فكان ثوبها يقولب جسمها عند خروجها من استحمامها في البحر فترجع الينا بتلك الشهوة

رغم انتظارنا الطويل المُمل الذي كان يشدنا شدا الى ذلك الشرم حيث كان هيماتلوس يحاول سدى عقد شعور الصبيّات المبتلة. وكان الاهتياج الجنسي يخرق نفوسنا بسهامه ويجعلنا نرقين محمومين في آن. وكنا بين المشاجرات وذكر الصبيّات نجد دائما متسعا من الوقت لنعفو عفوات لا نطاق بسبب جسمينا الملتهبين ولحيتينا وقد سال منها رمل دقيق لم نوفق الى ازالته قط. وكان يقبل علينا احيانا حمار وحشي قد انفصل عن القطيع باحثا عن الاشنان الكثيفة وقد بهرته اختلاجات الهواء ؛ فكنا نطارده لمنعه من تلويث ذلك المكان الجليل. ولكن ما ان ينصرف ذلك الحيوان حتى نهمك من جديد في المطالعة فنستعملها كالأمارات لنطلق منها للتأمل في وسواس الموت وقد تصورناه من خلال تابوت مضحك عجيب آت من وراء البحار. ولم يكن في موت زاهر أية أبهة لا سيما أن مصيره كان معلقا برافعة أثقال ستضعه على الارض عند ارساء الباخرة بالميناء كما تضع بعض الآلات المعقدة أو كيسا بسيطا من أكياس الفول. وكان صديقه يقول ويكرر : أنهم قد خانوه وان الاحرى به أن يترك الدور يلتهمه وذلك ليتجنب مراسم موكب النواح والنديب وليجنب بنفس الفعلة أمه أن تقف منه موقفا مزريا لا مناص من أن يكون قائما على اللامبالاة أو الاستفزاز اللذين من شأنهما أن يذهلاه. وفعلا فان اهانة النفس كانت المنفذ الوحيد للرجوع الى صلب الألوهية وقد أغضبها هذا العدد العديد من الأعمال الخرقاء التي تراكمت في غضون خمس وعشرين سنة من حياة ملؤها المغامرة. وكنا اذا ما اعيانا الانتظار يبلغ بنا الامر مبلغا يجعلنا لا نتحمل أبهة ذلك الشاطىء الصغير الذي قد يناسب قط زبيدة، فلو أتاه لتأمل قنافذ البحر تتلألأ في الماء الاخضر خضرته حشائش البحر ولأخذ يضلع في مشيته ما طاب له ذلك ليتخلص في النهاية من تلك الرغبة الملحة التي كانت تمزق أحشاءه. علينا أن نعجل بالانصراف قبل أن يبلغ بنا الخيال مستوى الهلواس المذهش العجيب الذي سيلازمني اياما طوالا كاملة ويفرغني من حدادي ؛

وهو حداد عالق ملحّ زاد في علوقه ارتباطه بهجرة لا نهاية لها كنا جميعا مرغمين على القيام بها وبترحال خارج ارض الجدود المخربة المخدوشة المطموسة البكارة والتي لا قدرة لها على منحنا أدنى مدفن حتى ولو كان حقيرا أو خلسة على ضوء الشموع في بقعة كالحة من الأرض على تخوم الصحراء حيث يصبح الصخر غور قابل لتشرب السوائل ويتحول الى كتلة حجرية طويلة سلهبة كنت أذكر انا واليهودي حدّتها. وكانت الخيانة خيانة عظمى لا سيما أن الارض المجففة كانت في حاجة الى جثث طرية لتمكين القبيلة من الاستمرار في الحياة. ترى ما عسانا نصنع بميت قد فقد جميع نسغه وطعمه في مدفن تحت الارض مكيف الهواء باحدى المدن الفرنسية ولم تتح للدود الفرصة ليأكل منه فيسمن ؟ ذلك الدود المنكمش على نفسه جوعا وعطشا وقد أخذه دوار غريب في انتظار المأدبة التي وعد بها منذ زمن بعيد والتي تأخرت عن موعدها. واذن فقد كنا متواطئين مع الديدان والسرفات وكان جميع الناس في دار يمّا يرون لنا وجوها شيطانية الملامح لا سيما بسبب لحيتينا اللتين كادتا تنقلبان مظهرا من مظاهر التنكر. وكان الامر ينتهي بنا الى مغادرة الخليّج والانصراف في الليل راجين بجبن واضح، أن لا نتمكن من اجتناب بعض اشجار الدّلب التي تكون أشد ضياء من غيرها فنتحطم عليها ونستجيب بذلك الى داعي ميلنا الانتقامي. وكانت نفوسنا تزخر بنفس تلك الضروب من القلق عندما كنا ننغمس في مياه « تيبارا » العميقة وذلك لنتعلم الموت ولنشعر بآذاننا تختلج عند تهالك الشمس الاهليجي وقد بلغت منتهى عظمتها.

وكنت متى تمكنت من التخلص من اليهودي أعود الى الدار فأجد النائحات وقد امضين خمسة عشر يوما في الانتظار غافيات علانية بين أحضان قراء القرآن وقد خارت قواهم وترهلت ملامحهم من جراء مثل ذلك العدد الكبير من السهرات ودفقات المني. كانت الحالة في تدهور متفاقم

وكانت الغرف تفوح برائحة زنخة هي رائحة فروج النساء المنقوعة في الخلّ تحت حرارة شهر جويلية ورائحة شلح الحيوانات المصابة بالقبض. كانت نلوث بشلحها في فترات منتظمة ثياب رئيس جوقة القراء الاعمى الذي كان مصرّا على بعث نواح متكلف من شأنه أن يبلي جسمه وجسم امرأة شابة لا أعرف اسمها ولا اصلها، كانت مثقلة بالعنبر ومخرقة بالخال بمقرب من ثنية فخذها الواسعة السخية (حسب قول بنات اعمامي وقد رأينها تتعرى من ثيابها) وكانت هيئتها تشعرك بأنها قادمة من أوروبا الوسطى وذلك لأنها كانت تلمح الى مخاطبيها بأن الحرارة كانت تتعبها أكثر من سائر النساء. ترى هل كانت عشيقة زاهر في حياته ؟ لم يكن في استطاعة احد الجواب عن هذا السؤال. حتى أمي كانت عاجزة عن ذلك وقد طعنت في صميم خيبة آمالها. وكان الاعمام يتجولون هنا وهناك ويغتنمون فرصة الهدأة المؤقتة فيملؤون الدار بوجودهم الكريه الرائحة المتعثر في أذياله. لقد استرجعوا لمدة بضعة ايام أخرى بسبب تغيب الوالد بفرنسا سلطة أخذوا يبذرونها في السعي الى الفصل بين النائحات والقراء وفي مراقبة حسن تدبير شؤون المطبخ ليجلب لهم ذلك بعض الارباح المالية المريبة. وكان بعض النسوة ينصرفن الى دورهن ليقضي بهن أزواجهن الهائجون جنسيا وطرهم ثم سرعان ما يرجعن الى دار الميت فيتركن شرذمة اولاد الاعمام النهمين يداعبون نهودهن وقد كانوا بالمرصاد يترصدون بعض ضروب الترفيه الخسيسة التي من شأنها على كل حال أن تملأ نفوسهم انشراحا. وتغشّي المسكن مادة لزجة مثل الطيسل الذي يغشى الثمار فيصير المكان كالثمرة أزعجها قرب اياعها، وتتفاقم الفوضى. وأما يمّا فكانت كلما خرجت من خدرها تطلبني وتطالبني بأن يكون سلوكي سلوكا مثاليا يقتدى به. ورغم كل ما أقدمه لها من وعود فقد كان الامر ينتهي بها الى التعلق بي فتمسكني بشدة وتأخذ في الصراخ والولولة. فكانت الجوقة وقد فوجئت في فترة من فترات تخاذلها وتوانيها الحقير تأخذ من جديد وفي غير

نظام محكم في النواح والأنين وقد شحذ همتها صوت زوجة الوالد الرائع، وكانت لا تعرف الكلل ولا تنفذ لها حيلة قط، فترفع عقيرتها وسط ذلك الخليط المشوش بصرخات حادة كان لها على الحاضرين وقع الشفرات والبرق . ولتخرج ذلك الرهط الضاري الناعس من حالة التلذذ العابر الى حالة «التخميرة» الاساسية. وعندئذ كان الزبد يعلو شفتي عشيقتي فأصالحها رغم جميع القطيعة التي كانت تفصل بيننا . وفي آخر اليوم السادس عشر أرسل سي زبير برقية أخبرنا فيها بوصول التابوت . وما شاع الخبر وانتشر حتى هبت ريح من النظافة على الدار فلكأن النساء قد رششن بالماء البارد : وعادت طقوس الماء . ولم يمض يوم واحد حتى أخذ المنزل الذي جفت مياهه من قبل وابلا لم يعرف مثله قط . ونظمت روحات الاعمام الولائم حتى لكأن القوم قد رجعوا الى الزمن الغابر زمن حفل زفاف شيخ العائلة . ولم تبق الا يمّا وحدها ــ بالاضافة الى زبيدة التي قلدتها في ذلك ــ على حالة من الجمود التام . وخاف القوم على ذاكرتها من التلف وذلك لأنها أخذت منذ وقت قصير تطلق على الاشياء والكائنات أسماء قد تنم عن موهبة وبراعة الا انها كانت اسماء خاطئة باطلة تماما . وكانت بمجرد ما تتردد وتختلط عليها الامور في جملة من الجمل تعدل عنها وتقيل قائلة طويلة لا تخرج منها الا لتنطلق باحثة عني في جميع أركان الدار . ولما كنت لا أريد أن تصادف « هيماتلوس » كنت أغلق باب الغرفة غلقا محكما وأبقى معه داخلها . فكان من شأن ذلك أن يشنج اعصابها فوق المستطاع ؛ ولكن جميع الناس كانوا خائري القوى وكان شهر جويلية يثقب بأنيابه المدينة التي كانت تتموج باحثة عن شيء من النسيم العليل المشكوك في حدوثه وذلك حول بائع شاي زنجي كان خبيرا بأمور مهنته فكان يقدم للناس مشروبا محرقا معطرا كان النعناع المنقوع فيه يزيد على مرارته مرارة أخرى .

يوم الاربعاء الساعة العاشرة صباحا . الميناء رازحة تحت وطأة عدد هائل من الاقلاس والمحالات ذات الهيئة الاسطورية بسبب مجاورتها لعرض البحر . وكانت الصور والاشكال بالميناء ذات معالم بلغت من الحدة درجة اضطرّتنا الى وضع نظارات سوداء على أعيننا . فكنا مثل جماعة من القتلة المتنكرين . كان على الرصيف خلق عظيم : عصابة الأعمام وقد ارتدوا كسوات أوروبية مضحكة وربطات عنق رغم حرارة الجو البالغة ، وعمال سي زبير والأعيان والقضاة المتواطئون مع الوالد . وكان هيماتلوس متسترا بلبسة مستعارة قليلة الاحتشام وذلك لكي لا يتفطن الى هويته جماعة المرتلين الذين كانوا ينشدون بأصوات جميلة أناشيد تصف ويل يوم القيامة لم يكن موضوعها إلّا الحديث عن الكبيت الأصفر وعن آلات حادة تبقر بطون الكفار وبطون المنافقين . فكنت لذلك اشعر بالقلق وأخاف على الميت وهو في وحدته أمام البحر الخالد وقد اخترقه في حركة ترنحية مشدوها مثل العدّاء يجري مسابقا فينتهشه عنف حركاته . ومن البحر الذي لا ينفذ من البحر الادغم جاءنا النذير المفجع وقد تلخص في صيحة عاوية من صفارة الباخرة . ولم يكن في وسعي أن أترك اليهودي وابتعد عنه لأنني كنت اخشى خطر الوقوع بين الحين والآخر في كمين المرتلين اذ سيتجمعون متراصين حولي لتشريكي على أحسن وجه في ادانة ذلك الجسم المسترخي المتعفن الذي سنرى عما قريب تابوته يبرز من الباخرة معلقا الى مرفاع غريب عجيب .

وما أن أرست الباخرة بجانب الرصيف حتى برز شيخ العشيرة برزة مشهودة . كان مرتديا كسوة من كسوات زاهر بعد أن عدّل منها بعض مهرة الخياطين . وكان يبدو أقل سمنة وأكثر صخبا وهو يتقبل وعلى محياه علائم الكدر والاغتمام تعازي الحاضرين . وكان جماعة من مدخني « الكيف » قد تمكنوا من اجتياز رقابة الميناء بدون عوائق،وحاصروا هيماتلوس وقد تحسسوا هويته رغم تنكره في حلة من حلل الأزمان الغابرة .

وكان صاحبنا اليهودي في حيص بيص وهو خائف من أن يهتدي الناس الى هويته فيعرفوه بسبب لهجته اليهودية ولذلك فقد عدل عن الكلام الصريح مفضلا الاجابة بلفيظات ذات مقطع واحد لا تسمع ، فأثار بذلك حبّ الاطلاع عند مدخني الكيف الذين كانوا يعرضون على عين الناظر وشمائلهم الرائعة ويصبحون ذوي ضراوة ومشاكسة في وجه هذا الخليط من البشر الذي شد الى العالم وعجز عن الاقتلاع عنه . كان جماعة المدخنين يحملقون في الحاضرين بعيون ناقدة متبصرة في آن واحد وكانوا يقهقهون في غير احتشام وابتذال بمجرد أن يستنكر أحد الأعيان وقاحتهم . انهم لم يأتوا الا لحمل تابوت صديقهم فضاقوا ذرعا بمثل ذلك العدد الكبير من الطقوس الخاوية من كل معنى في حين أن الساعة كانت ساعة ألم ، ساعة لا تطاق . وكان هيماتلوس يحاول تهدئة روعهم وتلقينهم بعض مبادىء اللياقة ولكنهم كانوا يثورون عليه ويتمردون علانية ويرفضون كل نصائحه رغم تقديرهم لصديق زاهر . ويكدّ القوم ويجدون للقيام بالاجراءات القمرقية والصحية : فهذا أحد الاطباء قد صعد على متن الباخرة للتثبت من حالة الجثة وختم التابوت بالشمع . الحرارة في استمرار ... ورائحة الشحم الاسود المحروق . والمياه الراكدة كانت ترتخي لها مناخرنا ، السفن متراكبة متراصة مثل تنضيدات من الطبقات المتتالية . السماء مسدودة معطلة عطلها التهاب سعير عملاقي . والمراوح يحركها القوم اتماسا لشيء من البرودة عسير المنال . الهرج والمرج والهباط والمياط . وشباك الحبال . والارصفة مائجة بالخلائق . سيول العرق المتمازجة تسيل من الاجسام المتلبدة . والصلوات والابتهالات لا نهاية لها . وصلاة الجنازة أمام سفن الشحن الضخمة وأمام البحر الغائر وراء السد وأمام السكك الحديدية المتقدمة هناك الى أعماق البحر البعيدة. الحمالون في خصوماتهم غير مبالين بما سيحملون . والانتظار الممزق للنفوس يأكل الاجسام ولحمها السريع التهيج والانفعال . والبحر ... البحر دائما وأبدا ! وهو يبيد ريّاته

بعد أنقل كاهلها وأرهقها ذلك القدر العظيم من احتمايل الخياني . وصوت المؤذن في صفائه وجلائه وقد أفعمه الملح واليود المتعفّن النتن . وتجديف مدحني «الكيف» وقد اعتصموا وراء الصخب الهائل . والاربطة ... وصيحات البحارة بصوت أجش أبح يقطعون بها كلام الناس الهزيل كما يحدث ذلك في عمليات البيع بالمزاد . والخوف من تصور أمي وباقي النساء الاخريات وقد تعلقن بمغالق الشبابيك وأرسلن بالاطفال بعيدا عن الدار يستطلعون الاخبار بينما يصل موكب الميت . وإذ ذاك سيكبر الناس ويحوقلون في جميع الغرف . ترى أين المفر ؟ لقد كانت حركات اليهودي واشارات محياه الايمائية وقد جاء الى هناك مخاطرا بحياته تبعث في نفسي أشد الغيظ . وستسير عربة الموتى سالكة طريق الارصفة المبقعة ببلاطات صغيرة عتيقة وستترجرج عجلاتها على فضاء الارض وقد يبسته الحرارة . وستكون الصلوات والابتهالات عجيبة خارقة وسط ذلك الخليط الزاخر من الخلائق والبحر . واخيرا وصل المرفاع : لم يكن في صورة هذه الآلة وقد مسكت بخبثة زاهر الا الاهانة المحض . ولكن ما العمل ؟ وها هو التابوت قد أخذ بعد في التأرجح معلقا في مسمار معقف ضخم . كأنه قد اغراه التدحرج والسقوط في البحر . ورفع جميع الخلائق عيونهم الى السماء : كان لشكل الصندوق الكبير من خشب البلوط وهو معلق هناك في الفضاء شيء من الغرابة والشذوذ واللاواقعية . ونزل الصندوق ببطء شديد حتى خيل الى القوم أنه لن يدرك الارض أبدا . وكان جميع الحاضرين في حيرة وقلق . ونسي شيوخ الدين مآخذهم على الميت . وفجأة وقف المرفاع محدثا صوتا يشبه السعال الخفيف الشاق . وبقي التابوت معلقا بين السماء والارض . وانطلق من الجمع همهمة ترجرجت لها صفوفهم اذ رأوا في ذلك علامة ترمز الى شيء مبهم . واذ ذاك عيل صبر اليهودي ولم يعد قادرا على تحمل أكثر مما فعل فانصرف وعلى محياه هيئة الكائد المتآمر . وفي الواقع لم يكن واحد منا واجما للوضع المضحك الذي كان عليه ذلك

التابوت الضخم وهو معلق بين البحر المعذب على صخور الجسر الصوانيه وبين الارض الغارقة في شبه اغماء تحت انعكاسات اشعة الشمس التي لم يبق منها الا احساس غريب بالانتفاش والفيضان انتفاشا كثيفا ناتئا مثل انتفاش الريش الفخم الملون بألوان لا يستطيع المرء أن يقدّر إن كانت وردية أو برتقالية . وكانت الأرض على الدوام تلتهم عيوننا التي بهرتها شفافية الهواء . ومن البحر كانت تجيئنا رائحة مثل رائحة الجبن تمرّ فوق الفواصل المائرة الممزقة المحصورة بين الطين والماء، بين الارض والسماء. وكان لا مناص من الاستمرار في قضاء الوقت عبثا في لا شيء وذلك حتى يتسنى اصلاح المرفاع على يدي بعض العملة وقد أذهلته رائحة التعفن الصادرة عن التابوت الذي كان لا يزال في تأرجحه في العلياء على غرار ما كان عليه زاهر في حياته عندما كان يدخل الرعب والارهاب في قلوب أفراد الأسرة بسبب مواقفه الغريبة ثم يخرج فجأة من صمته ليدخل في حالة من الهيجان المسعور الذي كان يفتت كيانه خلال الحانات حيث كان يترك كل مرة شيئا من روحه. وفي الأثناء كانت اختلاجات الشمس ترهق أعيننا. فكنا نحلم ــ وقد التجأنا إلى ظل احدى سفن الصيد وقد ملئت بسمك الشبق ــ بأن ترتعد فرائصنا بردا. وعبثا كنا نحلم بذلك لأننا كنا جميعا نبحث عن تلك اللحمة الثابتة التي لو وجدناها لكفتنا مؤونة هذا العدد العظيم من المصائب. وكان الوالد كالمخلد لذاته غارقا في تجواله الملائم للمقام، مجتهدا في طمأنة حلفاء العشيرة وهو في ذلك شديد الحذر من الكمائن التي قد ينصبها له جماعة المدخنين، وكانوا يمهدون له للاقتراب منه ولدوس رجليه وتهشيمها وللقذف به في البحر. وكانت تبدو عليه هيئة المصارع الروماني وكانت هذه الهيئة أكثر من موقفه من موت ابنه تجعل سي زبير انسانا لا يطاق في نظر المدخنين وقد ضيّقت منه بعض المخيّلات التي من شأنها أن ينبثق منها عالم يسوده السلام وقد تخلص من جميع هذه الاقلاس الفولاذية التي كانت تضيق الخناق على البحر الذي سيطرت عليه

النار وعمل الانسان. وكان المدخنون لا طاقة لهم على احتمال مثل هذه السيطرة وهم قوم لا يعرفون للبحر الا معنى السعة والخلود وهو معنى مرتبط بمبادرات الاعتداليّين فحسب ويرفض كل اثبات جازم.

واستأنفت الرافعة حركتها، وفي لحظة بصر وضعت حملها المتعفن فأسرع القوم إلى حمله إلى مكان عربة الموتى ولكن الخلائق قد أرعبتهم رائحة الميت المتعفن فتراجعوا إلى الوراء أمام ذلك الصندوق المتخذ من خشب البلوط وقد دفعتهم في ذلك حركة تلقائية ملؤها التضامن. ولم يصمد إلا جماعة المدخنين فحملوا الميت إلى أن أوصلوه إلى عربة الموتى. وبقيت معهم رغم موقفهم الذي أصبح لا يطاق، بقيت معهم بسبب بطولتهم ولكي أجتنب استهزاءهم اللاذع، ترى هل كانوا يريدون الاعتداء عليّ فورا وقتلي « تلنيشا » للأخذ بثأر صديقهم ؟ لا بل كلّ ما في الأمر أنهم كانوا يحتقرونني، وفضلت أن يظل موقفي مبهما وذلك لكي لا أظهر لهم أنني كنت خائفا. وطال بنا المسير وضاقت أنفاسنا داخل صندوق العربة المتداعي ولم ينبس واحد منا ببنت شفة. وازداد الهواء ثقلا على ثقله عندما طفق رفاقي في التدخين وكادت رائحة « الكيف » اللينة الحلوة تحملني على الغثيان والقيء. ولم أتجاسر على أن أثور في وجوههم، وقد لانت أعينهم شيئا فشيئا فتغير شكلها بمفعول النشوة الحالمة التي كانت تدب في نفوسهم شيئا فشيئا. وانقلبت أصواتهم فإذا هي كالمعجونة فيها بحّة وجشة، وتصاعدت من الميت وهو في صندوقه رائحة متزايدة النتونة ! وأما رفاقي فقد كانوا مستمرين في التذمر لأنهم كانوا عاجزين عن تركيز أفكارهم على تلك الصورة (صورة الميت) وقد تعذّر عليهم إدراكها وذلك رغم ادلهمام العالم الذي كانوا يشعرون بأنهم يسيلون فيه والذي تكتسب فيه الأشكال عادة صفاء جوهريا ساحرا بديعا. ولكن الرائحة المقيتة كانت تنقب كالمولب رؤوسنا المصروعة المترنحة صرعها مثل ذلك العدد العظيم من المصائب والانعاب التي لا تطاق، رؤوسنا التي أخذ الآن يخزها ذلك

الدعاء الحاد الذي كان أصدقاء أخي المخلصين يتمتمون به : جماعة من أصحاب الحانات المشبوه فيها ومن وسطاء البغاء بدون حريفات واللصوص بلا ثروة، وكانوا يقاومون رغبتهم في البكاء وقد خذلوا ورسبوا وسط ألمهم من خلال سيجارة سحرية لم يحكموا فتلها، ولكنها بدون أي مفعول في ذلك اليأس الذي غمرهم فجأة أمام ذلك الميت المهجور هجرةُ الوالد والأحباب، ذلك الميت الذي لم يعد يرتجي الا أن تمزق الأم لحمها تمزيقا بليغا إذ كانت وحدها قادرة بمعونة العشيقة على أن تدفع له بسخاء تلك الغرامة الدموية التي يحتاج إليها الأموات حتى يقدروا على تحمل الأحياء. وسارت العربة تترجرج على المساحة المعقودة عقدتها الحرارة. وبقينا نحن حبيسي عجزنا عن إنكار تلك الحكاية وعن الذهاب للتطهر في تلك الخليّجات ذات الجمال الأسطوري، وذلك لكي نخلص عضلاتنا من هذه الفضاءات المبقعة بالنور، ومن اللحم الراكد لحم هذا الميت التائه الحالم.

والتوَتْ صفائح العربة فنام لذلك المسافرون القاصدون دار يمّنا... الغفوة. كان من اللازم صعود جميع ثنايا المدينة وإطلاق صوت البوق في مفترقات الطرق وعدم الانقطاع عن ذلك الانشاد البطيء حتى غاية الوصول الى المنزل. الحرارة، ارتجاجات العربة، ترى هل كانوا على وشك الشروع في توبيخي وتأنيبي ؟ لقد كانوا يحلمون بارتكاب جريمة قتل للتخلص من ذلك الوخم العالق بجلودهم، وعبثا كانوا قد خلعوا سترانهم المتخذة من نسيج صيني من الكتان الأزرق لأنهم بذلك لم يتمكنوا من الشعور بالأمن. وكان العالم قد ضلّلهم لأن الفجر لن يكون له بعد ذلك لين الحرير. وكانوا يخالون أنفسهم في الأحلام وهم ينظرون من خلال زجاج نوافذ العربة إلى موكب السيارات الأخرى الطويل بل لعلهم كانوا يشعرون بالخوف والهلع لمنظر هؤلاء القضاة المسترخين في جلستهم على المقاعد وقد احتقنت عيونهم دما. لقد صاروا لا يثقون في شيء رغم ما بدا على هيئتهم من خيلاء ورسوخ. خلاصة القول أن الميت قد أثر فيهم، وبما أن المخدرات

لم تؤثر فيهم فقد كانوا يشعرون بأن عصابة التجار ورجال الشرطة وقرّاء القرآن يطاردونهم ويضيّقون الخناق عليهم وقد كانوا يكرهون قرّاء القرآن كرها لا حدّ له. هل كانوا يرغبون في القفز من العربة وهي تسير وتسليمي لهلع البقاء وحدي وجها لوجه مع الصندوق حيث استقر زاهر وقد بقر بطنه الدود الشرس ؟ كلا ! لأن وفاءهم كان يضاهي اشمئزاز الآخرين من جثة الأخ الذي هدمته خيبة الأمل بعيدا عن أرض الأجداد وقد أهينوا بهذا الحادث غير المتوقع الذي زاد في ضعف احتمال وقوعه ان زاهرا بدأ يشفى من حزنه، وبما أنه أدرك سن النضج فمن البديهي أن يرجو المرء تحسن حال ذلك المنشق المتنكر لحزبنا والذي زعزع منذ وقت قصير وبدون سابق انذار أركان تقاليد الأسرة الأبدية التي يحظر على المرء بمقتضاها أن يموت خارج الارض المقدسة، أرض عصابة الأعمام المثاللة وجوههم وأرض الوالد الفظّ الشرس. واختنقت أنفاسنا داخل العربة حيث كان ندمان زاهر القدامى مستمرين في انشادهم لقصائد عمر ذلك الشاعر الكبير المجهول لدى الجمهور المشبع قرآنا وأحاديث نبوية والذي كان يجهل جهلا مدقعا ثقافة الأجداد الدنيوية.

لما وقفت سيارة الموتى أمام دار أمي استقبلنا فجأة عويل النساء وقد أسلمن أنفسهن إلى جنون هستيري جذري فأيقظن بذلك المدخنين من غفوتهم ونصب التابوت مباشرة على الأرض في أجمل غرفة من غرف الدار، وجلس الناس حوله قبل حلول ساعة الدفن وكان موعده قد ضرب إلى ما بعد القائلة المستعرة. وكانت يمّا وزبيدة وقد هدّأ قرب الجثة من روعهما وافرغهما من جميع مقوماتهما الذاتية تبكيان ذلك الابن وذلك العشيق الذي ردّ إلى الجمود الأصلي الأول وإلى تلك النتونة المريعة. وطلب القوم مقاومة روائح الميت فأحرقوا لذلك أعواد العنبر ولكن عبثا فعلوا لأن الرائحة سيطرت على كلّ شيء وعلقت بوجوه الحاضرين الدبقة وقد أوشكوا على الاغماء وكادوا يقيؤون جماعة. فاضطررنا الى رشهم بماء الورد وإلى

المدعاء الحاد الذي كان أصدقاء أخي المخلصين يتمتمون به : جماعة من أصحاب الحانات المشبوه فيها ومن وسطاء البغاء بدون حريفات واللصوص بلا ثروة، وكانوا يقاومون رغبتهم في البكاء وقد خذلوا ورسبوا وسط ألمهم من خلال سيجارة سحرية لم يحكموا فتلها، ولكنها بدون أي مفعول في ذلك اليأس الذي غمرهم فجأة أمام ذلك الميت المهجور هجرهُ الوالد والأحباب، ذلك الميت الذي لم يعد يرتجي الا أن تمزق الأم لحمها تمزيقا بليغا إذ كانت وحدها قادرة بمعونة العشيقة على أن تدفع له بسخاء تلك الغرامة الدموية التي يحتاج إليها الأموات حتى يقدروا على تحمل الأُحياء. وسارت العربة تترجرج على المساحة المعقودة عقدتها الحرارة. وبقينا نحن حبيبي عجزنا عن إنكار تلك الحكاية وعن الذهاب للتطهر في تلك الخليّجات ذات الجمال الأسطوري، وذلك لكي نخلص عضلاتنا من هذه الفضاءات المبقعة بالنور، ومن اللحم الراكد لحم هذا الميت التائه الحائم.

والتوَتْ صفائح العربة فنام لذلك المسافرون القاصدون دار يمّنا بهذا الغفوة. كان من اللازم صعود جميع ثنايا المدينة وإطلاق صوت البوق في مفترقات الطرق وعدم الانقطاع عن ذلك الانشاد البطيء حتى غاية الوصول الى المنزل. الحرارة، ارتجاجات العربة، ترى هل كانوا على وشك الشروع في توبيخي وتأنيبي ؟ لقد كانوا يحلمون بارتكاب جريمة قتل للتخلص من ذلك الوخم العالق بجلودهم، وعبثا كانوا قد خلعوا ستراتهم المتخذة من نسيج صيني من الكتان الأزرق لأنهم بذلك لم يتمكنوا من الشعور بالأمن. وكان العالم قد ضلّلهم لأن الفجر لن يكون له بعد ذلك لين الحرير. وكانوا يخالون أنفسهم في الأحلام وهم ينظرون من خلال زجاج نوافذ العربة إلى موكب السيارات الأخرى الطويل بل لعلهم كانوا يشعرون بالخوف والهلع لمنظر هؤلاء القضاة المسترخين في جلستهم على المقاعد وقد احتقنت عيونهم دما. لقد صاروا لا يثقون في شيء رغم ما بدا على هيئتهم من خيلاء ورسوخ. خلاصة القول أن الميت قد أثر فيهم، وبما أن المخدرات

لم تؤثر فيهم فقد كانوا يشعرون بأن عصابة التجار ورجال الشرطة وقرّاء القرآن يطاردونهم ويضيّقون الخناق عليهم وقد كانوا يكرهون قرّاء القرآن كرها لا حدّ له. هل كانوا يرغبون في القفز من العربة وهي تسير وتسليمي لهلع البقاء وحدي وجها لوجه مع الصندوق حيث استقر زاهر وقد بقر بطنه الدود الشرس ؟ كلا ! لأن وفاءهم كان يضاهي اشمئزاز الآخرين من جثة الأخ الذي هدمته خيبة الأمل بعيدا عن أرض الأجداد وقد أهينوا بهذا الحادث غير المتوقع الذي زاد في ضعف احتمال وقوعه ان زاهرا بدأ يشفى من حزنه، وبما أنه أدرك سن النضج فمن البديهي أن يرجو المرء تحسن حال ذلك المنشق المتنكر لحزبنا والذي زعزع منذ وقت قصير وبدون سابق انذار أركان تقاليد الأسرة الأبدية التي يحظر على المرء بمقتضاها أن يموت خارج الارض المقدسة، أرض عصابة الأعمام المثالّة وجوههم وأرض الوالد الفظّ الشرس. واختنقت أنفاسنا داخل العربة حيث كان ندمان زاهر القدامى مستمرين في انشادهم لقصائد عمر ذلك الشاعر الكبير المجهول لدى الجمهور المشبع قرآنا وأحاديث نبوية والذي كان يجهل جهلا مدقعا ثقافة الأجداد الدنيوية.

لما وقفت سيارة الموتى أمام دار أمي استقبلنا فجأة عويل النساء وقد أسلمن أنفسهن إلى جنون هستيري جدري فأيقظن بذلك المدخنين من غفوتهم ونصب التابوت مباشرة على الأرض في أجمل غرفة من غرف الدار، وجلس الناس حوله قبل حلول ساعة الدفن وكان موعده قد ضرب إلى ما بعد القائلة المستعرة. وكانت يمّا وزبيدة وقد هدّأ قرب الجثة من روعهما وافرغهما من جميع مقوماتهما الذاتية تبكيان ذلك الابن وذلك العشيق الذي ردّ إلى الجمود الأصلي الأول وإلى تلك النتونة المريعة. وطلب القوم مقاومة روائح الميت فأحرقوا لذلك أعواد العنبر ولكن عبثا فعلوا لأن الرائحة سيطرت على كلّ شيء وعلقت بوجوه الحاضرين الدبقة وقد أوشكوا على الاغماء وكادوا يقيؤون جماعة. فاضطررنا الى رشهم بماء الورد وإلى

اخراجهم الى صحن الدار. وبقي سي زبير وبقية الأصحاب خارج الدار أمام الباب يرتلون الآيات ويشربون المبردات المثلجة. وأما أنا فقد كنت أمشي وأجيء متمسكا حولهم باحثا عن « هيماتلوس » اذ لا بد أنه سيحضر موكب تشييع الجنازة. وعلى أنني كنت أفعل كلّ ما في وسعي لكي لا أبقى وحدي مع الوالد الذي قد أعمى بصيرته اقتناعه بأنني أنا الآخر سأموت عما قريب فأخلصه بذلك من كل مخوفاته على الميراث. وكنت من حين إلى آخر أنظر إليه بعين البغض والحقد فكان يبدو كأنه أدرك معنى نظراتي فيتلعثم في كلامه ويغيّر بلا انقطاع من جلسته بيد أنه كان من الواجب ألّا أوفر له مهربا فكنت أفضل إذن أن أتركه ينتشي بيقينياته الفظيعة حتى أتمكن من احكام فضح أمره في ذلك اليوم الذي سأقرر فيه قتله فأثأر بذلك لموت أخي الذي لقي نحبه في سن الخامسة والعشرين ثائرا ساخطا لأنه لم يتمكن من خنق الجنين، وكان عويل النائحات وترتيلات القرّاء تُقطع من حين إلى آخر، يقطعها صوت أحد الاعمام الهائل أو صوت بعض أصدقاء الأسرة المتحمسين وقد ارتفع بالتكبير والتعظيم. فكان ذلك يزيد في لا واقعية جو المأتم لأن الشمس كانت تضفي على الأشياء وعلى الوجوه ضربا من الوجوم أقرب إلى الحلم منه إلى اليقظة. وكانت البلاطات المرمرية البيضاء وقد هجرتها القطيطة تزيد في حدة ذلك الشعور بالتفاهة وعدم الجدوى المشوب بالسخرية والغرابة. وبرز اليهودي وقد تنكر في زي مضحك لا يتصوره العقل، فكان بروزه كافيا لاضمحلال الواقع اضمحلالا نهائيا. ووصل الى المكان منسترا يسير والحائط وقد بدت على لحيته علائم التوبة وغرقت يداه وجبهته عرقا. ولم يقف الا عندما وصل الى مكان المدخنين فأسلم أمره لهم غير متجاسر على رفع عينيه والنظر إلى الجماعة المنكوبة وقد لاح على شفتيه ابتسامة النشوة والذهول. وكنت أقر رغم كلّ شيء بأن في اصرار هذا اليهودي على حضور جنازة أحد المسلمين كثيرا من التجاسر. ولكنني كنت حانقا

عليه لأنه قد غادر الميناء في تلك اللحظة الحاسمة لحظة تعطب المرفاع، وكنت أعرف أيضا أنه كان يبحث عني وقد ارتبك وسط أثوابه الراجعة الى الأزمان الغابرة واندفع من نكبة إلى أخرى معرضا نفسه الى خطر الرجم من قبل جمهور رجال الدين. لقد ملكتني الغيرة لرؤيته وقد أحاط به المدخنون في بشاشة هم الذين كانوا يرفضونني ويضربون حولهم سياجا من الضراوة والعداء البدائيين بمجرد ما كنت أوجه لهم الخطاب (ألم يكن الأمر يصل بهم إلى حدّ استعمال لغة غامضة اصطلحوا عليها كانت تصل بي إلى منتهى الذهول ؟) واذ أغادرهم كنت أذهب ملتمسا من زبيدة نظرة تعاطف كانت تجتهد في حرماني منها لأنني قد ارتكبت غلطة وهي أنني لم أمت عوضا عن ذلك العشيق الذي كانت تطمع فيه منذ أول عهدها به والذي لم توفق الى اغرائه قط. وانتهى الأمر باليهودي إلى أن عثر علي وقد غرقت في مناجاة ذاتية محمومة كنت أحاول بواسطتها أن أتلاءم مع الوضع الجديد الذي نجم عن موت زاهر المفاجيء. من المؤكد أن يمّا ستعبدني وتزيد في حبها اياي. وكنت قلقا حائرا لتصور تلك العاصفة الهوجاء التي ستجتاحني وأنا كالشجرة المحروقة وسط فوضى هذا الهذيان المسهد وهو هذيان قد اضطلعت به ألف مرة ومرة ولكن بصورة منحرفة عند كل مرة، أنا ذلك المارد الفاجر الزاني بما حرم الله، أنا الذي أصبحت لا أدري ماذا أصنع بجسم ليلى الذي لوثه بفائض حيويتي، أنا ذلك العشيق المتحجّر القلب من جرّاء موقف الضرة المنكبة كالمصروعة على ذلك التابوت القادم من وراء البحر ليعكر صفو عالم قد هدأ هدوءا مؤقتا لكنه عرضة لخطر الالتهاب لو حدث أدنى سهو. ترى هل كنت على وشك شتمه لأنه قاطعني وأنا غارق في تأملاتي المتأججة ؟ لا اذ لو فعلت لكان قادرا على رميي بالعنصرية. فلا ينفك عن ذكر أسطورة اليهودي الهائم الذي ينشد وهما لا ينال. فظللت صامتا وقد تمزقت نفسي بين عدة رغبات متناقضة متنافرة بل وخادعة في واقع الأمر. وخلاصة القول أنه كان

يضايقني في حركاتي فلم أعد أجرؤ على الذهاب الى غرفة الميت خوفا من أن تكتشفه أمي قابعا في زيّه التنكيري الأحمق. وتجاوزت رائحة الخراء حدود الصلف والزهو وغلب النساء فرط الأسى على الميت فهدأ روعهن شيئا فشيئا. وأما أنا فقد أخذني الخدر فطفقت أرتجي أن يخيم الصمت على الدار ولكن لم يكن ذلك إلا هدأة عابرة لا سيما أن مدخني « الكيف » كانوا يتعهدون الاضطراب بالرعاية فيمنعون بذلك كل هدنة حقيقية.

يوم الاربعاء. الساعة الخامسة بعد الظهر. وأحدث رفع الجثة مظاهرة أخيرة، كانت النساء يلتوين فيها ألما لا سيما أنه لم يكن لهن الحق في الذهاب إلى المقبرة. وكانت يمّا أشد تحفظا من الضرة التي كانت ترفض كلّ تواطؤ أو تنازل وتحقّق فيّ النظر في شموخ وتبعث في نفسي الرعب بسبب هيئتها التائهة هيئة المرأة التي شدت الى بعض القوى الخارقة شدا وثيقا فتمكنت من نفسها تلك القوة بدون هوادة ولا انقطاع. وكنت أعرف أنه لن يسلم منها أحد في المستقبل حتى ولو كان سي زبير، اذ كان مسؤولا في نظرها عن موت أخي ذلك الكائن الذي جللته في نفسها، وتحرك الموكب غير آبه بهيجانات النساء الأخيرة، وكان التابوت محمولا على أطراف الأيادي الممدودة يحمله شبان المدينة، وكانت الجموع غفيرة، ولم يخفوا حزنهم وأساهم. ولكن كان هناك بالخصوص عدد من الصعاليك غادروا السجن منذ حين أو هم على وشك دخوله قد قدموا من « القصبة » أو من الميناء وكانت هيئتهم تبعث على الدهشة والاستغراب حتى في مشيتهم الثابتة المصممة بينما كان الآخرون يجرون خطاهم متباطئين في سيرهم منذمرين من شدة الحرّ. كان الصعاليك شديدي الحذر والاحتراز بمجرد ما كان المرء يوجه لهم الخطاب. البلودجينات محلولقة رتة. واللحي غريبه الشكل، والابتسامات شيطانية، كانوا جميعا تلوح عليهم هيئة الأذى والضرر فكانوا يسحقون بشموخهم بقية أفراد الموكب يقودهم في ذلك

قيادة السيد لعبيده بائع الشموع الذي أفلت لحين من حمائل رافعة تهدي زوجته تلك الحمائل الطاغية المهيمنة.

وكان اليهود كثيري العدد ولما كانوا قد جاؤوا أقوياء الجانب بعددهم فان أحدا لم يتجاسر على تحديهم : كانوا كلهم أصدقاء زاهر في السابق. ولم يكن الشيخ عمار أقلهم فخرا، فكان يتمتم قائلا : « أنا الذي علمته شرب الخمر، ما أجملها ميتة ! » وفي رأس الموكب كانت المجموعة الصوتية تنعب رثيها من فرط الانشاد والترتيل، وكان الصدى يضفي على أصواتهم خلال المدينة السفلى رنّة جشّاء خاوية. وكان الموكب ينتشر فيزداد تضخما بانضمام جماعة من المتسكعين قد أثار دهشتهم اتساع تلك الأمواج البشرية المتدفقة وضخمه كذلك التحاق عدد من البطالين الباحثين عن بضعة دوانق وعن صحن من الكسكسي وعدد من الأطفال كان انقوم يجتهدون عبثا في طردهم. وكنت أنا وهيمالتوس وقد دفعت بنا الجموع الكثيفة المتزايدة، كنا في حالة غفوة في تلك الحرارة التي يجف لها كل شيء. فلم نكن ندري ما نصنع في تلك الضوضاء المصمة للآذان التي سيدفن في وسطها زاهر وسيسلم للدود والصخر الذي سيقطع شيئا فشيئا تابوته ويخترق لحمه حيث ستجد بعض نباتات الجنطيانا البرية ملجأ لينتهي بها الأمر إلى الانفجار والايناع وقد هاجت أوراقها الكثيفة وهي تلتهم جسم ذلك المذنب المصر على ذنوبه، ذلك الجسم الذي صدّعته جيوش الدحاميض الجرارة التي ستضع عددا من العساليج في عيني الجثة. وكان من اللازم الاستمرار في المسير قدما في ذلك الزحام والتسلّل بعسر لشقّ طريقنا إلى التابوت الذي كنّا نتناوب في حمله عاليا جدّا ونحن نصرخ بنفس الدعاء. وكنت أشعر بصورة متقطعة بغرابة تلك الوضعية ومهزلتها، ويخزني الشك حتى يؤدي بي إلى الشعور برغبة في الضحك كنت لا أقوى على ردعها بسبب ذلك بالخصوص كان موقف هيماتلوس وهو يتخبط في الألفاظ العربية ولا يعرف من لغة دعائنا الا القوافي. كان يفتح فاه ثم يغلقه

...هما بذلك سائر القوم بأنه كان يسيطر على نص الدعاء سيطرة تامة ...ن لم يكن واحد منهم ليخدع لذلك : بل كلّ ما في الأمر أنهم كانوا ...لون وجوده على سبيل التسامح فحسب ! وكنا وقد خارت قوانا بسرعة ...ك مكاننا لبعض الشبان الآخرين وقد أسرعوا إلى القيام بعمل تضامني ...ه الفقيد وذلك بأن يحملوا تابوته بضع خطوات من طريقه إلى القبر ؟ ...كان رفيقي لا يغفر لي مبالغاتي وتهوراتي وكنت أهدده بأن أفضح أمره بين الجمهور المطلق العنان فينزل به إلى منزلة سائر اليهود الذين كان يمقت لمحتهم الجزائرية العبية وميلهم إلى أكل اللوز المملح. وكان يصير مستعدا إلى جميع التواطؤات فيتركني أضحك ويستمر في اختلاس النظر إلي ليرى إن لم أكن في نهاية الأمر على وشك اضاعة رشدي. وكانت نظراته أحيانا ...لغ من الغرابة حدا كنت انقطع معه عن إزعاجه : كان يخيل إليّ أنه على وشك الانتحار وفي الواقع كنا قد أصبحنا لا ندري ما نصنع فكنا نبحث عن فجّ ننفذ من خلاله بدون أن نتعرض إلى أخطار بليغة وذلك لأن الحالة كانت في تدهور برأس الموكب : لقد بلغت الفوضى منتهاها وقد عمد إلى تعهدها بالرعاية أعوان سريون في خدمة عصابة الأعمام المتألقة وجوههم ...قد بلغوا حدود ذلك الشك الذي كان يمزق نفوسهم ويدفعهم إلى المساؤل بدون مراوغة عما إذا لم يكن الميت قد زنا بأزواجهم في سالف الزمن. كانوا يرتجون أن تزل أقدام حاملي التابوت على بعض الحجارة الملعونة وقد برزت بفعل معجزة من الاسفلت المنبسط الأملس وأن يوقع ذلك الفضاة — بعد طائفة من الحوادث الغريبة — في الحيرة والارتباك بصورة حدية فيقرون العزم في آخر الأمر على هجر الموكب أمام مشهد الجثة وقد أفلتت من صندوقها المبقور. ولكنهم لم يراعوا في حسبانهم ذلك وزن جماعة المدخنين ووسطاء الزنا وعملة الرصيف وقد انتشروا في خفاء وتستر حسب ترتيب استراتيجي احكموا تنظيمه من قبل وسكاكينهم ذات الفرض ...أهبة لمغادرة جيوبهم وقد استعدوا إلى بقر بطن كل من تحدثه نفسه

بتعكير هذه الجنازة الرّائقة جنازة صديقهم القديم الذي كان دائم الاستعداد إلى مد يد المساعدة لهم بالمال أو بأخراجهم من السجن بفضل معارف الوالد وقد كان يستغل نفوذه بدون إعلامه بالأمر طبعا. ولذلك لم يكن هناك داع إلى القلق : فقد كان الأعمام وشيخ القبيلة عارفين بالخصم حق المعرفة فلن يتجاسروا على تنفيذ خطتهم.

وبمجرد أن وصل الشيخ عمار إلى جانبنا صاح مكررا « ما أجملها ميتة! أتمنى على الله أن يموت جميع المؤمنين ميتة مثل هذه. أن يموت المرء سكران ! يا له من غنم لا يخطر على بال ! آه ليتني أموت هكذا ! » كان يثير أعصابي فوق المحتمل ولكني كنت أتركه يقول لكي لا أتعرض إلى سخريته اللاذعة وإلى عينه المتورمة. وأما اليهودي فكان يتملقه ويضرب ظهره ضربات خفيفة فعل المتواطيء المتواضع. وكأنّ ذلك كان يعجب الشيخ الذي كانت تتصاعد من فيه ريح الخمر شديدة كريهة. كان يود لو ذكر سكراته التاريخية وهو برفقة الفقيد ولكننا لم نترك له متسعا من الوقت لذلك لأننا رأينا بائع الشموع القصير القامة يدنو منا جارًّا ورائه روائح الكافور والعنبر جاء بها من ركام دكانه بسوق العطارين. لا بد أنه كان يريد مطالبتنا بملازمة الهدوء ولكن لما كنا إذ ذاك قد لذنا بالصمت فقد ظل واقفا هناك وقد قطعت الطريق بينه وبين رغبته في الهيمنة وصدمه صمتنا المفاجيء وظل مذهولا وقد رآنا نولول بالدعوات والابتهالات بصوت أعلى من أصوات الآخرين وخارت قواه فجأة من جراء حماسنا الخارق للعادة. المقاهي... واجهات الدكاكين... الشوارع تواجه البحر. ترى هل سنصل في النهاية إلى المقبرة المحصورة بين معمل للشكلاطة وملعب لكرة القدم في قلب الحي الشعبي من المدينة ؟ كانت الألفاظ في أفواهنا تدعك حلوقنا المجروحة دعكا وكان العرق يضفي علينا وجوها متقلصة عديمة الجدوى. وعلى مقربة من المقبرة تضخمت أصوات القراء وفجأة صفعتني حقيقة الأمر الذي كنت قد كبته بمحضر تلك الجموع البشرية الغفيرة كبتا يقلّ

ويحطم. لقد فهمت في تلك اللحظة بالذات أن زاهر قد مات حقا
وعندما وطئت قدماي العشب الكثيف الدسم الذي قد اقتات من جثث
الموتى صممت على الفرار. وسرعان ما وجدتني بعيدا وقد اختصرت الطريق
نحو المدينة وهيماتلوس إلى جانبي يخبط خبط عشواء في ثيابه الواسعة أكثر
من اللازم.

لقد مات زاهر حقا ! ما في ذلك شك !

لقد مات زاهر حقا ما في ذلك شك ! والآن أصبحت هي التي لا تريد تصديقي، ولكن لم تضع موت أخي موضع الشك فإنه لم يكن في وسعها أن تتصور قصة « هيماتلوس ». ودد يطيب لي أن أتركها على تلك الحالة السيئة من التشكك وعدم اليقين فأراها في نهاية الأمر تنفجر إنفجارا من فرط ما نقعت نفسها في وضع عبثي كان في الخلاصة واضحا كل الوضوح. وكان كلانا ينتظر من صاحبه توبة صادقة فكنا نقضي الليل يفنينا بغض قاطع لم يكن أي شيء قادرا على النيل منه حتى ولو كان بروز بعض فراشات الليل فجأة أمامنا من خلال زجاجة الشباك اللعينة المكسورة، تلك الفراشة التي كانت ملامستها الطرية تخرجها من طورها. وكنت لا أبدي حراكا. وكانت تأبى أن تستغيث بي لأخلصها من ذلك الرعب. وفي نهاية المطاف كان الأمر ينتهي إلى ذهاب الخوف عنها فكنت أبقى لذلك كليم النفس كامل الأسبوع. كانت أرض الغرفة تكاد تنهار تحت الكتب والغبار ولم تكن لتبذل أدنى جهد قط لتنظم الغرفة وترتيبها ولو قليلا وذلك لأنها كانت تروم حملي على النفور منها ليتسنى لها بذلك مصاحبتي إلى بيتها الكائن على مرتفعات المدينة حيث كان المكان يزخر

بعدد لا يحصى من الحيوانات البشرية الوردية اللّون المرسلة اللّحي اللذين تحصنوا متدرقين وراء داء فصام النفس والتقوقع على الذات الحادّ العارم وقد أتى ذلك القطيع من وراء البحار إبّان الاستقلال، وسرعان ما خابت آمال أفراده فتجمعوا كالبنيان المرصوص حول أحد دكاكين الجزارين كان يحمل عنوانا مشبوها فيه هو « مجزرة التعاقد الفني » وكان هذا الدكان قائما حي جميل من أحياء الأثرياء شديد القرب من الحي الجامعي. لقد بذلت كل ما في وسعها لكي تقنعني بضرورة الانتقال إلى جحرها الفاخر. (ألم تكن تستعمل المقص كل يوم فتقص به قطعة من تلك البطّانية الوحيدة التي قد اجتلبت من عالم آخر مقابل كفاح داخلي ؟ أو لم تكن تقول إن تقلص البطانية الأعجوبي كان يبعث في نفسها حيرة ما بعدها حيرة). بل وقد كانت قادرة حتى على اتهامي بتعاطي السحر بصورة وراثية وذلك منذ أن قصصت عليها قصة تحولات أمي الطويلة واختلافها على سحرة المدينة. ولكن عبثا كانت البطّانية تتقلص وتنقص فقد كنت مصرا على البقاء في غرفتي قرب مخطوطاتي التي لم تكن تصلح الا لاغراء الأناث وقد بلغن في هذا البلد البحري منتهى النشوة التائهة التي كانت تحملهن على التنقل من مستعمرة قديمة إلى أخرى باحثات عن عقاب منسوري من شأنه أن يستأصل تهويمات خيالهن الشنيعة. وكن مثل « سيلين » قد جئن البلاد لرفع الأمية عن جموع من الذراري الضارين العدائيين الذين كانوا يخافون من الوقوع في منتهى الضّياع والهجران، وكان الأمر ينتهي بهؤلاء الأجانب إلى الاثراء وإلى احتقار سكان البلاد المذكورين وهم قوم لا سبيل إلى الاندماج فيهم لا سيما أن لهم لغة لها وقع الحصى وذات تراكيب متصلّبة معقدة إلى درجة قصوى. وعند ذاك كانوا يستبدلون حي سكناهم بحي آخر ويسرعون في التعايش مع بعضهم بعض دون سوهم، باستثناء بعض الاناث اللائي كن يصررن على محبة رائحة رجال البلد القوية رجال البلد الذين استولى على نفوسهم جنون مطلق فكان دأبهم الجمع بين عدد من العشيقات

الأجنبيات يخلطون بينهن خلطا إلى أن يجيء اليوم الذي يتزوجون فيه إحدى المقصورات من بنات جنسهم تأتي من دار والدها إلى زوجها مرتدية زيا عربيا لا يكاد يتصوره العقل وتتيح بذلك إلى العشيقات الأوروبيات المهجورات فرصة سانحة للتهكم والسخرية، وذلك لاحكاء إخفاء شعورهن بالاهانة والذل ومقتهن لمثل هذه التقاليد والعادات الشاذة أيما شذوذ. وكنت لا أقبل موقف هؤلاء الرجال الذين لا طاقة لي باحتمالهم لوقوعهم في شرك حب المال وأحلام العظمة التي كانت ترجع بهم إلى جنسهم بعد أن رفضوه لحظة فيعشقونه ويدللونه من جديد ويقارنون بينه وبين ذلك الجنس الآخر الخارق للعادة الذي كانوا عاجزين عن التكهن سلفا بسلوكه الغريب أيما غرابة. وهكذا فقد كانت الهوة بيني وبين « سيلين » تزداد اتساعا وعمقا لا سيما أنها كانت تفتخر بأمها تحب العربي الذكي الوحيد في حين أنني كنت شخصيا عاجزا عن تقدير نصيبي من الذكاء. كانت تثير أعصابي، ولما تفطنت إلى تمزيق البطانية تمزيقا نهائيا إذ أصبحت لا تبلغ حد بيضتي طردتها بدون أي تردد ولا وخز في الضمير، وأنا أعلم أنها سترجع حاملة بطانية جديدة لن أقبلها بسبب رائحة الصوف الجديد الباعث على الغثيان. وفعلا فقد رجعت تائبة تحمل عددا من الكتب الجديدة. وكان تراكم الكتب يبلغ حدا جعلني أبيعها عندما كانت تنفذ نقودي وابتاع بثمنها بعض السجائر.

كانت لا تريد أن تصدقني ولكن لم يكن في استطاعتي أن احتمل ذلك الشك الذي كانت ترعرعه عمدا لابقائي تحت رحمتها لما كان في نفسي من عجز عن الافلات نحو متعاقدة أجنبية أخرى أغويها بقصيدة أكتبها على ظهر العشيقة الأبيض العريض وهي مشغولة بتمشيط شعرها أمام مرآة قد ينتهي بي الأمر إلى تهشيمها ولزرع الخوف في نفسها كنت أستأنف الحديث عن الانتحار وأطالبها بأن تقتني لي جميع الكتب التي تعالج موضوع الانتحار والتي لا أقرأها أبدا. وإذ ذاك كان يتحتم عليها أن

بعدد لا يحصى من الحيوانات البشرية الوردية اللّون المرسمنة اللّحي الذين تحصنوا متدرقين وراء داء فصام النفس والتقوقع على الذات الحادّ العارم فمن أتى ذلك القطيع من وراء البحار إبّان الاستقلال، وسرعان ما خابت آمال أفراده فتجمعوا كالبنيان المرصوص حول أحد دكاكين الجزارين كان يحمل عنوانا مشبوها فيه هو « مجزرة التعاقد الفني » وكان هذا الدكان قائما حي جميل من أحياء الأثرياء شديد القرب من الحي الخامعي. لقد بذلت كل ما في وسعها لكي تقنعني بضرورة الانتقال إلى جحرها الفاخر. (ألم تكن تستعمل المقص كل يوم فتقص به قطعة من تلك البطّانيّة الوحيدة التي قد اجتلبت من عالم آخر مقابل كفاح داخلي ؟ أو لم تكن تقول إن تقلص البطانية الأعجوبي كان يبعث في نفسها حيرة ما بعدها حيرة). بل وقد كانت قادرة حتى على اتهامي بتعاطي السحر بصورة وراثية وذلك منذ أن قصصت عليها قصة تحولات أمي الطويلة واختلافها على سحرة المدينة. ولكن عبثا كانت البطّانية تتقلص وتنقص فقد كنت مصرا على البقاء في غرفتي قرب مخطوطاتي التي لم تكن تصلح الا لاغراء الأناث وقد بلغن في هذا البلد البحري منتهى النشوة التائهة التي كانت تحملهن على التنقل من مستعمرة قديمة إلى أخرى باحثات عن عقاب منسوري من شأنه أن يستأصل تهويمات خيالهن الشنيعة. وكن مثل « سيلين » قد جئن البلاد لرفع الأمية عن جموع من الذراري الضارين العدائيين الذين كانوا يخافون من الوقوع في منتهى الضّياع والهجران، وكان الأمر ينتهي بهؤلاء الأجانب إلى الاثراء وإلى احتقار سكان البلاد المذكورين وهم قوم لا سبيل إلى الاندماج فيهم لا سيما أن لهم لغة لها وقع الحصى وذات تراكيب متصلّبة معقدة إلى درجة قصوى. وعند ذاك كانوا يستبدلون حي سكناهم بحي آخر ويسرعون في التعايش مع بعضهم بعض دون سواهم، باستثناء بعض الاناث اللاتي كن يصررن على محبة رائحة رجال البلد القوية رجال البلد الذين استولى على نفوسهم جنون مطلق فكان دأبهم الجمع بين عدد من العشيقات

لأجنبيات يخلطون بينهن خلطا إلى أن يجيء اليوم الذي يتزوجون فيه إحدى المقصورات من بنات جنسهم تأتي من دار والدها إلى زوجها مرتدية زيا عربيا لا يكاد يتصوره العقل وتتيح بذلك إلى العشيقات الأوروبيات المهجورات فرصة سانحة للتهكم والسخرية، وذلك لاحكام إخفاء شعورهن بالاهانة والذل ومقتهن لمثل هذه التقاليد والعادات الشاذة أيما شذوذ. وكنت لا أقبل موقف هؤلاء الرجال الذين لا طاقة لي باحتمالهم لوقوعهم في شرك حب المال وأحلام العظمة التي كانت ترجع بهم إلى جنسهم بعد أن رفضوه لحظة فيعشقونه ويدللونه من جديد ويقارنون بينه وبين ذلك الجنس الآخر الخارق للعادة الذي كانوا عاجزين عن التكهن سلفا بسلوكه العربي أيما غرابة. وهكذا فقد كانت الهوة بيني وبين « سيلين » تزداد اتساعا وعمقا لا سيما أنها كانت تفتخر بأنها تحب العربي الذكي الوحيد في حين أنني كنت شخصيا عاجزا عن تقدير نصيبي من الذكاء. كانت تثير أعصابي، ولما تفطنت إلى تمزيق البطانية تمزيقا نهائيا إذ أصبحت لا تبلغ حد بيضتي طردتها بدون أي تردد ولا وخز في الضمير، وأنا أعلم أنها سترجع حاملة بطانية جديدة لن أقبلها بسبب رائحة الصوف الجديد الباعث على الغثيان. وفعلا فقد رجعت تائبة تحمل عددا من الكتب الجديدة. وكان تراكم الكتب يبلغ حدا جعلني أبيعها عندما كانت تنفذ نقودي وابتاع بثمنها بعض السجائر.

كانت لا تريد أن تصدقني ولكن لم يكن في استطاعتي أن احتمل ذلك الشك الذي كانت ترعرعه عمدا لابقائي تحت رحمتها لما كان في نفسي من عجز عن الافلات نحو متعاقدة أجنبية أخرى أغويها بقصيدة أكتبها على ظهر العشيقة الأبيض العريض وهي مشغولة بتمشيط شعرها أمام مرآة قد ينتهي بي الأمر إلى تهشيمها ولزرع الخوف في نفسها كنت أستأنف الحديث عن الانتحار وأطالبها بأن تقتني لي جميع الكتب التي تعالج موضوع الانتحار والتي لا أقرأها أبدا. وإذ ذاك كان يتحتم عليها أن

تتحالف معي فتسلم أمرها لله وتقبل على مضض روايتي، لقصة الحارة. ويخيم السلام من جديد على تلك الغرفة المقيتة وتتضاءل تلك العنصرية الكامنة التي انعقدت بين بيئتينا وبين طريقتينا في الحياة إلى درجه الاضمحلال إضمحلالا مؤقتا بدوم ما يكفي من الوقت بالضبط لتنضح في نفسينا مآخذ أخرى. وإذ ذاك كنا نعود إلى عمليات النكاح والزنا الوقيرة وإلى قصائد الشاعر الفحل عمر، وإلى الاستماع لنوبات المالوف الاندلسية التي كانت تمنع الجيران من النوم. وكان الجيران يخافونني حوفهم من الشيطان (ألم أكن في نظرهم مريضا عقليا على اتصال بالقوى الخفية، الخطيرة على كل من تحدثه نفسه بأن يكون عرضة لغضبي ؟) وكاد يكفيني أن أشد منشفة حول رأسي حتى تزداد هيئتي الشيطانية شيطانية وحتى يتقهقر أمامي جميع أولائك الهمج من الجيران الذين كانوا يغطون في سباتهم الشرعي في صلب حظر وتحجير كانا يمنعانني من التمتع بلذائد الشهوة الجسدية بينما كانوا هم يتسللون منذ الفجر فيرتادون المواخير الخطرة حيث كانوا يعرضون كرامتهم وتعصبهم أمام جماعة من القحاب البدينات اللاتي كن يتسللن طلبا لاثارة اعجابهم واهاجة شهوتهم باقحاء بعض قوارير الكوكاكولا في فروجهن.

كنت أصيح في الجيران قائلا : « ضموا أشداقكم !» فيتوفر لي بعد ذلك شهر كامل من الهدوء أقضيه في الزنا بسبلين وفي الاغماءات الشهوانية المبالغ فيها وكنت أفعل ذلك لارعاب الجيران أكثر مما كنت أفعله لارضاء نفس سبلين. وكنت اعرف أنهم كانوا عالقين بالجدار الفاصل بيني وبينهم وهم عاجزون عن أن يستعملوا ضدي أدنى جزء من قوتهم القمعية. وكانت العشيقة تضحك من مثل تلك الوضعية. ولمنعها من الافراط في التهكم على بني جنسي كنت أعرف كيف أنزل بها الى منزلة « المتعاقدة الفنية » وكانت تخشى ذلك فوق كل شيء لأنها كانت تعرف بأي معنى كنت أفهم تلك التسمية وكنت أتخذ ذلك تعلة فأطفق في اعادة بناء

القصة وما ادراك ما القصة من نهب واغتصاب نساء وتقتيل وتذبيح فأتحدث حتى مطلع الفجر عن القبيلة كيف خرجت من الفوضى فغرقت في فوضى أخرى أعسر احتمالا وذلك لأننا قد بلغنا سن المسؤولية وانفجرنا بسبب الافراط في النضج ولفرط ما انتظرنا طائر العقاب المتعفر نهارا وسط حماقاته الفاحشة والممزّق ليلا لدواب تسلخ وهي حيّة. فكانت تخضع وتنصت اليّ. فكنت ألقي عليها دروسا في السياسة العليا كانت تتوقع نهايتها بدون أن تفهم إواليّاتها. ولقد كانت محقة قطعا في تفنيد نظرياتي ولكن نتائج تقويم الحساب كانت على درجة من التعاسة المفجعة كانت لا تستطيع معها معارضة أقوالي عندما كنت أدعو إلى تعفين الوضع السياسي قصد تحضير الانتفاضة الثورية بأكثر احكاما.

كانت تمشي جيئة وذهابا في الغرفة الضيقة وإذا أرادت اجتناب الأشياء المتراكمة التي تضايقها في مسيرها اضطرت إلى التخلع في مشيتها فتهتاج لذلك في نفسي الشهوة العدوانية. وكنت أوفق في النهاية إلى اسكاتها وذلك حتى لا أقع في الاحبولة الواضحة التي كانت تنصبها لي في خداع راجية بذلك إقامة صلح نهائي بيننا. ولم يكن في وسعي قبول مثل ذلك الحل، لأني كنت أخشى أن تدخل سيلين في مناجَياتي الذاتية غير المعقولة ــ بل والموهوبة أحيانا بسبب قدرتي الطبيعية على التظاهر والتكلف التي كان يكبو لها جواد كل من كان له صلة بي. وفي المساء كان يخيم على الغرفة جو هادىء وديع وتفوح منها رائحة البحر الغائطية وقد أحاط به الميناء فحصره حصرا. وكانت تلك الرائحة تصل الينا النفحة بعد النفحة فيفرح لها القنع الذي كان يحدث ثقبا بليغة في خشب قطع الاثاث القليلة المبعثرة في الغرفة المشرفة على حوض الميناء المبلط بالأخضر والأزرق. فكان ذلك المسافر الكامن في اعماق نفسي يهدأ روعه أمام البحر الوافر الأبيض اللون بيّضته السفن الباحثة عن بعض الأماكن الوعرة المليئة بالأخطار لتتزود منها بالماء. وكنا نطفىء الضوء في ذلك المحل لمنع البعوض

من الدخول، ونستريح طيلة ساعات وساعات بالنظر الى حركة الماء وقد تحول لونه إلى ألوان صارخة ساطعة. وكانت تلك هي الساعة غير الثابتة التي كان يطيب لي فيها التبرد بالنسيم العليل وجمع أشلاء أفكاري المبعثرة وذلك لاحكام تحديد موقفي من احداث حقيقية لا شك فيها. وكانت سيلين في تأرجحها بين البحر والهذيان تصير لا تعرف إلى أي انهيار تسلم نفسها، حتى إذا ما اعياها الاختيار الحاسم استسلمت إلى كليهما وغلبت على أمرها قبل أن تسلم بالهزيمة وقد ضاقت ذرعا بذلك الانسجام المنطقي الداخلي الموجود في قصتي الخيالية التي كنت أستبقيها فيها سجينة لاهثة. وكانت توفق إلى متابعة قصتي وإلى التعلق بيقيناتي وإلى الانقطاع عن الشعور بالضيق بسبب حماقاتي التي كانت تنعتها منذ حين بكونها خيالية، وذلك لأنها كانت تريد التواطؤ معي على مسعاي ولو اقتضى الحال تشجيعي على ابتكار تفاصيل وجزئيات مدهشة لم أكن قد فكرت فيها، ولأظهرت هي الأخرى براعة نادرة في تحوير ما سبق أن نضدته وبالغت في احكام تنضيده أيما مبالغة ! وكنت في كل لحظة أتوقف عن سرد قصتي لأذكرها بأن كل ما قلته لها بشأن الجنازة حق واقع وأني لن أقبل منها أي جدال في ذلك لو كتب لها في يوم من الأيام أن تحاول اعادة النظر في جميع تلك القضية. ترى هل ستذكر من جديد حكاية ذلك اليهودي المتنكر في صلب موكب الجنازة ؟ لا إذ أنا هو الذي كنت اتحدث عنه في الأكثر وذلك لأني كنت أشعر شعورا غامضا بأنها لم تكن قد غيرت عقيدتها تماما وانها كانت تتظاهر بذلك فحسب لكي لا تثير غضبي. على أنها كانت تخشى إرهاقي وتريد أن تجنبني نكسة اعود من أجلها إلى المستشفى كلفها ذلك ما كلفها. إذ لو حصل ذلك لأضطررنا إلى إعادة القضية ولعدنا لننطلق من حيث بدأنا. ترى هل كنت في السابق عشيق ليلى ؟ وهل مات « زاهر » حقا ؟ وكنت، وأنا أريد اجتناب هذين السؤالين اللذين كانا يوسوسان في نفسي بدون انقطاع واللذين كنت أعرف الجواب عنهما

أطلق من جديد في سرد قصة قد سبق لصديقتي أن سمعتها ما في ذلك شك. إلا أنني أحليها بروايات مختلفة جديدة حتى تختلط عليها الأمور فلا تعود تميز الصحيح من الباطل. وكنت أغتنم فرصة إندهاشها لتضييق الخناق عليها ولكي أقحم في نفسها هذا العالم التي كانت مصرة على الاعتقاد بأنه محض اختلاق اصطنعه خيالي المريض الا أنها كانت تنتهي لكي لا تكدر خاطري إلى تصديق كل ما كنت أقوله لها،فلا تنفك عن سؤالي أسئلة عديدة للتثبت من صحة أقوالي السابقة. وكنت كلما تقدمت في سرد قصتي أجدها تفقد شيئا فشيئا تصلبها الأول فكانت تتركني هادئا حتى أول ساعات الفجر زمن إغفائها، تاركة إياي وحدي أمام برودة الصباح الطالع. وإذذاك تصبح كلاشيء فكان يخيّل إليّ أنّها جثة ممدودة على المفرش الضيق الذي ستغزوه الشمس بعد حين عندما تعود مراكب صيد السردين الأولى إلى الميناء محملة بحمولات بديعة. وكان إيقاظها يشعّ في نفسي فرحا عظيما. كانت تلك هي اللحظة التي أكتشف فيها حناني أمام ذلك الوجه الذي أكله النوم والتهمه نور الفجر اللبني اللون. وإذ ذاك كانت تجمل في عيني فكانت شفتاي إذ تلامسان بشرتها الباردة كالثلج تكتسبان برودة جديدة كنت أحاول التمتع بها أطول وقت ممكن لعلمي أن المسكن سيصبح بعد حين لا يطاق تحت وطأة تأجج الشمس، وأن سيلين ستصبح شرسة فظّة. وعند ذاك لن أدري ما أقول ولا ما أصنع لأنني سأكون قد مكنتها من السبق. وكانت تعرف كيف تستغل تلك الفرصة فتخلع ثيابها وتحاصر الصنبور الوحيد الموجود في جحرنا تحتكره طيلة ساعات وساعات وذلك ليتم لها الاستخفاف بنظريتي المتعلقة بشدة نظافة النساء المسلمات التي مردها ضرورة الوضوء خمس مرات في اليوم قبل كل صلاة. وكانت تغضب علي بالخصوص لأني قد أيقظتها فكانت ترفض الخروج لاقتناء علبة سجائر لي من نوع « باسطوس » متعللة بكوني لا أعرف كيف أهيء القهوة التي كنا نشرب منها فناجين ضخمة

محرقة قبل انصراف سيلين الى معهدها. فلكأن الفضاء قد تدمر فجأة وضاق. وقبل انصرافها كانت تطلب مني أن أعدها بالذهاب إلى الكلية لحضور بعض الدروس المملة المضنية. فأعدها بذلك ولكني كنت لا أذهب هناك أبدا، لأنه قد اتفق لي في السابق أن نمت في قلب درس من الدروس المنبرّية ؟ فنالني من ذلك ما نالني من غضب الأستاذ الطاعن في السن ومن احتقار الطلبة إذ لم يغفروا لي ما اقترفته من ذنب باظهار لامبالاتي إلى نهاية الحادثة.

كان يطيب لسيلين في الأيام التي كنت لا أتذكر فيها شيئا عن نفسي أن تستمع إليّ أحدثها عن فترة مراهقتي التي كان « لول غير ربع » القيم الكورسيكي بالمعهد يلعب فيها دورا عظيما. كنا جميعا نكرهه. وكان الأساتذة يخصونه بحقد متأصل فيهم لا سيما أنهم كانوا لا يستطيعون الجهر به. وكانت القضية تتلخص بالخصوص في اجتنابه وعزله عزلة اجبارية حتى ولو كلفنا ذلك التضحية بهيجاننا وتعويضه بهدوء تكتيكي محض كان المعلمون يفهمون ضمنيا ضرورته. وإذ ذاك ينعدم كل نظام فكان من شأن ذلك أن يبعث في نفس ذلك الرويجل الشرس موجات من الغضب الصامت كنا نترصد أدنى مظاهرها : كان يزبد ويرغي في خفاء. وعندما يشعر بعد بضعة أيام بأن الخناق قد ضيق عليه وأن قيمته الوظيفية لم يعد لها جدوى يغير طريقته ويتحول إلى إنسان جذاب. ويبلغ به الأمر في النهاية إلى الابتسام بإستمرار فنتساءل نحن من قرارة نفوسنا عما إذا لم يصبح معتوها حقا؛ إذ لو حصل ذلك لوجب علينا إيقاف عملية عزله الاجباري على الفور. إلا أن الأساتذة كانوا سرعان ما يطمئنون شكوكنا ويشجعوننا على الاستمرار في مقاطعته إلى أن ينهار رئيس القيمين انهيارا نهائيا. ذلك القيم الذي كان جسمه في هزال مستمر باد للعيان. وكان يتوسل إلى زعمائنا راجيا إياهم أن يضعوا حدا لهذه اللعبة المفرطة في الوحشية متعللا

بأنه قد أصبح رجلا طاعنا في السن فوق ما يلزم وأنه سيحال قريبا على التقاعد فينصرف إلى مكان بعيد جدا عنا وأنه يلتزم في انتظار تقاعده على رؤوس الملا بأن يغير سلوكه إزاءنا تغييرا جذريا. فكان كلامه يغرينا بتسجيل أقواله عليه تسجيلا رسميا وأن نرجع إلى سلوكنا الطبيعي بأن ننظم عمليات من التشويش وأن نتركه يعاقبنا على أعمالنا الخرقاء، إلا أننا كنا نخشى دائما الوقوع في بعض خدائع ذلك القيم ولكن مع مرور الزمن كان الملل يدخل قلوب جميعنا فنسأم هذه الحالة غير العادية ونقبل إستسلام ذلك الكورسيكي الطاعن في السن. وبعد بضعة أيام من البشاشة وحتى من التواطىء معنا كان القيم يتغلب عليه ميله إلى الارهاب مرة أخرى فيأخذ من جديد في مطاردتنا خلال الازقة الموحشة ويرتعد غضبا بسبب وصول أحدنا متأخرا ببضع ثوان وفي تأنيب الأساتذة وكانوا غاضبين علينا لأننا قد وضعنا حدا لتلك الفترة من الهدوء الوقتي بينهم وبينه فكانوا ينتقمون منا بأن يعاقبونا بحبسنا في المعهد أطول وقت ممكن. وكان السيد « لوكوك » (10) أستاذ التاريخ والجغرافيا يمثل سلاحا ذا حدّين فكان ينساب علينا كالعاصفة الهوجاء بمجرد ما كان القيم يسترجع مشمولات نفوذه فكان يزعق في وجوهنا : « يا عرب يا أبلد خلق الله ! لا تظنوا بالخصوص أنكم قد ابتكرتم البوصلة ! » ولم يكن في وسعنا أن نغفر له هذه الشتيمة لا سيما أننا كنا نعرف أنه محق بشأن البوصلة ولكنه لم يكن في نظرنا محقا في أن يكشف النقاب عن وضع كان الافضل عندنا أن تبقى الامور فيه غارقة في غموض مقصود كنا نتعهده بالصيانة والرعاية. وبالتالي كانت جدران المعهد تطلي بصيحة الديك تخطها ليلا فرق تخريبية بأتم معنى الكلمة، كانت تعمل لفائدة حقوق العرب. وعندها كان « لول غير ربع » يتحول الى رجل عنصري مكشوف فينحاز الى جانب الاستاذ لوكوك الذي يصبح لا يتجاسر على اختراق صحن المعهد خوفا من اثارة هيجان التلامذة. فكنا ننظم اضرابات ضد القيم العام وانصاره وكنا في كل

مرة نضرب فيها نفوز بالنصر المبين ونفرد السيد لوكوك فينسيه ذلك حكاية البوصلة. وبفضل قدوم استاذ تقدمي شاب اشتدت راديكالية نضالنا. وأصبحنا نرفض منذ ذلك الحين كل حل منقوص مع الكورسيكي. ودفع انذارنا الاخير بذلك القيم إلى تقديم استقالته، فذهب بدون رجعة وتخلصنا منه !

لقد تشتت العشيرة في تلك السنة شرق البلاد واشتدت بالمعهد الدعاية للحركة الوطنية. لقد كنا نحرر مناشيرنا باللغة العربية ونعقد اجتماعاتنا بتلك اللغة دون سواها. واذ ذاك انقطعت الصلة بيننا وبين الاستاذ التقدمي الذي كان يحثنا على خلق لغة جديدة مشتركة بين مختلف بلاد العالم بدل الوقوع في مشارب التعصب القومي الذي هو من عيوب البورجوازية الصغرى. وكنا في تلك الفترة نختلف على دروس العروض العربي وكان الاستاذ اثناء تلك الدروس دائم الانتشاء. كان علينا تقطيع كل بيت حسب ايقاعات الشعر المختلفة وذلك لنتمكن من احكام وزنه. فكنا نقضي أوقات الدرس في الصراخ ملء حلوقنا ونحن نحرك رؤوسنا ذات اليمين وذات الشمال على غرار الاستاذ الذي كان يأخذه طرب بالغ وقد أغمض عينيه نصف اغماض وحرك يديه حسب نغمة ايقاع الوزن. لقد كان وهو على تلك الهيئة يبلغ من الاضحاك حدا كان لا يسعنا معه الا الاغراق في القهقهة. فكان ضحكنا يفاجئه وهو مغرق في شغفه الساذج بالشعر فيتوقف فورا مجروح العواطف فوق ما يحتمل لرؤيتنا نضحك بينما كان هو على وشك ذرف الدموع غبطة وسعادة وقد أخذ منه ذلك الايقاع البديع مأخذا عظيما وتوغل في احشائه فحركها تحريكا. فكان يحرد بقية ساعة الدرس حتى اذا كانت الحصة الموالية منع علينا تقطيع الأبيات انشادا كما جرت به العادة واقتصر على خط جداول معقدة على السبورة كان يفسر لنا بواسطتها مختلف أوزان نظم الشعر. ولكننا كنا نعرف حق المعرفة ميله الى الايقاع الشعري فكنا نجد دائما وسيلة نحمله بها على الانشاد والتقطيع :

كانت حيلتنا الى ذلك أن نتظاهر بعدم الفهم. وعبثا كان يكد ويجد مستعينا بجداوله وارقامه فقد كنا لانسمع ولانعي شيئا فيأخذه الهلع لضآلة وضوح دروسه ضآلة تبلغ مثل هذا الحد فيقع في الفخّ المنصوب ويطفق في تقطيع أحد الابيات غايته في ذلك تحسين طريقة افهامنا. فكنّا نقطع بعده بصوت جماعي فيجلس الاستاذ على كرسيه مهزوما سعيدا في آن بهذه النعمة غير المتوقعة ويتناول مسطرة ويتيه في تخميرته. وكان من حين الى آخر يفتح عينيه وينظر الى مجموع التلامذة وجها لوجه ويقول بصوت المشجع : نعم ــ هكذا ــ يالله. لم يعد ثمة داع لمعرفل يعرقلنا فكنا نبلغ في انشادنا قمة النشوة العظمى. ويعود الطقس المقدس الى مجراه الطبيعي حتى اذا تجاسر بعض اساتذة الفرنسية الى القدوم علينا والتشكي من الصخب تجاهله أستاذنا واستمر في عمله بل وزاد على ذلك مشجعا ايانا بصوته البديع حاثا ايانا باشاراته. لقد كنا في الواقع نبحث عن القيام بعمل سياسي من خلال دروس العروض العربي : كنا نريد إثارة الحوادث واستفزاز الادارة التي كانت تقف من نشاطاتنا الوطنية موقفا عدائيا. لقد كنا ونحن محتمون بدرع البرنامج وشخصية الاستاذ نشعر بأننا قادرون على تصويب ضرباتنا الى كل من كانوا لايريدون الاعتراف بحقوقنا فلم يكن في وسعنا اذن أن نضيع مثل هذه الفرصة التي كانت تسمح لنا بالتظاهر بصورة سلبية وباثارة الهمم داخل المعهد. وكانت أخبار التلامذة ترفع الى الشرطة فكانوا يغادرون المعهد الواحد بعد الآخر للالتحاق بصفوف العصابة التي مضت تبحث عن كيانها الذاتي والتي كانت لا تستطيع جمع شتاتها الا في الشعاب الضيقة والمغارات التى أحرقتها الشمس والقنابل.

حذار حذار ! لقد تفطنوا الى أمرنا والذنب في ذلك ذنب استاذ الحسابيات. هي دائما نفس الورطة. هذا الاستاذ . جاسوس خائن. وقد حذرنا من ذلك الأستاذ الشيوعي الذي قامت بيننا وبينه جفوة. ان استاذ

الحسابيات جزائري وهو عضو من اعضاء شعبة المعهد التي كانت متصله بالعصابة بواسطة فلاح كان دائم التجوال بالمدينة يجر وراءه بقرة شدت بحبل. ما العمل ؟ علينا وحدنا تدبر أمرنا. مجلس حربي. الاستاذ الخائن مستعد لرفع اسمائنا الى الشرطة فعلينا اذن التخلص منه فورا واعادة تنظم الشبكة. ان سي زبير هو الذي يخفي آلة سحب المناشير باحدى مغازاته إلا ان ذلك لم يكن كافيا لتحسين علاقاتنا. فهو ماض في بغضي ومقتي. واستقر رأينا على عملية تخريب : ننزع براغي السبورة قبل درس الخائن ونحتال حتى تسقط على رأسه فتهشمه عند أدنى لمسة يلمسها بها. وتفننا في تحضير ذلك الاغتيال بكل دقة وعناية : هاهو ذا الاستاذ الشرطي يدخل القسم. انتظار ثقيل الوطأة. ها هو ذا يكتب على السبورة وتنفصل تلك الكتلة الخشبية الضخمة عن الجدار ولكن الاستاذ يطبقها عليه بحركه هادئة، لقد نجا ! لقد كان على حذر. لقد نجا بأعجوبة ! ها نحن نطأطىء رؤوسنا ولا ننبس ببنت شفة. أتت جماعة من العملة فأصلحوا ما فسد من امر السبورة. وتواصل الدرس. علينا بمغادرة المعهد بسرعة قبل مقدم الشرطة. وتفرقنا جميعا. علينا أن نعثر على الفلاح صاحب البقرة وان نربط الصلة ونلتحق بالعصابة التي كانت تجتهد أثناء مسيرتها الشاقة المضنية في اجتناب الاحابيل والكمائن ودفع عداء السكان لها ولمّا يقتنعوا.

كانت سيلين مصغية الي ولم تهتد الى اكتشاف أي شطط في روايتي. ووضعنا بصورة مؤقتة حدا للعداء القائم بيننا. فكانت تساعدني على اعادة بناء الحوادث التي سبقت لقائي بالعصابة ثم مسيرتنا المشتركة بين اشجار النوبال والقطلب التي صعقتها الشمس. كنا نلهث متعطشين الى النفوذ والامتلاك وقد بدا لنا في طلبهما كثير من المغامرة وذلك بسبب الاسطورة التي تفشت وتفرقعت فغدت لا يؤمن بها أحد. كان علينا الظهور ثم المسير في ارتجاج الى ابد الدهر على وتيرة تحرك القرمزيات المنتشرة

بيننا وبين خيال من كانوا يريدون الاغارة علينا في صلب قائلة لزجة دبقة كانت تغالطنا أثناءها أحلام شائكة شوكها من شرار النار المتصاعد وسط بعض عمليات التقتيل في بلد كان للعدو فيه علينا مطلق النفوذ. الظهور واللهاث في ظل بعض مدافن العظام المكدسة، والضرب ثم ترك جروحنا تشخنها الندبات ونحن بين فكّي الاحتضار التي كانت تتفاقم مقاييسهما فجأة فاذا هي كالهوة السحيقة. لقد كان موتانا يتحدون الزمان والمكان بفضل زهرة الخشخاش التي كنا ننشقهم رائحتها قبل أن نغطيهم ــ نظرا لحرارة الطقس الشديدة ــ بالجير المحرق فلا يبقى منهم أي أثر. لقد كنا في تجننا نركض في طريق غير تلك التي خطتها إرادة أجدادنا المحاربين الذين فرضوها علينا فرضا مدفوعين قسرا الى قبول الحلول المنقوصة أمام قوة العدو الغائر الذي قذفوا به على أرضنا كالقنبلة يقذفها المنجنيق فأصر وتعنت على الاتيان على جنسنا. وكان علينا أن نتدبر الامر بمفردنا لأنه لم يكن لدينا في الحقيقة لا إرث ولا وصية ولا مسيرة مرسومة من قبل. وكان الاكبرون منا سنا يعاملوننا معاملة سيئة جدا ولعلهم كانوا يأتون ذلك بدافع الغيرة منا ونحن نطالع ــ كلما صادف ان توقفنا عن السير ــ كتب الشعر والحسابيات والسياسة العليا بينما كانوا هم لا يفقهون منها شيئا وقلوبهم تتلظى لهفة على معرفتها. وكنا نضطر الى الاغراق في ضحك لا قدرة للمرء على ايقافه كما يفعل طائشو التلاميذ وذلك لاسكات الفلاحين الحذرين الذين كانوا كالحراشف الغليظة الحقيقية التي تمنع كل احساس بما يختلج تحتها. هل كانوا يغفرون لنا لهجتنا الخاصة ؟ بدون أي شك لأنهم كانوا يحترموننا في قرارة نفوسهم ويسهرون ليلا حول مخيماتنا الهزيلة لمنع جوارح الطير من التحويم فوق بطانياتنا اليابسة الخشنة، وكانوا يريدون أيضا نصب كمين للايقاع باستاذ الحسابيات سبب مصائبنا. ولكن التفكير في تحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة كان يزعجنا فنرفض رفضا باتا مثل هذا الحل الشديد الصرامة مفضلين عليه افناء اصواتنا

بالشتم والوعيد لهذا الخائن الذي لاشك ان اصحابنا المتسترين بالمدينة والمنظمين للنضال داخل الاحياء الشعبية قد ضيقوا عليه خناق المطاردة. وكنا واثقين من أنه لن ينجو منهم. ولكن ما أن يعرض علينا القبض عليه عارض حتى نرفض ذلك متعللين ببعض الاستحالات المنطقية المجردة التى كانت تبعث الدوار في رؤوس رؤسائنا وتتضارب مع منطقهم وكانوا يقبلون في النهاية حججنا ويختلسون الابتسامات ضاحكين من تخوفنا من أن نجد أنفسنا من جديد وجها لوجه مع استاذنا في السابق الذي من شأن القبض عليه أن يطرح من المشاكل أكثر مما يحل منها. وبعد التوقف فترة ما كنا نستأنف المسير باحثين عن بعض شجيرات العرعر لنختفي منطوين تحتها ريثما تجيئنا رائحة التقتيل فتوقظنا من تخدرنا. ثم كنا نتسلق القمم للزيادة من ادماء أقدامنا المنهوكة التي قد تفتحت فيها شقوق وتخاريم قذرة دنسة، كنا نشعر فيها بأكال يبعث على الجنون وكان جنوننا ذلك يذهب عنا عندما كنا نلمح بعض النتوءات الصخرية ذات المسام المبشرة بوجود بعض الصخور المجوفة الجليلة فندور خلفها فنلقى البحر.

كانت سيلين مصفية فأصبح من البديهي أكثر فأكثر أن العداء والضراوة قد ذهبا عنا وانقطعا عن تخريب أنفسنا وعن تعفين علاقاتنا. كان يطيب لها أن تسمعني أتحدث عن تلك الفترة غير الثابتة، أذكر منها صورا مشكوكا فيها ورسوما أمامية كبرى دقيقة بلغت من الوضوح في ذاكرتي مبلغا عظيما. كان الحصى يخرق يدي وسط منظر طبيعي قفر تخدد بعمل الشمس ورحيق الافسنتين وهو عمادي ومناصري في سكري وضلالي وهو المسكن يهدىء من ألم تلك التمزيقة التي كنت أعالجها سيء المعالجة ليلا نهارا لكي اعتصر منها نفي جميع اعمالي التجنينية المشوشة المعكرة لصفو نظام مقيت حتى الى النغمة الاخيرة التي يحدثها في نفسي ذلك الوالد المشقوق نصفين والممزق اربا اربا والذي كنت أبحث عنه تائها هائما

منقطع الانفاس أشد عنفا من عنف مسيرتي الراكضة. لقد كانت جميع هذه الذكريات تحوم حول تلك البطانية ذات لون الحرير الخام المنسوجة بتشيكوسلوفاكيا والتي ورثتها عن « الكاهن » الاعظم الذي قتلوه مباشرة بطرف السلاح لأنه كان يطالع ماركس فيُوشم كيانه هكذا الى أبد الآبدين ويقبع في صلب تغيّر كرغوة الصابون. وذكرت لأول مرة الكاهن الاعظم أمام سيلين وكانت تصدق ما أقول لابسبب ما فيه من مصداقية ولكن احتراما لبنود ذلك التحالف الضمنّي الذي كان يربط بيننا، وأنا واجل من ذلك اللون الامغر الذي يغرق فيه ضميري كلما رويت حياة العصابة الكبرى الهائمة منذ أن هجرت المعهد. واذن فقد أورثني الكاهن الاعظم كل ما عنده : أي بطانية وبعض الكتب نصفها محروق أحرقوها أثناء حريق عمومي أمر به جماعة السفاحين. وقد تمكنت من انقاذ البطانية بعد نزاع وخصام ماكرين. وكان عليّ منذ ذلك الحين أن أجرها معي حيثما حللت ولم يهتم احد بهذا الارث الذي أورثنيه الكاهن الاعظم. حتى حل ذلك اليوم الذي خطرت فيه ببال سيلين تلك الفكرة الغريبة فكرة تقطيعها قطعا صغيرة لكي تقتلني بردا. ترى هل كان في وسعي أن أغفر لها هذه الخيانة تجاه الكاهن الاعظم الذي قتلوه بسبب ترويجه كتبا تحرض على التمرد على الدّين وعلى التآخي بين الطبقات ؟ كلا لقد كانت سيلين معترفة بنفسها بذلك الا أنها لم تكن تقدر قيمة تلك البطانية الملعونة التي أضحت لاتغطي أي شيء منذ أن أحدثت فيها تلك المرأة العاشقة التمزيقة العمياء. وكنت إذ أتحدث عن شيخي الفقيد أعرض نفسي للخطر لأن العصابة كانت يومئذ بيدها السلطة والنفوذ الاعظم وكان لايطيب لها أن يذكر المرء تلك العمليات التي وقعت فيها تصفيات الحسابات فأودت بحياة الاخيار أودى بها شرذمة من الانذال قذف بهم كما تقذف قذائف المنجنيق الى قمة المجد والسلطة وتجاوزتهم أحداث الوضع الجديد الذي اصبحوا فيه فرجعوا الى أصلهم الأول المشؤوم. ترى ماذا جاؤوا يصنعون في

صلب الثورة ؟ لم يكونوا ضالين فحسب بل لقد جاؤوا في وقت غير مناسب ليشفوا غليلهم ويطفئوا تعطشهم الى تربة الاجداد وأرضهم في الهواء المحرق الذي تفوح منه رائحة شجر الأوكالبتوس المحروق ؟ تلك الارض المدمرة دمرتها قوى غير سليمة لم يكونوا يعرفون عنها أي شيء بل لم يكونوا يرغبون في معرفة أي شيء عنها. ثم ها هم الآن قد انقلبوا فأصبحوا يعطسون داسين أنوفهم في مناديل معطرة بزهر عود القرنفل وينشوق التبغ. لقد كانوا يأبون التفكير في المستقبل ويمشون فيه القهقرى كما يفعل إربيان البحر وكان امتلاك تلك الاراضي الشاسعة الخصبة الشيء الوحيد الذي كان يبعث النشوة في نفوسهم على حساب ذلك المخاض الطويل الذي كان ينتظر الشروع فيه والذي كانوا لا يأبهون به. وكان ذلك هو السبب الذي قتلوا من أجله الكاهن الاكبر بأن اطلقوا عليه الرصاص من الخلف فقد كان في نظرهم مفرطا في الاهتمام بالمستقبل ومقصرا في الاهتمام بالحاضر وعلاوة على ذلك فقد كانت تنبؤاته تبعث الخوف في نفوسهم لأنها كانت مريعة : ألم يكن يتكهن بمستقبل يكون فيه الرعب المسلط على الشعب السمة الغالبة المسيطرة على سياسة جد ديماغوجية تقوم على فصاحة الكلام وعلى تشييد المساجد الفاخرة حتى تجيء اليها الجماهير فتنسى بها مطالبها ؟

وكانت سيلين تعرف الان أن الكاهن الاكبر كان على حق لأنها كانت ترى المدينة ترتفع فيها شيئا فشيئا المآذن الممشوقة والحانات الأمريكية فتغشيها تغشية بينما كانت الفاقة في تفاقم وتعاظم والارياف في زحف وهجوم على المدن المزيفة العاجزة عن اطعام من تجتذبهم اليها من الخلائق تلك المدن المطوقة بالبحر والتي تغور في احشائها تلك الارصفة المستطيلة الضيقة وهي محض من الهياكل المتخذة من الاسمنت والفولاذ. تلك المدن الخاصة بالتبقنوقراطين وسوء النية. اصبحت تعلم الآن ولكنها لزمت الصمت اذ لم تجد ما ترد به على تحليلاتي ولكنها لم تكن قادرة على الاقلاع

عن المبالغة في ذلك العذاب الذي كان يحدثه في نفسها البطانية الممزقة : يا له من موقف شعودة لايطاق ! لقد كانت مسؤولة، ترى هل كانت تبكي في تلك الغرفة التي لم يعد يشدها اليها أي شيء ؟ كلا، لم تكن تبكي الآن وقد رأتني أطفو من جديد وسط صفاء ذهني الشخصي وأوضح كثيرا من النقط التي ظلت الى حد ذلك الوقت غامضة بل قل مشبعة بالأوهام أيما اشباع وذلك بفضل فترات صمتي ونوبات غضبي المفاجئة المتعلقة بتفاصيل وجزئيات كانت تجهل أهميتها الحيوية. كلا لم تكن تبكي أو لا تكاد تبكي إلا قليلا أثناء فترات لقاءاتنا السيئة الطالع التي كان الحلم يلتقي فيها بالمعقول ! كانت لاتبدي حراكا. وكنت اذ تراها جامدة في تلك الهيئة النهائية تخالها تستوعب ظلها الذي كان يجعل هيئتها أقرب الى الزوال وأقل احتمالا. وكان الليل يلم بنا وقد عادت الينا فجاة وداعة غرق فيها جسمانا معا. ولم يعد يصلنا من الميناء أي بصيص من نور لأن السفن كانت قد انصرفت جميعا فكنا لعلمنا بذلك الفراغ الهائل تحت شباكنا نكره انارة النور وذلك لكي لايعرف أحدنا الآخر من خلال وجهه الشاحب ولكي أضفي على تصوري لذكرى الكاهن الاكبر ضربا من الجلاء النهائي التام. فكنا نفضل مداعبة بعضنا بعضا واكتشاف أحدنا لصاحبه شيئا فشيئا على وميض سجائرنا المحمر ونؤثر الانقطاع عن الحديث عن شطط العصابة الكبرى التي ركنت في ذلك الوقت الى الراحة بعد الحرب التي خاضتها وتتمتع بغبطة مدهشة. كان يطيب لي أن تدللني سيلين وكنت أظفر من جديد من خلال شعرها الذي بيّضه البحر قليلا برائحة حنانا الأول الذي غيّرته منذ ذلك العهد مختلف ضروب المشاكل الحقيقية وغير الحقيقية. وكان يتفق لنا أن نبقى على تلك الحال الاسابيع الطوال نتمتع بالسلام وقد رجع، ولكننا كنا في تلك الهدأة الوقتية التي لم تكن في الحسبان نرفض التواطؤ مع رؤساء العصابة الكبرى ونرفض تذكر موت الكاهن الاكبر الذي كنا نتناكح تحت بطانيته بدون انقطاع. عندها

كنا نذهب لقضاء لياليا على الشواطيء المقفرة الملائمة لانشاد القصائد التي لاتنتهي والتي كنا نقطعها على ايقاع صوت الامواج المصم للأذان ولكننا كنا كلما تقدم بنا الليل نأخذ في الخلط بين جميع الاشياء وذلك بسبب خوفنا من أن لانكون على قدر كاف من الفطنة بالنسبة الى وضع كان بالرغم من كل شيء صعبا عسيرا. فكانت الاشكال يمتص بعضها بعضا بصورة تثير الغيظ، وتتخلص من كيانها المحترق في لذائذ الشمس التي اختفت منذ فترة طويلة. وكنا لكي لانجمد من البرد نأوى ثانية الى غرفتنا الحقيرة التي أطلقنا عليها لقبا فخما فسميناها : « فيلا السعادة » فننتظر بها عودة سفن صيد السردين. فكانت تظهر أمامنا وقد التصق بعضها ببعض خلسة تتقدم بانتظام الى أن تبلغ المرسى المتنوع الالوان حيث كانت الاصوات تطفو صادرة عن الفجر اللبني اللون كما لو كانت صادرة عن حلم يقظة خارق : يالها من لحظة عظمى ! وكم كان النوم يخز قفانا. لقد كنا نقاومه بكل ما أوتي جسمانا المنهوكان من قوة وقد تصلبا مع ذلك بسبب ذلك الصراع غير المتكافىء القوى الذي كنا نقاوم به طلوع كل صباح في فصل الصيف. إنه الشعور بأعضائنا متجمدة يابسة ويخلفنا وقد جرحتهما الرطوبة، وهو التألم من ذلك التعب الحلو الجاثم بين أعيننا وقد لدغهما ذلك الحلم الذي كنا على وشك التحجر فيه فننام ونستيقظ مذعورين بسبب الكوابيس، فاذا كنت أول من استيقظ زاحمت العشيقة ولثمت وجهها وقد قبحه التعب والبرد.

ـــ هل صدقت بموت الكاهن الاكبر ؟

ـــ لم أصدق بذلك كل التصديق.

تجيب بذلك وقد تشنجت أعصابها لأسئلتي التي كانت تمنعها من النوم ومن جمع ركبتيها الى ذقنها في ملجئها الاقصى لكي تتمكن من التخلص من أوهامي وهوسي.

وهكذا لم يحصل أي تقدم بل ظلت جميع الامور تنتظر من يقوم

بها. بيد أنه هناك يقين واحد هو حبي لسيلين. ولكن ضميري كان يسألني أن أعيد النظر في كل شيء مرة اخرى.

ان الطفولة هي الاخرى كانت كذلك تدميرا ! لقد بدّدنا كل شيء ولم يبق شيء ما عدا تلك الخدشة القذرة المحفورة على أديم الحلم، ذلك الكابوس الذي تحول الى لون دم أمغر كان يجف في الصحن الكبير في دار الأم المطلقة حيث كانت القبيلة في حالة تعاس بعد القيام بطقوس ملحمة الماء. وكانت البرودة الوحيدة تأتينا من كدس متجمع من البرّاقات كان لمسها تتجمّد له نفوسنا وتنكمش في آن. ولكنه كان يتحتم علينا مطلق التحتّم أن نطرد تلك الدوييات الباردة إذ لو لم نفعل لماتت من شدة الحر وسط أكداس متراكمة من الكسكس الجاف على ملاحف قاسية البياض.

لا. لم يكن هناك أي ملجأ ! كنا قد شرعنا في وقت مبكر جدا من حياتنا ومنذ نعومة اظفارنا في الاختلاف على الحانات ذات رائحة الحبق والخشخاش المدسوس تحت أفخاذ العاهرات قصد إخفائه في الليالي التي كانوا يخشون فيها نزول الشرطة. لقد كنا قد شرعنا في وقت مبكر جدا من أعمارنا في ارادة القفز للعوم في ماء الميناء حيث كان ساسة العربات الذين يجيئون لتعويم خيولهم يعتدون على شرفنا بين صندوقين من صناديق البطيخ

بدون أن نفقه لتلك القضية معنى. ان ما كنا في حاجة اليه هو مغادرة المنزل وترك مشاجرات النساء وهجومات الاناث اللائي قد احرقتهن ليالي الصيف الهائلة وترك صلوات الاعمام الجماعية لننصرف بقيادة زاهر الى حيث كان الماء أكثر حمأة ووحلا للعثور على الوالد وللايمان بسعادة ما وقد امتزجنا بمدخني الحشيش وبقحاب المواخير المسنات وللايمان حيث كان من المحتمل أن نصادف شيخ العائلة وهو ينقد حظياته السوقيات نقدا سخيا كالملوك قبل أن يستنزلهن في فيلات قائمة على هضاب مدينة الجزائر. لقد كنا نتيك أكثر النساء وشمات أي اللائي كانت لهن رائحة ما زالت عالقة بجلد بطونهن التي نخرتها ندبات طويلة ناتجة عن عمليات قيصرية. هي رائحة الارض اللاذعة العنيدة التي لن تبارحهن أبدا: كم كانت شاقة على النفس تلك التجولات عبر الأزقة الصغيرة إثر صلاة العشاء حيث كنا نذهب لننعم برؤية ساقية حمراء قلوية المادة لامرأة طاعنة في السن قد خلعت سروالها وجلست على كرسي قصير واخذت في تمرير يدها في فرجها المغضّن جيئة وذهابا تقوم بذلك على غرار عملية إيلاج ذاتية كانت تزيد في حدة حقد الشعب الذي غادر المساجد منذ فترة وجيزة فانقضّ مهاجما اولائك الفلاحات ذوات العيون المكحلة. لقد كنا نصاب في سويداء قلوبنا وذلك لأننا كنا نضطر الى الجدال الممل اللحظات الطوال مع الكافرات الجالسات وراء أبوابهن القصيرة هدفنا الوحيد من ذلك حملهن على التلفظ بألفاظ جنسية كنا نعشق سماعها من أفواههن اذا لم يكن لدينا نصيب من المال لكي يجوز لنا ولوجهن. وكان كل ذلك يساعدنا على تعزيز مناجاتنا الذاتية التي ظلت سابحة في ابهام ضمائرنا الفتية مثل القروح في صلب الواقع الكثيف التابع للأمور العادية المبتذلة التي كان الوالد والأم وعصابة الاعمام وبنات الاعمام يمثلون أدق معالمها وأثمنها رغم كل شيء. ولكننا كنا ننفذ من عيون شبكة الحياة الجماعية فننظم ألعابا ذات قوانين قاسية كانت الاباحية الجنسية أجلى خصائصها :

من عمليات جماعية نجلد فيها عميرة في القسم وذلك لمجرد ما يتصدى بريق من جسد فيهز أجسادنا من الرأس الى أخمص القدمين والذنب في ذلك ذنب المعلمة وكانت مفرطة في الثقة واحسان الظن بنا، وكنا قد صممنا على قتل عشيقها، ومن عمليات اغتصاب خرقاء نعتدي فيها على بنات أعمام بعيدات قد جئن لقضاء عطلهن في الدار الكبيرة فكنا نطالبهن بخلع ثيابهن خلعا فنيا كان يصعد في أفواهنا طعم النحاس الذي كان يذكرنا برائحة الدم الشديدة الذي كان يسكب في جميع سواقي المدينة عند الاحتفال بعيد الاضحى، ومن نساء كنا نترصد أفخاذهن البيضاء الملساء أثناء صلوات التراويح بالمساجد في شهر رمضان وذلك بمجرد ما يركعن للتسبيح لله ولرسوله. لقد كان التدمير في نفوسنا منذ طفولتنا المنهوكة من جراء السباق لاكتشاف الوالد القضيبي الذي كان نصف واقعي ونصف خيالي وقد تاه وسط سحره المؤذي واستأثرت به نساؤه الكثيرات. كنا نطارد خياله الوقح والواثق بنفسه بدون هوادة ولا أمل، فننتقل من أحجية الى أحجية ونندهش للعدد المتزايد من أنصاف الاخوة وأنصاف الاخوات الذين كانوا يعرقلون مسيرتنا نحو الاكتشاف العجيب اكتشاف ذلك الشيخ الظالم. ولكن رحلتنا الطويلة كانت تغوص بنا في غمرات تعاطي الكحول والزنا بالمحارم. لقد حدث انفصام الصلة في نقطة ما وبصورة نهائية، فأصبحنا بعد متلهفين للعثور على الثلمة فنتخاصم مع القبيلة القبيلة التي تحولت فيما بعد الى عشيرة مضيقة وذلك لكي تتمكن من إحكام إصدار أوامرها وسن قوانينها واقتضاءاتها. ترى أي مستنقع وأي سلخ قد كنا اجتنبنا ؟ لا شيء. لم نجتنب شيئا وذلك لأن الحكم علينا كان صلبا راسخا منذ طفولتنا التي حرّفتها هوائل لا مفر منها كهوائل يوم القيامة. كانت يمّا محورها الدائر اذ قد عميت بصائرنا أعماها حبنا العنيف لأمنا الذي كان يجعلنا على مشارف الزنا بالمحرمات والتدمير في عالم ظل مغلقا مسدودا في وجه تحسسنا وهو تحسس بذرات شريرة مبددة في صلب الأمومة الملتهمة.

وكنا لا يسعنا تذكر طفولتنا بدون أن نتنفس هواء ذلك الجو المفعم برائحة لحوم الوحوش وبعر الخرفان الاسود. لقد كنا نعرض على عيون الناس خرفاننا الشهور تلو الشهور وكنا نحملها على التناطح لاعلاء شرف القبيلة بأزقة الاحياء العربية من المدينة قبل أن نذبحها وسط مجموعة من الطقوس الفاخرة قوامها الدم والبخور والصراخ. لقد كان عيد الاضحى يمثل في نظرنا أهول بلاء وأروعه وذلك لانهم كانوا يجبروننا على حضور الحفل الذي كانوا يقتلون أثناءه عدة رؤوس من تلك الدواب وذلك لتخليد تضحية نبي كان مستعدا لقتل ابنه للفوز بمرضاة الله. وكنا نظهر شيئا من العداء لتأكيد الفارق الموجود بيننا وبين سائر اعضاء القبيلة. فكانوا يتبرؤون منا وكان ضلال شيخ القبيلة السيء الطوية يدفع بنا الى حالة من الرعدة والقلق الجنوني الخاصة بالمصابين بداء الصرع، الواثقين بصورة مفرطة بأن الحق معهم. لقد كنا نخاف قدوم يوم العيد الذي كنا نتخبط فيه في الدم وقد ثخن بعد في حلوق تلك الدواب وذلك قبل أن يتجمد على الأرض بزمن طويل، فينقلب الى صفائح قرمزية اللون كانت تتحول إلى لون امغر ثم اسود وذلك كلما زادت الشمس في صعودها نحو أكسمت. وكانت الدار تسترجع جيشانها في كل عيد من الاعياد الا أن عيد الاضحى كان يُحدث جوا من التجنن العام ترعاه عمدا النساء عاشقات دم البهائم المذبوحة قرابين لضرورات ماورائية ولكن وعود الولائم المقبلة كانت تذهب بكل تدين. وكانوا يوقظوننا في الصباح الباكر جدا لكي نشهد عملية الاعدام، وكانت أبصارنا المضطربة بمفعول بقايا النوم العالقة بأعيننا التي كانت تريد نفي الواقع البديهي كانت تصيّر المشهد صاخبا والاشكال حادة. لقد انغرز قلقنا الناشيء وبغضنا للدم انغرازا عميقا في نفوسنا منذ ان اكتشف زاهر ذلك الاكتشاف المرعب الحزين وراء باب المطبخ. وقد كنّا في الواقع عند كل تضحية في عيد الاضحى نخشى على النساء من أن يمتن شيئا فشيئا بسبب سيلان الدم من فروجهن سيلانا خبيثا مؤذيا

كنا لا نرى له مبرّرا. لقد كانوا يأتون بنا قسرا لحضور موت تلك الدواب التي كنا قد زينا قرونها بشرائط من صوف نسجناها بأيدينا، حتى اذا أخذتنا حركة من الخوف فارتددنا نحو الشارع طلبا للخلاص من تلك المذبحة ومن رائحة الدم والبول التي ستراود احلامنا الكابوسية طيله القائلات المقبلة تصدى لنا عم من عصابة الاعمام مهددا مزبدا فسد الطريق في وجوهنا تساعده على ذلك النساء ولا وعي لهن بذلك الترابط الذي كنا نتصوره بين حلق الحيوان المذبوح وبين فروجهن الندية المخضلة بل تراهن يسخرن من قلة رجولتنا ويصرخن متعجبات من تقززنا وخوفنا من مشاهدة الكبش وهو ينعظ قبل أن يموت في بحثه الدائم الابدي عن الايلاج المنقذ من الاحتضار وقد تمطط في اباحية وفجور نحو بعض الاناث متوهما أنه سيشفي للمرة الأخيرة في صلبها غليله على ذلك النحو الغريب حيث كان الخوف يتحول الى التذاذ جنسي سيال اللعاب. وكانت النساء يدرن رؤوسهن الى الوراء محمرات الوجوه خجلا أمام ذلك الانتفاخ غير المنتظر في عضو الحيوان المقدم قربانا. لقد كن لا يفقهن كيف يمكن قبل الموت أن يقع مثل ذلك الخلط بين ثقبة اللذة وباب الخلود. وكن يبقين الاسابيع الطوال مندهشات واجمات ثم ينتهي بهن الامر الى الضحك من القضية وذلك لكي لا يتوغلن بصورة مفرطة في البحث عن شروح وتفسيرات كان الرجال يسكتون عنها.

لم نمتع بالطفولة لأننا كنا قد خلطنا على الدوام بين الدم والدم بدون تمييز الفارق. وها هم يجبروننا على مشاهدة ذلك السائل الغظيع يفور نحو الاعلى هاجما على السماء. لقد كنا ننزعج أشد الانزعاج من شخير الدابة ومن كيلوس امعائها ومن رائحة الشحم المنبثقة من الجزة الغليظة الغارقة في العرق ومن التعبير الشديد عن رعب الموت الذي كان يتجدد كلما ذبحت دابة من الدواب وقد أصابها فجأة السكين الذي كان صاحبه يرفعه ويهوي به بسرعة مدوخة فينشطب اللحم الطري الى أن يبلغ العظم اللامع الابيض

كالملح. وكان الجزار يعيد بدون انقطاع حركته العتيدة ويفوّر الدم في دوي يصدر عن الحلق المتفجر محدثا شبه كلمة محاكية للصّوت مجردة تجريدا شاذا غريبا وذلك في ساعة التذبيح والطقوس في ساعة اللحم والشحم الغازيين. وتصدر أنّة عن أضخم الاعمام جثة ذلك الاشعث الذي أعمى بصيرته منظر آلدم الطري وبريق المدية في الهواء الحار فتضفي على عيون بنات الاعمام بريقا رائعا وتثقب بصورة لولبية الفضاء المشرب زرقة والذي يفصل بين الذراع المرفوعة عاليا في الهواء وبين الارض حيث طرحت الضحية القربان التي سيخصب نسغها دار سي زبير وسيزيد في رفاهيتها أكثر من أي وقت مضى. وكان صوته الغليظ يملأ صحن الدار بصداه المريع : انه التسبيح والتكبير : (الله أكبر ! الله أكبر !) وكانت النساء وقد ضقن ذرعا بمثل تلك الكثرة من العنف والتقتيل والتكسير يطلقن صيحاتهن الحربية فتطقطق زغردتهن بين الجدران البيضاء الملطخة بالبقع الحمراء. وكانت القطط تجتهد في لحسها كلها حتى ينتهي بها الامر الى الانبطاح أرضا وقد اتخمت دما تحت شمس قاسية حادة ستجعلها بعد حين تتقيأ شيئا من المرّة وقد احمرّ لونه بدم الذبائح. وكنا ننقطع عن النظر الى ذلك ولكننا كنا مفتونين سحرنا ذلك المشهد الزاخر بالالوان والايقاعات والدوي، وكنا في آخر الامر يجتذبنا عنف الدم المسكوب وتلك الضربات المسددة الى أطرى مكان من حلوق الدواب وسط فرقعة تلك الصدمة الفاخرة التي يتفجر لها دماغ الكباش الوردي الفاتر فيتطاير شظايا متعددة. ترى أي ثغاء يكفي لايقاف تلك المجزرة ؟ لقد كان من المفروض القيام بالحركة من اولها الى آخرها ــ وانما هو وميض برق مرسوم في حركة جيئة وذهاب بين اللحمة الحية واللحمة الحية ــ ولا شيء كان يتعب تلك الحركة حتى ذلك التأوه الصادر عن أحدنا فتقطعه فجأة صفعة تترك على الخد أثرا لزجا. وهكذا كانت تنشأ في نفوسنا الانفصامة الكاملة وسط رائحة تلك المواد البرازية التي كانت تكوّن سواقي على مشارف طفولتنا

البائسة من شدة تلك السّادية والقسوة المتلألئة، تلك القسوة التي كانت تذهب بجميع ما كنا قادرين عليه من براءة فتفتح في ذاكرتنا ثلمات فاغرة فاها للصدمات النفسية وتسطو على عقلياتنا الفتية الذاهلة بسبب انعدام الوالد الذي كان لا يظهر الا بصورة مجردة ومن عيد الى عيد من خلال بقايا ذكريات نذكر فيها صوتا يصيح بالحمد لله وبترتيل الادعية الموروثة عن الاباء والاجداد. تلك القوة التي ستقضّ مضجعنا وستناوشنا على الدوام فتفرز مادتها الذاتية المبقعة باللون الادهم واللون الاصفر وتتحول الى هذيان هائل وسط ذلك القفر في لون الصدإ المتكون من الدم المشعشع بالماء. وكانت تتصاعد من الدار في تلك الآونة رائحة هي رائحة الجوّ النتن الدبق الخاص بالمسالخ العمومية وكان يزيد من حدتها ثقل وطأة الهواء بصورة لا تطاق. واذا ما انتهوا من صرع تلك الدواب لزمهم تقطيعها وتفصيلها وافراغها من احشائها ومد كلتا اليدين لتناول الامعاء اللزجة التي ما زالت سخنة من جراء ذلك الضيق الخاطف الخاص بالموت المباغت. حتى اذا ما سلخوا تلك الشياه برز لأعيننا لحمها الأمرد الضارب الى الزرقة والذي ورمه شدة ذلك العنف والهول. وكانوا يزيدون في حدة شعورنا بالخجل ازاء سلوك الكهول المطلق العنان بأن يجبرونا على أن نشارك في العمل وأن نلمس باصابعنا الجامدة الباردة ذلك الكوم من اللحم الهلامي في رخاصته الفاترة ذلك اللحم المرتخي كأنه ضرع بال ساخن عمل فيه الخنجر عمله اللولبي. ترى كيف السبيل الى الاغماء؟ أنّى لنا أن نستسلم الى الدوار؟ كلا ليس الى ذلك أي سبيل : لقد كان القوم نساء ورجالا مستيقظين وقد اندفعوا يطاردوننا وتوغلوا حتى في صلب وساوسنا. لقد كنا نرى بقعا من الدم الاحمر المجلّط على الجدران التي خددتها الشمس فبيضوها بالجير الحي فبدت كأنها فوهات براكين قذف بها هناك صدفة حسب نسق مدوخ مجرد لا واقعي ! وكانوا يقتفون أثرنا بلا هوادة حتى نضطلع اضطلاعا تاما بتحمل مسؤولية سعادة الدم وألبعر وسط ذلك العالم الذي كان الكهول

يلعبون فيه دور الجزارين وذلك لكي يزيدوا من التفنن في ضبط الخط الفاصل بين وحشيتهم وبين انسانيتنا المنقوشة على صفحة ضمائرنا وذلك رغم ذلك الحقد ورغم تلك العواطف الجامحة التي كانت تمسخنا فتحولنا الى وحوش ضارية. وعندئذ لم يكن يبقى من ذواتنا الا تكلف واصطناع كانا يخزّان فينا، حتى نشرف على الهلاك. وكنا لا نفهم دائما تلك العلامات التي كانت تسد علينا طريق الافلات والنجاة. ترى أية مماطلة بل وأيّة حيلة يمكن لنا أن نتذرع بها لتبرير هروبنا ؟ لقد كان شهر جويلية محرقا لكل شيء! وكان الناس في تلك الدار التي انتهوا فيها من تذبيح الخرفان يستعدون للاحتفال بولائم عملاقية وسط السواقي حيث كان الدم الحي يحمل جلطات ضخمة كبيرة مثل اليد المضمومة.

وكان نفس الجو مخيما على الشارع : الدم والروث يضفيان على المدينة في كل مكان مظهرا غريبا : ولم تعد الديار بيضاء ولكنها لم تكن حمراء كذلك . بل لكأنها قد اكتسبت لونا يعجز اللسان عن تعريفه ومع ذلك كان جميع الناس يعرفون اسمه ولكن لم يكن احد قادرا على التعبير عنه بوضوح . لم يكن المواطنون يهتمون كثيرا في نهاية الامر بتلك الظاهرة الغريبة التي طغت على بياض مدينتهم العريق ولم يكن يهمهم أيضا تلك النتونة الراكدة فوق غمائم الحرارة والتي كانت تمطر القوم بملايين من الذرات الصغيرة التي لا ترى وتهاجم خياشيم آلاف المتنزهين الذين خرجوا لعرض جحافل ذريتهم التي لا يحصرها عدّ والتي كانت تتصاعد منها رائحة عطر قوي جدا عبثا تحاول أن تكتشف أصله : لقد كان ذلك سرا من اسرار النساء اللاّتي كنّ يهيّئن ذلك العطر بصبر وثبات طيلة السنة استعدادا لعيد الأضحى الكبير . وكان بعض الافراد النبهاء سرعان ما يشعرون بأن ذلك اللون المدهش الملتصق بجدران مباني المدينة مردّه انعكاس اشعة الشمس على تلك السواقي التي لا تعد ولا تحصى ذات لون الصدإ ولون المغرة المشربة دما والتي كانت تنبثق من كل منزل ومن كل سطحة حتى ينتهي بها

السيلان الى مصب مخروطي ضخم في الهواء الطلق له اشكال طلائعية دشنته السلط منذ بضعة أشهر فقط ، وذلك لأن جميع الناس قد اشتكوا من تلك الرائحة الكريهة التي كانت تتصاعد من مياه النهر الذي يخترق المدينة . الا أن جمهرة الناس كانت تأبى على نفسها وذلك من محض التطير أن تفسر ذلك اللون الغريب بالمجازر التي كانت تقترفها في كل منزل اذ لو فعلوا لأنكروا بذلك معنى الضحية والفضائل التطهيرية الخاصة بتلك العملية بالنسبة إلى من يذبحون كباشهم وقد وجّهوا وجوههم نحو الكعبة وهم يتلون الادعية وذلك لكي يزيدوا في تأكيد نواياهم الحسنة . ولهذا كنت لا تجد احدا يرضى بتصديق ذلك النوع من التفسير الذي كان يقدمه جماعة من الشبان الرعناء من اعداء الدين الذين كان القاضي في الواقع يندد بهم عند خطبة الجمعة من أعلى المنبر بمحضر سلطات البلاد المتحفزة الى القاء القبض على اولائك المتفلسفين الذين تقول عنهم الشائعات أنهم لا بد قد هربوا من بعض مستشفيات المجانين. ولم تحدث أية انتفاضة شعبية بفضل تدخل مصالح الأمن والنظام تدخلا سريعا وذلك لشدة ما كان الشعب هائجا ضد تلك الأقلية الحقيرة التي احتمت وراء تفكيرها الكافر وأبت العدول عنه . وكانت المدينة لا تزال غارقة في اشراقها الامغر اللون وفي نتونتها الوحلية المعكرة . وكان يعترضك في طريقك ناس يحملون على اكتافهم طوابق من اللحم. انهم ذاهبون لاهدائها الى اقاربهم وكان هؤلاء يفعلون مثل فعلهم فيلتقي الجميع في منتصف الطريق وينتج عن ذلك اللقاء عناق أخوي متحمس ودعاء متبادل بالبركة يعرفونه من القرآن ومن حياة النبي ومن العبارات الجاهزة المعدة لمثل تلك الظروف . ترى هل اصابهم العمى ؟ ألم يفقهوا أن أمورا خطيرة ذات بال تحدث ؟

لقد ألفوا في الحقيقة مثل تلك الظواهر وكانوا يعرفون انها عابرة : لقد اجمع الجميع على القول بانه لن يبقى من ذلك شيء بعد بضعة اسابيع. على أن ذلك لم يكن صحيحا تماما. فلئن كان اشراق لون المدينة يعود الى

وضعه الطبيعي بسرعة كبيرة فان النتونة كانت من جهتها تتواصل الى نهاية الصيف أي عندما كانوا يخزنون القديد الذي جففوه على حبال نشر الثياب المغسولة. وتظل قلائد «المرقاز» بعد ذلك بزمن طويل تزيّن السطوح وقد تصاعدت منها رائحة قوية هي رائحة الكمون والنعناع المحروقين.

أجل بالتأكيد ! في البداية كان التدمير ؛ فمن خلال اعيننا المختقنة بدم الدواب الذي اريق للتكفير عن الذنوب ستحفر السيول آثارنا المبهمة التي انجزت شيئا فشيئا وسط انقطاع رجاء القبيلة المتبددة والمجتمعة من جديد ثم المتبددة مرة اخرى ، الذنب في ذلك ذنب الدم الذي ارتوت به الارض لا في سبيل دفع بعض الاذيات الشديدة ولكن في سبيل تحقيق غايات تافهة. فقد كانت القضية أولا وبالذات هي أن يفرضوا علينا قانون الاقوى فكان أعمامي وقد ثارت ثائرتهم بين الدم وبين البرد النازل في فصل الجفاف ، يقهقهون ساخرين من رفضنا لمواجهة ذلك التذبيح بأكثر اطمئنانا مما كنا نظهره . ومن جهة اخرى كانت القضية تتعلق أيضا بقطع رتابة الايام المتماثلة وبالاغراق في الاكل والشرب مرة في السنة . ولهذا فانهم كانوا سينظمون المآدب والولائم ، وسيأكلون طيلة اسابيع طوال اللحم والكروش وارجل الدواب بدون انقطاع البتة وسيكون من المفروض عليهم أن ان يجوبوا أنحاء المنزل ويقذفوا بفتات اللحم النيىء في جميع الاركان والزوايا الخفية وذلك لتهدئة خواطر الملائكة والجن القابعين في عالم لا نراه محاذ لعالمنا . وكان المتسولون كعادتهم في المواسم العظيمة يقتتلون للاقتراب قدر انملة من قدام الدار الكبيرة . وربما طال انتظارهم وقتا طويلا وذلك لأن قسمة اللحم كان ينجم عنها مشاكل حقيقية : فقد كان كل فرد يريد الحصول على أفضل قسط فكان كل شيء يحوم حول هذه القضية طيلة ايام وايام. وفي النهاية كان لا بد أن يتدخل سي زبير تدخلا حاسما صارما فيفض الخلاف الذي قد ينقلب الى كارثة لو طال الوقت ففسد اللحم وتعفن. وكان المتسولون لا ينالون من اللحم الا القطع الرديئة

والكروش ولكن ذلك كان يفعم نفوسهم فرحا وابتهاجا. وعندئذ كانوا ينطلقون نحو المدينة وقد تقاطرت محصولاتهم الهزيلة دما على الاسفلت اللماع فكانت دوريات الشرطة التي كانت لهم بالمرصاد توقفهم وتستجوبهم لكي تنتزع منهم حمولاتهم المشبوه فيها وذلك بدعوى أنهم لا يحترمون نظافة المدينة.

ترى كيف النجاة من تلك المجزرة الفظيعة ؟ لم يعد هناك سبيل الى الهروب : فقد كانوا يباغتوننا ونحن نائمون نوما كنا قد قاومناه فترة طويلة استعدادا الى الهروب بمجرّد أن يطلع الفجر؛ ولكننا كنا لا نعرف متى ولا كيف يهزمنا النوم فنخرّ جثثا هامدة في تلك الظلمات المضطربة حيث كانت خطتنا الوهمية في الهروب تطاردنا مطاردة. لقد كنا واعين بوجوب العمل بأسرع ما يكون ولكننا لم نعد ندري ماذا نصنع بالضبط. فكان ذلك الانزلاق والتحوّل يكتسي ــ وسط كوابيس ليلة العيد ــ ميوعة خارقة للعادة ذلك أن جميع الامور كانت مقطعة وقد تحولت الى ماء كانت ايدينا وقد انقلبت فجأة الى سمكات حمراء تتحرك فيه بعسر. في مكان ما كانت القطيعة بديهيّة ولكننا لم نكن نستطيع معرفة مكانها بالضبط. وكانت رائحة الشواء تصلنا في نفس الوقت الذي نشعر فيه بالعجز المتجذر عن معرفة ما كنا نريده معرفة واضحة وعن فهم معنى تلك الرموز القائمة بيننا وبين عالم الكهول وذلك عوض أن تتلوّى في نومنا الذي كان يحدث كلوما في اجسامنا المغمورة ويفكك كلامنا. فالالفاظ لم تعد تعني أي شيء، ولا حتى عكس معناها العادي ! بل قل إنه قد يكون بقي فيها من المعنى ما يكفي بالضبط للتعبير عن ثغاءة يقطعها فجأة سكين يسيل دما على جزّة ضخمة علق بها هنا وهناك شيء من التبن والهرطمان. وعلى أن كل شيء في الجو المجاور كان هادئا فكان المجهود الذي كنا نبذله لتذكر المقتضيات الحيويّة ينجز بدون أي تململ في صلب تلك المساحة التي كانت تفصل بيننا وبين أفكارنا الشخصية الملقاة في ركن من اركان

الكوابيس. ترى كيف يمكن أن نجرّ انفسنا وأن نزحف على اربع حتى نتمكن من استرداد تلك الافكار والحال أن ظهورنا كانت مقصومة وألسنتنا مشطورة نصفين وبينما كان لنا مكان العينين زنبوران ناعسان كنا لا نريد أن نعرقل تحركاتهما الناعمة كالحرير كلفنا ذلك ما كلفنا. لتدق أجراس الساعات المنبهة ما طاب لها الدق فانه لم يكن في نومنا شيء من شأنه أن يبهرنا وأن يظهر لنا العلامة الاعجوبية، علامة الكسوف الساحر الخلاب. كلا لا شيء الا ذلك الفضاء المتألق الوهاج على الدوام المطهر من الجراثيم (ترى هل كانت رائحته رائحة الكلورفورم ؟) والخالي من كل معنى، ذلك الفضاء المبيد لجدوى عضلاتنا الخائرة والمخل بدور أشداقنا التي كان وهنها المدهش يحملنا على إراقة سائل مائع على مخداتنا كنا نعرف أن له طعما بدون أن نتذوقه فلكأنه ضرب من اللبن تفرزه بعض النباتات الضارب لونها الى البنفسجي ويضفي على حلمنا لونه النهائي. وهكذا فقد كان الخوف من عدم الاستيقاظ في الابان حتى ننجو من بلاء تلك التضحية وأبهتها يبلغ منّا مبلغا كنا نغرق معه في زلازل فظيعة كانت تلتهم ارادتنا الصبيانية : فينهار كل شيء ويسقط من مكانه ويتفسّخ فينقلب الى حريق تكفيري تحرق فيه بهائم مبرقشة الالوان من ذوات الاربع. وكنا في خبثنا ومكرنا لا نريد أن نرى في تلك البهائم الا قطط دار يمّا وقد فصلوها عن خروق النساء التي كانت تلحسها لحسا شديدا ريثما يأتي اليوم الذي يقتص فيه منها على كل الشر الذي اقترفته ازاء الاعمام وعلى كل الانحرافات الجنسية التي لقنتها الى زوجاتهم البريئات اللائي كانت اصواتهن الهائجة باللذة تصلنا منذ الصباح الباكر فتزيد في حيرتنا وارتباكنا. ومهما يكن الامر فاننا قد خسرنا الصفقة مسبقا لأن مدخني الحشيش كانوا لنا بالمرصاد وسيقبضون علينا عند أدنى مطالبة تصدر عن الاعمام ليتخلصوا منا مقابل فخذ خروف. وأما ساسة الخيل الذين كانوا قد كفوا عن العمليات الجنسية تعففا في ذلك الشهر الحرام المقدس فإنهم سيمنعوننا من

السباحة في مياه الميناء (فترى أين المفر ؟) ولم يكن هناك سبيل كذلك الى التحيل والخداع ذلك أنه لم يكن بامكاننا أن نتكل على عطف النساء وشفقتهن فلئن كنّ سريعات عادة الى الاعتقاد بأن وجوهنا متعبة رثة وأن جباهنا ملتهبة من جراء الحمى فانهن قد رفضن في ذلك اليوم مساعدتنا على الهروب رفضا باتا. ولم نكن قادرين حتى على التخبط مثل تلك الكباش التي كانت تحشرج وتغرغر وتختلج بعنف فترة طويلة بعد انغراز الشفرة الحادة في حلوقها، وذلك لأن الأعمام كانوا يفرضون علينا التزام سلوك هادىء مطمئن وهيئة ملؤها الرجولة فلم يكن هناك مجال لأي دلال صبياني ولا لأي ترنح. فقد كنا صغار القبيلة، فكان من الواجب علينا ان نسلك سلوكا مثاليا على غرار اجدادنا وهم قوم لئن هزموا فإنهم على كل حال قد كانوا مقاتلين بسلاء في الحرب يشهد على ذلك أن اعداءهم بالذات، كانوا معترفين بفضلهم وباتقانهم لفن القتال. وكان سي زبير في هذا السياق لا يغفل عن تذكيرنا بمقاومة الأمير عبد القادر العظيمة وكان يملك عن ذلك شواهد مكتوبة محفوظة في كتب ثمينة كان يرتبها بشغف كبير في متكبته وكان من اليسير جدا أن نصل اليها. فكان سي زبير اذا ما أصاب أحدنا أدنى اغماء ينطلق جاريا فيأتي لنا بالكتب المذكورة. وكانت جميع النساء في مثل تلك المناسبات متوقدات النظر وقد شمرن جلابيبهنّ عن سيقانهن الى حد الركبتين وبدت شفاههن ثقيلة شامخة وكن متأهبات الى اخضاعنا والسيطرة علينا والى اظهار شجاعتهن البدنية الى عصابتنا الصغيرة عصابة الاطفال العصاة العنيدين القادرين على التطلع إليهن بامعان حين كن يعطّرن فروجهن في «مطاهر» الحمام والعاجزين مع ذلك عن النظر وجها لوجه الى حيوان وهو يموت ويضيع دمه لا من خلال حلقه المفتوح على كامل عرضه فحسب ولكن من خلال منخريه أيضا وجلده وذكره وقد تفرقع اربا اربا على هيئة قطع حلوة طرية، لقد كانوا يشددون علينا المطاردة والحصار ويسلموننا لهزء النساء الحمقاوات المستغلات

وسخريتهن ويهشمون فجأة كوابيسنا الشاذة الطائشة وعلاوة على ذلك كانوا يحملوننا على لمس اللحم وما زال سخنا بمفعول الاختلاجة الاخيرة، وعلى القذف بالمرارة على الجدران علامة على الرغد والرفاه ويرغموننا على التقاط ارجل تلك البهائم الصريعة ورؤوسها وحملها وهي تتقاطر دما الى أقرب فرن لتشييطها.

الفرن بعيد عن المنزل. آه ما اثقل السلة... المهم ألا نفكر في محتواها. يجب الاقدام على تلك الفعلة بشجاعة ورباطة جأش مثل شجاعتنا عند الختان (ذلك الاختراع الوحشي الآخر من اختراعات الكهول). عجبا !. الناس تظهر عليهم علائم السعادة. الحرارة. الأيدي الندية بالعرق. أنا خائف (ماذا يقع لو أخذ الرأس في الاضطراب داخل السلّة). فهل أجمع عليّ أهل الحي ؟ ولكن لو فعلت لجاز أن يدفع ذلك اعوان الشرطة الى الاعتقاد بأن هيئتي مشبوه فيها. نقّال رؤوس !الشك. والخوف. وعربات الترمفاي. اعوان الشرطة من جديد أفّ لهم. «تفه» ! السلة ثقيلة على ذراعي ! النساء ! يجب الانتقام لا على الفور. ولكن ما أن تذهب رائحة الدم من كل مكان (من المنازل والشوارع والسواقي ومصب الانصباب المخروطي) المخروط... ينبغي الذهاب والتثبت في الامر عن كثب لأن الرائحة هناك أقوى وأعلق. المصبّ موجود من جهة البحر. ينبغي الذهاب الى هناك وإزالة ما علق بالنفس من حقود وذلك على مرأى ومسمع من ساسة الخيل والخشاشين الذين لن يتمكنوا في المستقبل من الوصول الى اخراتنا. كان لا بد من الاستمرار في التذمّر لكي لا يستولي علي الخوف ولكي لا أفكر في ذلك الحمل الفظيع. لقد أيقظونا بعنف. وألبستنا النساء ثيابنا قسرا وقد تصاعدت من أيديهن رائحة البصل المبشرة بطهي ألذ الاطعمة وبتقتيل البهائم. ان اعمامي لذوّاقون خبيرون بالاطعمة ! كانت كاتبتهم من الفرنسيات. ينبغي الانتقام من واحدة منهن وتمزيقها وقذف نصيب من

حامض الكبريت على طابونها وكان اعمامي مسلمين صادقين في ذلك ترى كم من مرة أدوا فريضة الحج الى مكة ؟ (مكة مدينة اللصوص عشاق السرقة) قال احد الاعمام : الناس بمكة مدمنون على اتيان المنكر ويطيب لهم أن تقطع أيديهم. يا للعار ! أيسرق الانسان في مدينة النبي ! وكنا لا نصدق كلمة واحدة من ذلك. لا، إن الاعمام ليكذبون. انهم قد طبعوا على الحذر وعدم الثقة فجعلهم ذلك لا يتمالكون عن اغتياب جميع الناس. وما قولكم في الذهب يا ترى ؟ سؤال نلقيه عليهم فجأة وبدون سابق انذار. فيسكتون عن الجواب. والبترول ؟ وسيارات الكاديلاك ؟ والبحر الاحمر ؟ إنه مليء بالسمك الطيب الجميل. ان الاعمام ليكذبون. أنفضح أمرهم بين نسائهم فنكشف عن علاقاتهم الجنسية مع كاتباتهم الفرنسيات. إنهن من النوع الباريسي. والفرق في هذا المضمار فرق هام جدا. وفي نهاية المطاف كان علينا أن نهاجم ساسة الخيل والنساء والاعمام وان نمضي في ذلك إلى نهاية الخطة، الى حد الجريمة. أوه! أن نقتل عشيقاتهم أمر فيه كفاية وأكثر فلو فعلنا لما استطاعوا العيش بعد ذلك. ولكن هذه الخطة تقتضي الفتك بعدد كبير من الناس. (لا ينبغي أن ننسى عشيق المعلمة الفرنسية).

وهذه السلة الملعونة إنها ثقيلة، ثقيلة. دعني أفكر. دعني استمر في التفكير بما أن التصفير متعب الى هذا الحد الكبير. وهذا السائل : الدم الفاسد مزج بالماء وعفّنه الهواء فأخذ يفقد شيئا فشيئا قوته ولونه. والفرن ما زال بعيدا. ان يمّا الآن تهيىء الوانا من الطعام اللذيذ للاحتفال بالعيد. وها هي ذي الشوارع مرة اخرى... وعربات الترمفاي... والشمس اللاذعة. ها هي المرتفعات المصعدة ينبغي صعودها. ان رؤية المتنزهين تتشنج لها اعصابي. ان ثيابهم لفاخرة جميلة. أ ألطخها بالوسخ فأهجم عليهم ثم اعتذر بعد أن تكون المصيبة قد نزلت. البقع الدهماء على الثياب البيضاء. والبقع على جدران فيلا زبيدة تلك الجدران الباهرة من شدة

البياض. ان كل هذا الخليط من الاشياء والافكار لا يطاق. لن يكون لنا من الشجاعة ما يكفي لتدمير جميع هؤلاء الكهول : الخوف والوجل. يجب الحذر من السيارات وتحاشي التهشم تحت عجلاتها ومعي أكرع الخرفان بالسلة. يا له من أمر مضحك ! فلو داستني سيارة لتدحرجت أكرع الخرفان على الارض وسقطت في الساقية ولا التهمتها فتحات البالوعات ! ولو حصل ذلك لذكروا في صلاة الجنازة أكرع تلك الحيوانات المسكينة ورؤوسها ولنسوا أني قد لقيت حتفي. وبعد ذلك بكثير سيتذكرون أمر موتي وسيصلون صلوات اضافية لا ترحما على روحي (إذ ليس لي روح !) ولكن ترحما على رأسي ورجلي وبيضتي وعينيّ الشبيهتين بحشرة الألق، وعانتي التي كان الشعر يأبى ان ينبت فيها رغم كل ما أبذله من جهود. ان تحذر السيارات من اعظم الفضائل ! واعظم منها أن تحذر عربات الترولييبس ! أصوات ابواق السيارات. ينبغي ألّا أوفر لهم فرصة الفرح بموتي. ولو فعلت لتجاسر الاعمام حتى على القول بأني قد تركت السيارة ترفسني عمدا. ان اختراق المدينة العربية ليس بالأمر الهين فهناك الوقوف وهناك التردد والارتباك في نفس المكان. ثم هناك ايضا الحي اليهودي. هناك النساء لا يحملن الحجاب انهن يعشقن السينغاليين منذ وقائع شهر ماي 1945. التسكع في لا مبالاة وشراء الفطائر. والوقفة الاولى. ان هؤلاء اليهود ليحسنون صنع المرطبات ! ما ألذها !... ولكن اطفالهم ليسوا ليني الجانب. أأنتحل لهجة الآنسة ليفي اليهودية استاذة الموسيقى؟ ها هم يدنون مني ويتشممون رائحتي (الله ! ما هذه الرائحة ؟). ثم الضيق. الحكم غامض غير واضح المعالم. انهم لا يتجاسرون على الحكم علي بوضوح. أهو المسجد ؟ أم معبد اليهود ! انني مستعد لخيانة قبيلتي وجنسي مقابل ان العب معهم شوطا بـ «البيس» فأنا بطل في تلك اللعبة. لقد أثارت السلة فضولهم وأنا استحي أن اكشف لهم الحقيقة. فلاسكت إذن. انهم يتظاهرون بعدم الاهتمام بما أحمل اهتماما كبيرا. الاجسام عليلة.

السعال والمخاط والادران. و «البيريهات» والسراويل القصار. اني وانا بدون «بيريه» لا أشبههم في شيء. فأنا اسمن منهم وهم هزلاء عجاف. ولكن امهاتهم سمينات بدينات تعودن لوك «الشوينقوم» منذ مرور القوات الامريكية بحارة اليهود. وكان تشنج الاعصاب. والذهاب الى الفرن ! والفطائر من جديد. ولعبة «البيس» كنت أتكلم منتحلا لهجة الآنسة ليفي وبحت جميع الاشواط فنعتوني بالسحار ثم اكتشفوا أن يهوديتي فيها شيء من الغرابة، فامتلكني الخوف وتلعثمت في الكلام وفضحتني لهجتي فلذت بالفرار. إنها نفس الفاقة والخصاصة في الاحياء العربية التي من جهة الميناء لا من جهة حي «البيار» (حيث الفيلات والياسمين) أما هنا فالشوارع تبعث الدوار في الرأس. إن جمهرة الاطفال الذين قابلتهم منذ حين هم الآن يطاردونني ويصيحون : «مشلم ! مشلم !» (خراء ! خراء ! زبّي !) ينبغي الانصراف قبل أن يثيروا ثائرة حبر اليهود. الاحياء متداخلة الواحد في الآخر. والاشكال حادة قاطعة. والشمس. والذراري الصغار. أأجري واركض ؟ النساء سمينات يرتدين لباس السباحة ويعرض اجسامهن للشمس في وسط الغبار. الكراسي الطويلة منصوبة أمام الابواب الواسعة، منظر الآباط الشعراء يثير اندهاشي. يجب أن اسرع الخطو. ان الاطفال اليهود يغشون في اللعب انهم يريدون ان يفتكوا مني حتى «البيسات» التي هي ملكي. وهذه السلة ما أثقلها ! لا بد ان يكون الدم ينز الآن من خلال تبن السلة. ينبغي أن أحرص على عدم إثارة الكلاب اليهودية التي قد تأتي لنجدة اولائك الاشرار الذين ما زالوا يطاردونني. ينبغي الوصول الى الحدود وإدراك النصب الفاصل بين الحيين وعندها أكون قد نجوت. ان الكهول في الظاهر لا تبدو عليهم علامات الاهتمام بي وكل شيء في ترجرح داخل هذه القفة الملعونة. ترى هل نجوت في النهاية ؟ لقد سلبت مني جميع «بيساتي» ولكن لم يضع من قفتي كراع واحدة. يا لوقاحة هذه

القطط اليهودية : كيف تتجاسر على لحس هذا الدم المقدس ! إنه تعلم العنصرية !

ها هي ذي المدينة الاوروبية. عدد النساء في تزايد مستمر. والشوارع نظيفة، منظمة، والمقاهي متألقة وهّاجة والناس هيئتهم نقية واضحة يحملون كلهم جريدة مطوية تحت آباطهم (انها علامة على النبل والامتياز) حتى البحر هنا يبدو أشد تلالؤا. المارة ينظرون الي نظرة غريبة. اما الكلاب فلا تبدو عليها أية علامة من علامات الاهتياج. لا بد أن تكون متخومة طيّعة وقد شدت الى رباطها. انها تبول هنا وهناك، وها هي سيدة تسدي وافر نصائحها الى كلب من نوع «البولدوق» أغلب الظن أنّه مصاب بالقبض. أما العرب فانهم لا يبوّلون كلابهم على جذوع اشجار الشوارع وذلك لسبب بسيط هو انهم لا يملكون كلابا. أنا لا أحب الكلاب، ولكني كنت أخشى أن يشتبه امري في نظر «الروامة» فكنت اتكلف ابداء علامات البهجة والافتتان ببول الكلاب. ان السيارات بهذا الحي أسرع منها بالاحياء الاخرى. يجب أن اسرع. هذا المكان هو الذي قتل فيه احد المعمرين عمة مسنة لي بأن داسها بسيارته فهشمها تهشيما. كانت طاعنة في السن، وكانت قادمة من مدينة قسنطينة : فاخترقت محطة ارتال «الآغا» ثم نهج «ميشلي» ثم شارع «التلملي» وهناك وقعت الكارثة. طاف ! لم يبق منها شيء عندما جاءوا بجسمها الممزق الى المنزل : كل ما في الامر كدس من الاعضاء المتقاطرة دما. كانت طاعنة في السن وكاد بصرها يذهب، لكنها كانت قادرة على امتطاء القطار. وكنت اخاف منها لأنه لم يبق لها في فيها الا بقيّة سن واحدة كانت كلما غضبت تبرزها فوق شفتها العليا. فينبغي إذن الا تدوسني سيارة احد ابناء المعمرين ! على ان أبي قد ربح القضية العدلية التي علّقها بالمسؤول عن ذلك الحادث. فقد كان جميع القضاة الفرنسيون من اصدقاء أبي وذلك رغم أفكاره السياسية

المتميزة الثابتة. انه سيل من السيارات. وهذه السلة تزداد ثقلا (ترى هل يعني ذلك أن ما فيها أخذ يتولد تولدا ذاتيا). أنا أستطيب فوق كل شيء ادب الكلاب. في هذا الحي. الدروج، والحدائق العمومية التي ضاق فضاؤها بلفحات الف شمس وشمس . العمارات المدهشة . والزخارف المعقدة. والكنائس الطلائعية الاشكال. والحمام. والسيدات من جديد. ايّاي والركض لأنهم كانوا يطلقون الرصاص بدون انذار على العرب المشبوه في أمرهم. وكان الوالد قد حدثنا بما فيه الكفاية عن وقائع مدينتي فالله والسطيف. فقد أنذرنا ولهذا فاني حذر منتبه في حركاتي أشد الانتباه. ومن حين لآخر كنت انتحل هيئة عدوانية وأقطّب حاجبي وذلك لكي أشعر بالثقة والرسوخ، وأقف امام واجهات المغازات الكبرى البلورية لأرى هل هيئتي هيئة مخيفة مريعة. لعلها كانت كذلك... لكن السلة كانت تفسد كل شيء. ولهذا ينبغي الانطلاق من جديد وعدم التوقف الى أن أصل الى الفرن

الفرن . الظلام كثيف . واللهب في قعر المكان . ورائحة النشارة الملتهبة انها لرائحة طيبة ! وداخل المكان يقوم صاحب الفرن ، وهو رجل بدين ضخم البطن أسود اللون أصله من منطقة السوف . كان عاري الجذع وله كرش تتعب الناظرين : ذلك أنك لا تتمالك أن تغرق فتيه في تلك المساحة المترامية من اللحم اللماع الامرد المستزخي الممتلىء العسير تقديره المفرط في الابهام . فمن المستحيل عليك ان تغرق في تأمل برغلة بشرته . وسرعان ما تسلّم أمرك لله لشدة ذلك العمل وعسره. كان يحمل سروالا عربيا وله عينان ضيقتان جدا ملتهبتان من جراء مرض التراكوما والدخان ، وقد احاطت بهما مادة هلامية مائلة الى البياض تذكرك على سبيل التقريب بالقيح أو باللعاب اذا جف في زوايا الشفتين عند من افرط واطال في الكلام . وترى له عند ثنيي أعلى فخذيه ووسط بطنه وصدره بعض نتف من الشعر الابيض تبدو كالمخالفة للمألوف وقد برزت على ذلك الجسم

السمين اللزج على هيئة نبتات هزيلة مغروسة في ابنوس تلك البشرة المدبوغة المتشققة في بعض نواحيها (وعلى جنبيه برزت بقعة واضحة تكاد تكون لبنية اللون تولدت عن احتكاك ذراعيه بجسمه) ويظهر وجهه متجمعا حول سمتين رقيقتين دقيقتين ولكنهما متوقدتان هما عيناه المريضتان الوديعتان انها لطافة تلك السمات الرقيقة في تقابلها مع ذلك الجسم المشوه الصورة الغارق في العرق. الفرن. لابد من التعود على ضوء ذلك المكان لكي يتسنى لك اكتشاف الاشياء رويدا رويدا حتى اذا ما بلغ المكان نقطة معينة من الجلاء صار كل شيء فجأة معاديا مشاكسا وقلب رأسا على عقب ذلك الفضاء الكثيف . وفي فوهة الفرن هناك يطقطق اللهب ذو اللون البرتقالي المشوب ببعض الشعيلات الخضراء والسوداء . وكان الفضاء الاسود يمتد في شكل منحدر طويل محصور بين لهيبين: لهيب الفرن على اليسار ولهيب الشمس على اليمين . وها هو « ابريق » الشاي لاصق بالكانون : فيه الشاي المنقوع وقد تشرب بعد رائحة الدم وشعر الحيوان المشيّط في درجة من الحرارة مرتفعة جدا . وثمة القدر تطبخ فيها وجبة ذلك الرجل السوفي وقد ركزت على كدس من الجمر الموضوع مباشرة على ارض من التراب المدكوك كأنه قد غشّي بطبقة من القطران . ترى أي الروائح ستتغلب على الروائح الأخرى ؟ واحدة والحق يقال : فأنت لاتشم رائحة الشاي ولا فوحان المرق الا عندما تلاحظ وجود ابريق الشاي والقدر ، والا فانك لاتشم أية رائحة البتة . صاحبنا لم يهتم بي . هناك مقعد خشبي مستطيل مسند الى الجدار الاسود بالسخام وقد جلس عليه رجل ناهز الاربعين . إني أعلم انني اعرفه. ان وجهه لأليف عندي. لكنني لاأستطيع أن أتصوره خارجا من داره التي لابد أن تكون مجاورة لدارنا ولا أن أحدد مكان عمله . ها أنا ذا أجلس بالقرب منه . فيدنو الاسود البدين مني ويأخذ زادي المذبوح وينصرف هناك في قعر جحره وأبقى أنا وحدي مع الحريف الاخر . فترة من الصمت . شعور بالضيق .

ومن حين الى آخر تبرز شعلة طويلة بعض الطول على حافات ابريق الشاي فتخرجه من الخفاء وتكسبه لمعانا ساطعا كالبرق الا انه عابر . كل هذا وصاحبنا الجالس بجانبي مستمر في الصمت . وبصورة خفية شعرت بيده وهي تلامس فخذيّ العاريين . احساس بالذهول . لم أدر ما أقول وهو يستمر في تجوال يده على ساقي ويتباطأ في ذلك أكثر فأكثر. كان مصوبا نظره الى أمامه . ولايتحرك منه الا يده التي كانت تتلمس تلمس الاعمى لحمي المسكين . دخلني خوف شديد . بيد أن الرجل لاتبدو عليه نية التحرك . صوبت نظري الى جهته فاذا رأسه ثابت ؛ وليس يتحرك منه الا يده تتيه مثل الافعى العمياء على بشرتي العارية وقد أخذتها الرعشة. الملامسة اللزجة الندية. وانتابتني موجة من الهلع وهنا أيضا فان الطفولة قد دمرت منذ لحظة وقد خانوها واغتصبوها فجأة والذنب ذنب ذلك الكهل الفظيع ولكن كان أحشى ما أخشاه أن يموت هناك على مقعده وذلك لأني كنت لاأفهم شيئا عن حركاته ولا عن غاياته . أأهرب ؟ (ولكن النساء كن في انتظار رؤوس الكباش حتى يكسرنها نصفين ويستخرجن منها الدماغ اللذن)، ها هو ذا الرجل قد برك بعد على ركبتيه عند رجلي وأخرج ذكره وكان من الضخامة الى حد شعرت معه فجأة ببرد عظيم يستولي على اسناني وارغمني على لمس ذكره . ورغم بيس ذلك العضو وصلابته فقد أخذت أفكر في مخ الخروف وقد أخرجته من الجمجمة بكثير من الحيطة أيدي النساء وقد احمرت بدم لايزال طريًا . الرجل مغمض العينين يتوسل الي بأن أداعب عضوه المتصلب . وانتابتني فجأة رغبة لاتكبح في البول . يجب أن انصرف (متعللا بقضاء حاجة أكيدة كأن أقول ان أمي مريضة جدا وان علي أن انطلق للتثبت إن لم تكن قد ماتت بعد ...) ولكن قلبي كان يدق دقا بلغ من العنف حدا جعلني اعجز عن فتح فمي للتكلم وأخشى من ان أتداعى مترنحا فأخر بين احضان ذلك الوحش الشبق المستمر في الغمغمة وقد أخذ يدخل في حالة اخرى غير طبيعية . فاندفعت وقفزت من خلال

فضاء الباب المفتوح على الموقد وعلى النور المنبثق قفزت طفلا يطارده عنف الكبار ويمزق نفسه تلك السخرية وذلك الهزء اللذان سيصدران عن زوجات الأعمام وعن الجارات ، طفلا قد نخر فؤاده ذلك الصمت الذي عليه أن يلزمه لكي لايعكر يقينيات ذاك المجتمع المغلول في اوهام الطهر والعفة . ترى كيف يمكن أن أفضح أمر هذا الشخص اللئيم الذي شهده جميع الناس في صباح ذلك اليوم بالذات يفرك حبات مسبحته بين أصابعه ويضحي بخروفه ؟ ليس من الصمت بد. إن زاهر هو وحده القادر على شرح قصة الفرن (زاهر الذي فاجأته أمي ذات يوم في هيئة مخزية مع صبي من صبيان الجيران . لم تستطع فهم ما ترى ولم تصدق عينيها . ياله من مشهد شنيع مشهد ابنها الذي امتطى في ابهة ظهر الشقي الاخر وقد غشاه زغب خفيف وكشف عن وجه قذر ينم عن الفجور وطلب اللذة . لقد كانا مدفوعين معا في عملية ذهاب وايابٍ وحشية فظيعة كان جسماهما الممشوقان يترعرعان لها ترعرعا وقد تأرجح رأساهما بحثا عن تلك اللذة الشكلية في واقع الامر التي لمحاها من خلال تبجحات الكبار واستشفاها عند النساء اللائي كن يهمن ثقيلات الخواصر والاوراك خلال المنزل كما لو شعرن فجأة باللذة التي يوفرها لهن ذلك الخليط من الشعر واللحم الحي الأحمر الرخو المبشر بعد بنشوة القعر. وكانت يمّا تنظر اليهما وهما يفعلان فعلتهما ولا تدري ما تقول وأما أنا فكنت وراءها يتنازعني الاغراق في الضحك المفرط والعنف وكانت أخواتي ورائي ينعمن النظر في « سيدة » وينتظرن منها تفسيرا ما تبرر به هذه المسخرة المضحكة العظيمة التي كان يأتيها هذان الغلامان القابعان هناك فوق السطيحة وقد بدا منهما رأساهما وأعلى جسميها في حركة وتململ واعتداء متبادل وعنف مفجع . وكنا جميعا مشدودين الى ذلك المشهد الذي لايصدق وقد وقفنا في تلك الغرفة الكبيرة ذات النوافذ العديدة المشرفة على السطحية الزاخرة بالملاحف البيضاء وبالثياب المتعددة الالوان وقد ايبستها الشمس التي

كانت تدخل فتعلق بكل قطرة من قطرات الألوان وفي كل ملمتر من ملمترات القماش الملفوح المتشقق تحت سعير السماء الدائم تلك السماء الشبيهة بالعارضة الخشبية الزرقاء المعلقة فوق هذه الثياب المغسولة الجافة في الهواء الطلق . وكنت أنا مشدودا ممزقا بين الهزل والموت الحكيم البطيء وسط تلك الحرارة الرائقة الجامدة التي كانت تجعل اختلاجات الهواء أشدّ جهرا وأكثر واقعية . كل ذلك وزاهر لم يتفطن إلينا ! اذ ما زال مشدودا الى عشيقه الذي لعله كان يختج عن تباطيء رفيقه زاهر الذي لم تمض الا فترة قليلة من الوقت منذ أن جرّب للمرة الأولى ذلك الانفجار في طرف قضيبه الذي ليس بالذميم ولا بالمنقبض بل كان بكل بساطة مدهشا في انغاظه الخسيس . أما يما فلم تكن قادرة على مناداة إبنها لعجزها عن تقديم تفسير شاف ضاف لمشهد التحام ذينك الجسمين اللذين لمحتهما في لحظة من الألم الشديد زاد من شدته عجزها عن التعبير عنه . وانتهى الأمر بيمّا الى طردنا من الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح قائلة إنما الأمر لعبة عنيفة ليس الا) . فزاهر إذن هو الوحيد الذي يقدر على تفسير ما حدث منذ حين في ظلام الفرن فعليّ إذن بالعثور على زاهر من جديد والا فلا بد من الهروب من المنزل بضعة أيام ريثما تنسى النساء رؤوس خرفانهن . لعل النجاة في الذهاب الى جهة الميناء والنوم هناك بين صناديق البطيخ وكان في ذلك أيضا بداية تدهور الوضع وفساده .

ها أنا ذا أسير في قبضة العصابة الكبرى . فقد داهم غرفتي بعض اعضائها الأشدّ سرية وكان ذلك في حدود الساعة الثانية صباحا . لم يكونوا يحملون أقنعة ولكن لم يكونوا يحملون كذلك بطاقة ايقاف . كانوا يضحكون من اندهاشي . ومع ذلك فان الليلة كانت هادئة قبل قدومهم . بالأمس لم تصدر صحف الصباح وأذاع الراديو كامل اليوم انغاما من الموسيقى العسكرية ولم يكن في ذلك أي شيء مخالف للعادة . إلا أن « العصابة الكبرى » قد ظهر عليها منذ زمن قريب علائم واضحة تدل على ثورة الاعصاب. وانتشر الاعضاء في مسكني ، في تلك الغرفة الصغيرة الحقيرة وأيقظوا عشيقتي الفرنسية . كانوا يحدّقون فيها وهي ترتدي ثيابها وقد تصاعدت منهم الزفرات بسبب لحمها المخضل وأشكال جسدها البارزة . لقد فتشوا في كل مكان وهم يرمرمون غضبا من اضطرارهم الى قراءة عناوين جميع الكتب المبعثرة في كامل الغرفة بما في ذلك « اللافابو » الذي كان غاصّا بها وتحت السرير حيث كانت الكتب قد أكلها جذام التعفن التي ألقينا بها هناك في عجالة . وكانت الكتب قد أكلها جذام التعفن الناتج عن الرطوبة التي رسمت عليها بقعا كبيرة حمرية اللون وقضمتهما

الجرذان رغم أنها كانت قد أتخمت بسمك السردين وكانت تأتي من الميناء مباشرة وتدخل الغرفة من خلال الشباك قفزا . وكانت تختفي تحت السرير لتخلو إلى تدمير جميع الكتب الموجودة هناك تدميرا محكما لا لأنها كانت جائعة بل لاعلامي بوجودها الذي كنت لا أستطيع له دفعا بل كنت استعمله أحيانا وسيلة تهديد ومساومة ناجعة ضدّ سيلين اذ كانت تخاف الجرذان خوفا لاسيما عندما كانت تعثر على واحد منها عند استيقاظها وقد استلقى على ظهره عند رأسينا وأرجله مصوبة في الهواء وأذناه مكسوتان بالشعر ، وقد تورم بطنه مثل بطون الأثرياء وتعفن جسمه فتحول الى غشاء رمادي رخص ضارب الى الخضرة وغرق شارباه في عينيه المتورمتين من جهة أطرافهما عند ملتقى الجفنين والانف وقد بدت هيئته هادئة ساكنة . وكان مجموع ذلك المنظر يذكر بشيء من العجين قد أشبعوه خميرا فانتفخ في خصوبة عجيبة . وكانت كتلة ذلك الحيوان البيضاء في الأصل قد أخذت تكتسي بعد لون محّ البيض أو اللون الاخضر .

لابد أن أعضاء العصابة الكبرى قد تلقوا أوامر صارمة وإلا لما اضطروا الى الزحف على بطونهم تحت السرير والتخبط بين أقذار الجرذان وبقايا المني الذي أفلت منذ زمن بعيد من ايري أو من فرج المرأة فجف وغشته غلالة رقيقة من الشعر ومن تلك العجينة التي تتكون عند ثني الفخذ لدى سمان الناس زمن اشتداد الحرّ . لقد كنا لانكاد نصدق ــ لما كانوا عليه من البدانة والسمن ــ قدرتهم على الانزلاق برشاقة تحت قطع الاثاث باحثين متلمسين تلمس الاعمى ذلك العدد النزر من الكتب التي أغفلوها حتى ذلك الحين، وكانت تنطلق من افواههم صيحات ضعيفة من الاندهاش كلما أحسوا بشيء لزج غريب بين أيديهم تلك الايدي الماهرة أيما مهارة والتي دخل ذكرها في التاريخ قبل أن يطلق عليهم بوقت طويل ذلك اللقب الغريب الذي لامعنى له : لقب أعضاء العصابة السريين (أ . ع . ص) لقد رسخت ملكتهم منذ تحرير البلاد وذلك بفضل التتبعات

التي لاتعرف رحمة ولا شفقة والتي كانوا ينظمونها ضد رفاق الامس وقد أصبحوا في نظرهم مجرد صعاليك افلتوا من قبضة الشرع المتجسّد فيهم هم الاعضاء السريون هؤلاء الأجراء في خدمة العصابة المستترة الخفية الاسم عصابة باعة المجوهرات وكبار الملاكين العقاريين (ومنهم سي زبير) . انهم كانوا لايحبون الكتب ولعل ذلك راجع الى كونهم لايحسنون قراءتها أو الى امر أبسط من ذلك هو انه لم يعد لديهم متسع من الوقت لقراءتها الآن وقد ألقيت على عاتقهم مهمة ثقيلة هي تسيير شؤون دولة كان جميع مواطنيها على درجات متفاوتة من العناد والعصيان . (ترى هل جاؤوا ليروا ما بلغ اليه تطور أفكاري السياسية ؟ ترى هل كانوا على علم بمدة اقامتي في مستشفى الامراض العقلية ؟ وقد يكون ولوجهم غرفتي مرتبطا كذلك بحادثين غير مألوفين هما عدم صدور الجرائد وبث الموسيقى العسكرية بالاذاعة) . كنت أنظر فأرى أعينهم تترنح ووجوههم البشرة تزوّر الى الطول أكثر فأكثر كلما تقدموا في عملية التفتيش . لقد ضجروا من ذلك الوضع وحقدوا علي لامتلاكي ذلك العدد الكبير من الكتب التي اشتريتها لا لكي أطالعها بل لغاية تشويش راحتهم واقضاض مضجعهم ولحملهم على تهجية عناوين حوشية خطيرة على أمن الدولة الداخلي والخارجي ، مثلما كانوا يتهجون القرآن بالكتّاب .

ولم تكن سيلين فريسة للضحك الذي لاقدرة للمرء على تمالكه بل كانت ممتقعة اللون تحاول أن تقرأ في عينيّ تفسيرا لتلك العملية التفتيشية التي لاطائل من ورائها . لقد كنا لانغلق الباب بالمفتاح أبدا وذلك حتى عندما كنا نسافر سفرا طويلا. لم يكن ذلك لثقتنا بالجيران ، فقد كانوا كلهم عصبة ضدنا بل تفاعسا منا اذ لم تكن لي ولا لها القوة على التوجه الى صانع الأقفال وقد كان دكانه بأسفل نهجنا بالضبط ليركب لنا قفلا بباب الدخول . لقد كانت مرتاعة لأنها كانت تعرف مآل مثل تلك العمليات الواسعة النطاق والتي كانوا يقومون بها في جوف الليل بينما يكون

الشعب نائما نوم اللامبالي الشاسع غير مكترث بكل ما يصدر عن « العصابة الكبرى » سواء كان حقا أو باطلا . وكان بعض الأعضاء يعرفونني حق المعرفة لأنهم نازعوني في امتلاك بطانية الكاهن الأكبر عندما كنا في ذلك المعسكر القائم على الحدود . ترى أي حدود هي ؟ لابد أنهم كانوا يعرفونها ، ولكن سؤالهم عنها من شأنه أن يكلفني ما لا طاقة لي به : أن أتوجه لهم فجأة بالخطاب مستعملا لهجة الأليف لأليفه وأن أحدثهم بتلك اللغة العربية ، البربرية ، الفرنسية ، الاسبانية المخلوطة التي كانوا يستطيبونها أكثر من كل شيء لأنهم كانوا يشعرون بأنهم يتقنون عدة لغات وأن لهم قدما راسخة في اللغات العالمية . لو فعلت لكلفني ذلك ما لاأطيق لأنني قد قطعت صلتي بهم منذ زمن طويل وسلطت عليهم منذ ذلك الزمن جامّ احتقاري ذلك الاحتقار الذي لقنيه بصبر وثبات « الكاهن الأكبر » الذي مات الان الذنب في موته ذنب نفس هؤلاء الأشخاص المتراصين في هذه الغرفة الضيقة يرفعون « الملاحف » الوسخة ويقهقهون لمشاهدة « مناشف دم حيض » سيلين ويفكون فانوس الكهرباء ليتحققوا من أني لاأخفي فيه بعض ما سأتوجه به الى الشعب من فواتح الخطب ويفكون من فوق « اللافابو » لوالب المرآة الملطخة بوابل من بقع الصدإ ومن الحبوب السوداء والمكسوة هنا وهناك بشقوق خطية الشكل رقشاء كانت تدخل في نفوس الناظرين الى وجوههم فيها الشعور المقلق المغم بأنهم مصابون بداء الجذام ويشهرون صورا فوتوغرافية قديمة تمثل شخص أمي ، ومعلّقة مكسوة غبارا تمثل رجلا جميلا جدا ذا لحية (ترى هل كان آخر عشيق من عشاق سيلين أم هل كانت صورة رجل قد أحدث رجّة لايستهان بها في منطقة جزر الكرائيب وكان اسمه يغيب عني كلما أردت أن أتحدث عنه ؟) كانوا يتظاهرون بارادة معرفة اسم صاحب اللحية ذاك قصد إهانتي وحملي على الاعتراف بأنه كان فعلا عشيق امرأتي في السابق فيتمكنوا بذلك من السخرية والتهكم طيلة دقائق

عديدة وقد كهربهم انتصارهم السهل وهيّج مشاعرهم الجنسية حضور تلك الانثى التي أثقلها النعاس والوجل فأخذوا يكيلون عبارات التهكم اللاذع بشأن فساد سيرتي (قائلين): «هكذا اذن! فصاحبنا يعيش مع هذه السيدة » (ولا ينفكون يردّدون) : « لابد أنها محبوسة هنا رغم أنفها » كانوا يتهكّمون من ملاحفي القذرة وقلة اعتنائي بكتبي الجميلة (على حد تعبيرهم الساخر) ، تلك الكتب التي أصبحت كدسا ذا بثور ، كان من اللازم كان من اللازم علي أن أكشط عنه الأوساخ بخيطة عظيمة . كانوا مستمرين في التأمل في كل شيء باحثين بلا ريب عن علب المنفجرات التي قد أكون أخفيتها فوق اللافابو أو فوق دفاقة ماء المرحاض التي كانت معطّلة عن العمل عند نزولي بذلك المكان ، نابشين بأصابعهم الجاروورات ومنتزعين منها أقلاما ذات كرة حبرية قد جفت منذ عقود وبعض اعواد قديمة من احمر الشفاه ومنتفا لنتف الشعر (مقهقهين بملء حلوقهم قائلين : ما هذا ؟) واقلام حبر قد انفلقت فسال منها لعاب حبر تلطخت به أصابعهم السمينة (لقد سمنوا بسرعة في ظرف بضع سنوات من العيش الرغيد ومن المرتبات الاعجوبية) واكتشفوا دواويني الشعرية التي كانوا عاجزين عن فهم عناوينها فاغتنموا تلك الفرصة لحمل صديقتي على الكلام فحاولت أن تفسر لهم لفظة « لحم القنص » . كانوا على حذر عظيم من تلك العبارة وقد ظنوها من الالفاظ التخريبية . ولكن سيلين عدلت عن محاولتها تلك بعد بضع لحظات لا بسبب نفاذ صبر متولد عن يأسها ، ولكن لارتياعها من ضحالة فكر « الاعضاء » الذين قد ذاع صيتهم في اوساط الشعب بسبب جهلهم المدقع ووحشية الطرق التي يستعملونها والتي ورثوها عن السلطة الاستعمارية القديمة كما ورثوا عنها في نفس الوقت مجموعة من الالات والأدوات العجيبة كانوا يقفون تجاهها مفتونين على أنهم كانوا قادرين على أن يشقوا عصا الطاعة في وجه السلطة إن هي لم تعين لهم ضحية يظهرون بها مهارتهم في العمل وفعالية آلاتهم .

لقد كانوا سرعان ما نسوا أيمانهم القديمة بل قل التي اصبحت اليوم عتيقة إذ كانوا يقسمون بأن يحترموا أولائك الرجال الذين قد وهنت قواهم بعد تلك المسيرة الكبرى التي ساروها خلال الجبال والشعاب وخلال رصاص الرشاشات وتدفق النار والحديد في اللحم الحي . كانوا يعبثون بنبتة هزيلة كان المكتري السابق للغرفة قد تركها هناك فيتشممون رائحة ما حول اوراقها النحيلة مثل الذئاب الجائعة ويحسبون أنهم سيكتشفون في تلك النبتة المبتذلة البسيطة التي كنت لاأعرف حتى اسمها ، خشخاشا أو كيفا أو أي نوع آخر من النباتات المخدرة وذلك لكي يقيموا الدليل بشكل أوضح على انحطاطي الاخلاقي المقترن بانحطاطي السياسي . لقد كانوا يملكون الحجة على أني قد دبرت مؤامرة ضد أولائك الذين قد منعوا في صباح ذلك اليوم بالضبط الجرائد عن الصدور والاذاعة عن بث الموشحات الاندلسية مثل عادتها وعوضوا ذلك بتلك الموسيقى العسكرية المصمة للاذان . انهم الآن وقد نزلوا عندي صاروا لايبدون أية عجلة في الانصراف ؟ كانوا لايتكلمون الا نادرا ولا يوجهون خطابهم لي أنا البتة بل كانوا يتوجهون به دائما الى عشيقتي وكنت أكتشف في ذلك من جديد طرقهم في السلوك فأعرفها لاني كنت قد سمعتهم في سالف الزمن يمدحون تقنياتهم عندما كنت ألتقي بهم من حين الى آخر فيقبلون أن يقصوا علي حياتهم حياة الأعوان السريين في خدمة الثورة الكبرى يقاومون بلا هوادة الجواسيس الاجانب المتكاثرين كالنمل بالمدينة الا أنهم كانوا يسكتون دائما عن ذكر أهم نوع من أنواع نشاطهم المتمثل في تنظيم شبكة واسعة على كامل اطراف البلاد غايتها الوشاية لصالح أحد رجال العصابة الكبرى . ولم يكن ذلك الذي كان يبدو كأنه رئيسها إنما كان رجلا آخر يعيش في ظلّه وينتظر حلول ساعته ليستولي على الحكم (لاريب أنه قد فاز به منذ فترة وجيزة كما تدل على ذلك تلك الصحف التي صودرت بالمطابع وتلك الموسيقى العسكرية التي كان يتخللها من حين لآخر صوت الزعيم الجديد

يتمتم جملا جعلها جهاز ترنزستوري المصاب بشبه بحة والذي كان يرسل الكلام ارسالا متقطعا تتخلله فترات صمت ، جعلها تكاد لاتسمع مما أكسب خطاب الزعيم ــ ولا بد انه كان خطابا قاطعا صارما ــ صبغة من الفكاهة السخيفة كما لو كان ضربا من عمليات ابتلاع الطعام العسيرة). لقد كان ذلك اسلوبهم فكانوا يتركونني أشيّد في ذهني جميع الخطط ليتسنى لهم الانقضاض علي افضل انقضاض ولمباغتتي ولكي لايتركوا لي أي منفذ للنجاة . لم أكن في نظرهم مجرد خائن . لقد كانوا لايدركون تمام الادراك نوعية انتمائي السياسي ولكنهم كانوا مستمرين على ملازمة الصمت التام بخصوص الأسباب التي دفعت بهم إليّ . كانوا أحيانا ينقطعون عن عملية التفتيش ويجلسون على حافة السرير لتدخين سيجارة ولتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم بهدوء ووداعة حول مواضيع تافهة كنا أنا وسيلين لانفهم منها شيئا : كان حديثهم يتعلق بحوادث وأشخاص كنا نجهل عنهم كل شيء ولعل جميعها وهمية مختلقة ليس الغاية منها الا تخليط الامور علينا وجعل وضعنا اعسر وأكثر لامعقولية مما كان عليه في الحقيقة لأن كل شيء في الأصل قد اكتسى مسحة من الفكاهة والسخافة. وكنا، أنا وسيلين، نشعر بضرب من الرغبة في الضحك يتسرب الى نفسينا بنيما كانوا هم مستمرين في النظر الينا بوقاحة بل بعدم حياء . ولو ضحكنا لانبثق ضحكنا موجات عظيمة ضخمة متقطعة فهز مربعات زجاج نافذة غرفتنا الصغيرة هزا وفاجأ الاعضاء السريين نائلا من كرامتهم وقد طعنت بذلك التدفق المباغت من اللجج الجنونية المنطلقة كالصاروخ من حلق سيلين ثم من حلقي وقد فتحهما الانتظار وتلك المهزلة الصامتة الناعمة . وفجأة فقدوا رشدهم وجن جنونهم فسلّوا مسدساتهم من نوع « الكولت » من اغمادها وصوبوا فوهاتها نحونا وصاح رجل منهم يظهر عليه أنه رئيسهم : « يا أوباش ! يا أوغاد !» بيد أنه في الواقع لم يضحك منا أحد حتى سيلين لم تفعل مع انها كانت مستعدة للقيام بأي شيء

لوضع حد لذلك الموقف . لا لم يضحك منا احد . فهل اخرجوا مسدساتهم من اغمادها حقا ؟ أجل ! لقد كنت متيقنا من ذلك لأنهم كانوا يحملونها في أيديهم منذ أن وصلوا الى الغرفة . وكانت تلك الاسلحة دقيقة الحجم . نسيت أنها قد تصير شديدة الخطر (ذلك انني تعودت على رؤيتهم وهم يحملون الأسلحة الثقيلة على أكتافهم في الزمن الغابر أثناء المسيرات المرهقة).

وحوالي الساعة الرابعة صباحا دخلهم هلع شديد فأمروني بارتداء ثيابي وحملوني في سيارة تاركين سيلين وحيدة وقد أخذ منها القلق واليأس شر مأخذ وسط أكداس الكتب والثياب التي ألقوا بها بدون نظام مباشرة على أرض الغرفة المغبرة اذ كانت لاقدرة لها على أن تفهم كيف يمكن أن يقع ايقاف انسان بسبب « بطانية » كانت اذ ذاك ممزقة تمزيقا ولم تعد تصلح لأي انسان حتى لذلك الكاهن الأكبر (الذي دفنوه مرتديا قميصا بنفسجي اللون وسروالا باليا من نوع « البلودجين » في طرف غابة لم يعد في استطاعة أي إنسان أن يعين مكانها اليوم ولا حتى اولائك الذين دفنوه ولعلهم كانوا يشعرون بشيء من الضيق لشدّة ما أسرعوا في دفنه في ذلك اليوم الممطر البارد ولعلهم كانوا متعجلين لسرقة نظارته الشمسية وكانت لاقيمة لها تذكر ولكنها كانت تفتنهم بسبب ذلك البريق الاعجوبي الذي يعكس على العينين ألوانا باهرة فتاكة ـــ قوامها ضوء الشمس ويقع الظّل المتراكمة ـــ تكسب الوجوه والاشياء المجاورة مسحة جنونية لا واقعية. انهم لم يغفروا له قط حمله إياهم على تغضين أعينهم كلما حاولوا النظر اليه في وجهه وكان هو يجد شيئا من التسلية في حيلته الماهرة وفي ما كان يبدو عليهم من اضطراب . وكان مستعدا دائما الى الضحك من ذلك ليس معنا نحن أصحابه فقط ولكن معهم أيضا وكانوا يتمتمون عبارات الاحتجاج وعدم الرضا خلسة وينطوون على أنفسهم وقد فهموا حق الفهم أنه كان يتهكم من عاداتهم التي ورثوها عن أبائهم واجدادهم . فاستعدوا منذ ذلك

الوقت للاقتصاص منه واخماد صوته الى الأبد . وكان في نظرهم ينتهك حرمة جميع المقدسات بينما كان هو يجلس على عقبي قدمية على غرار ما يفعل القردة أو الكهنة — وقد لقّب بلقب « الكاهن » بسبب تلك الجلسة المفضلة عنده — ويمضي وقته كلما حطّ رحله في تفسير نظرياته التي كانت على درجات متفاوتة من العسر للفلاحين ، وكانوا هم يفهمونه ويهزون رؤوسهم ويبصقون على الأرض علامة على الموافقة . أما أعضاء العصابة الكبرى المتسربون بين الفلاحين فكانوا لا ينبسون ببنت شفة).

وها هم الآن وقد خرجوا من غيرانهم و مخابئهم وتخلصوا من برانيسهم وتنكروا بالزي الاوروبي ووقوا أعينهم بنظرات شديدة السواد (وانما ذلك ضرب من التأنق ورثوه عن الكاهن الاكبر) ها هم يتعاطون في ولع وشغف نشاطين اثنين : المتاجرة بالمجوهرات ومطاردة اللصوص وقطاع الطريق الخبناء أمثالي الذين لاقدرة لهم على إتيان الاضرار والشر البتة ولكنهم يرفضون التواطؤ مع الاعضاء ويذكرونهم بجريمتهم التي اقترفوها على حافة تلك الغابة . وها هم قد برزوا من سياراتهم — وقد كانوا بها فخورين أيما فخر — يهاجمون بابي وينقلون على صحيفة طويلة من الكاغذ عناوين كتبي ويراودون صديقتي على نفسها بمحضري ويجبرونني على ارتداء ثيابي والذهاب معهم داخل سياراتهم السريعة الصامتة وقد حزّ في نفوسهم قليلا أنني لا أثني على قوة محركها (الألماني الصنع) فأخذوا في اطلاق اول تهديداتهم طالبين مني بالحاح الاعتراف بذنوبي في الحال (والا فانهم سـ ...) كنت لاأسمع نهاية جملتهم تلك ولعل ذلك بسبب أن السائق كان في تلك الآونة بالضبط بصدد تبديل سرعة السيارة ولعل ذلك راجع أيضا لكوني كنت خائفا وانني كنت لا أريد تصديق الواقع ولكن لهجتهم في كلامهم كانت لا تسمح بأي شك في نواياهم! وكنت أحاول أن أتصور من خلال الستائر الحالكة غير الشفافة المدينة وهي فارغة خاوية تماما وقد استولى عليها الفجر، تلك المدينة التي لم أتمكن قط من تصورها بدون مارّتها

وحافلات نقلها وشرطتها ومغازاتها وواجهاتها. (يجب أن أعترف بذنوبي اعترافا كاملا شاملا! والا فانهم سـ ...) وعبثا كنت آسف على ترك نهاية تلك الجملة تفلت مني، كنت لا أستطيع استحضارها وأجتهد لذلك بدون جدوى بينما كانت السيارة متوجهة نحو المرتفعات. واستمر الأعضاء في تهديدي ولكنني كنت ثابتا في البحث بعنف اليائس عن الغاية من ذلك التهديد الأول والأساسي الذي هددوني به. وهكذا كنت انقطع في غباوة عن تتبع نسق أفكارهم فتفقد الألفاظ معناها وقوامها وتصبح لا مهددة ولا ساذجة وانما غريبة مضحكة ملؤها العبث والمحال تبعث على الاغراق في الضحك ولكن كانت هناك نغمة أصواتهم. كانت لا جافة ولا عدوانية بل بطيئة هادئة رصينة، أي مريعة! لم تكن واضحة قاطعة كما يتوقع المرء أن تكون عليه في مثل تلك الحال وانما كانت مفخمة مطنبة وبها شيء من التكلف والتفصح .

ولكن جميع ذلك لم يعنّي على استحضار ذلك الجزء من تلك الجملة الملعونة التي نطق بها « العضو » الجالس على يميني والتي لاريب أن سر تلك العملية موجود فيها ــ ولم أكن أنا الوحيد ضحية لتلك العملية لأن سيلين قد بقيت فريدة بالغرفة ، ولأن أمي بانقطاع أخباري عنها ستستشير « سي زبير » الذي من شأنه أن يسعد حين يعلم أني في قبضة أصحابه فلا يحرك ساكنا في سبيل التدخل لفائدتي لكي يطلقوا سراحي مع أنه كان عضوا من ذوي النفوذ والمكانة من « أعضاء العصابة الكبرى ». ومن المؤكد أنني لن اهتدي الى استحضار تلك الكلمة . لقد كنت أحاول أن أكرر سرّا بداية تلك الجملة عساني اهتدي الى اكتشاف نهايتها بمفعول ضرب من الالهام المباغت الذي لايفهم له سر كما كان يقع لي ذلك عندما كان يغيب عن ذهني لفظة من بيت شعري فكنت اهتدي بانشاد أوله الى استحضاره كاملا (اعترافات كاملة ! والا فانهم سـ ... سـ ...لي) كان لابد من تكرير هذا الجزء من الجملة عشرات المرات قبل أن ينفجر في

نفسي ضميري مثل الثمرة الناضجة فوق الغاية.ذلك الفوران اللفظي الذي من شأنه أن يغرقني فجأة الى درجة السيلان فيخرج لا من رأسي فقط بل ومن جميع اطرافي وجميع أعضائي ويسيل في فمي طعم مثل طعم الحديد ويستنفذ صرعي تاركا أياي في رحمة هؤلاء الأوغاد الاوباش حماة تلك الامبراطوريات الحديثة الناسين للازمان الماضية ولتنبؤات « الكاهن الأكبر » .

ترى كم دام الاستنطاق ؟ بضع ساعات أم بضعة أسابيع ... لم يعد لي أي شعور بحقيقة الوقت لأنني كنت أثناء اقامتي بتلك الفيلا معصوب العينين على الدوام الا عندما كانوا يستنطقونني في تلك الغرفة الكبيرة اللماعة المطلية بالميناء والتي أناروها بالضوء الساطع والتي ليس فيها أية نافذة . لم يكن هناك إلا مقعد من معدن أبيض قد احتل وحده وسط الغرفة الكبيرة فكان الفضاء يكتسب ابعادا مخيفة مقلقة بسبب ذلك المقعد الضائع في تلك المساحة الشاسعة اللاواقعية لشدة بياضها ونقاوتها لاسيما أنه لم يكن هناك في تلك الغرفة رغم صراخي وعويلي أدنى صدى لخلوها من كل شيء ولترامي أطرافها . لقد كان أخشى ما أخشاه ذلك المكان المعقم الذي لا رائحة له ولا لون. لقد علمت مما قرأته من شهادات عن غرف التعذيب أن تلك المحلات ضيقة رطبة قذرة بأرضها الخشبية المكسوة قيئا قد تراكم طبقات متفاوتة السمك وذلك حسب كون المستنطق قد طعم قبيل ايقافه بالضبط أو أنه كان لايزال على الطوى . وكنت أعرف أن المرة الخضراء كانت تحيل غرف التعذيب الى ميدان حقيقي من ميادين التزحلق يتهشم عليها جسم المعذب تهشيما . ولكن لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل في تلك الفيلا . فلا أثر للألم ولا علامة تسمح باكتشاف مرور انسان ولا رائحة عرق كذلك . لا شيء في الواقع ! ولم يكن ذلك يجعل الوضع الا أشد هولا وأقل انسانية ! لاشيء سوى هذا البياض المعمي وهذا الصمت الرهيب كلما ساقوني الى مكان الاستنطاق . ماذا يريدون

مني ؟ إنهم بدون شك يؤاخذونني على صداقتي القديمة للكاهن الأكبر وكذلك على قذارة مسكني المنفرة وعلى معاشرتي في الحرام أجنبية كافرة. كان هم علي مآخذ أخرى كثيرة عديدة قد جمعوها في ملف ضخم كانوا يتلون علي منه في بداية كل حصة استنطاق صفحات مدهشة : لقد كانت حياتي كلها منذ الاستقلال مسجلة فيها بأقل جزئياتها. وأغرب ما في ذلك هو التقييد الدقيق لاعمالي وحركاتي وسكناتي وهذياناتي . إنهم يعرفون عني كل شيء ، فلم كانوا اذن يريدون مني اعترافات كاملة ؟ كانوا يلحون علي في السؤال بالخصوص لمعرفة شيئين اثنين : ما الذي حملني على الذهاب الى بائع الجرائد عدة مرات لأطلب منه الجريدة في تلك الصبيحة المشهودة بينما قيل لي بالتحديد مرارا وتكرارا إن الجريدة لم تصدر وأنه لا فائدة في الالحاح ثم ما السبب الذي حملني على تكسير مذياعي عمدا في ذلك اليوم بالضبط الذي بثوا فيه وبدون انقطاع النشيد الوطني والموسيقى العسكرية . وعبثا قلت لهم وكررت أن كل ذلك راجع الى محض الصدفة فان معذبتي لم يقبلوا سماع أي شيء ومضوا يجتهدون في القاء نفس الاسئلة علي . اعترفت أنه لئن كان مذياعي مصابا بعطب منذ عدة أشهر فان حاله لم تكن أسوأ مما كانت عليه في ذلك اليوم المشهود . ولكنهم لم يريدوا تصديقي في هذه النقطة أيضا . وأما عن الجريدة فقد أجبتهم بأن من عاداتي السيئة التي بليت بها أن أبدأ اليوم بمطالعة صحف الصباح ولهذا فقد ضقت ذرعا بعدم الحصول على جريدتي اليومية فحملني ذلك الى النزول الى بائع الجرائد عدة مرات وذلك حتى أتأكد من حقيقة الأمر (ترى هل كان بائع الجرائد المذكور هو نفسه الذي وشى بي الى الشرطة ؟ أكان عونا في خدمة « العصابة » !! تنكر في هيئة بائع جرائد لاحكام مغالطة حرفائه أكثر ؟ الواقع أنه كان يبعث في نفسي الارتياب وعدم الثقة بسبب شاربه الذي بدا لي أشدّ شقرة من شعره) واستغربت للأمر التالي : لم يكلمني أحد منهم الى ذلك الوقت

عن « البطانية » . وكانت جميع الاسئلة تبدو لي مجرد صرف للانتباه قصد التضليل ليس الا عمد إليه « الاعضاء » الواثقون في جدوى طريقة عملهم ثقة عمياء . كانوا يريدون معرفة كل شيء مني وكنت أرهق نفسي في الاجابة عن أسئلتهم فأمدهم بجميع الجزئيات والتفاصيل الضرورية الأمر الذي كان له فضل اثارة أعصابهم الى حد لا يطاق، لقد اخترت أن أجيبهم بسرعة كبيرة بلفظة أو جملة وجيزة بل وحتى باشارة وعندئذ كان حذرهم يزداد وأصبح لا أدري ما أصنع ويضيع رشدي وقد اذعرتني صرخاتهم والعبارات البذيئة التي كانوا يمطرونني بها دفقات بصوت أجشّ صائحين في انسجام بتهديداتهم في وجهي . وكنت وأنا خائر القوى مسترخيا على ذلك الكرسي اليابس غير المريح وقد حطّم الأرق والجوع نفسي تحطيما واعمت ناظري قسوة تلك الاضواء وبياضها اللذين ليس فيهما رحمة ولا شفقة.كنت أحاول تهدئتهم وأتوسل إليهم بتوقيف تلك الحصة واعترف لهم بكل ما يطلبونه مني وأفعل المستحيل لكني لا أعاكسهم . ولكن كان يتفق لي أحيانا الا أفهم أسئلتهم ، وعبثا كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم في أذني (ظنا منهم بأني قد أكون ضعيف السمع) فكنت إذ ذاك لا أهتدي إلى الادلاء بأدنى جواب . وكنت أحيانا أجيب عن أسئلة لم أفهمها ولكن ذلك لم يكن كافيا لتهدئة روعهم بل كانوا يظنون أنني أحاول أن أسخر منهم أو أن أخلط عليهم الأمور باستعمال لغتي المعقدة . وكانوا كلما أردت توضيح موقفي من بعض الأمور أمروني بالسكوت واستأنفوا انطلاقا من البداية دائما تحقيقهم التعسفي الذي لا مردّ له :

ـــ كم سنّك ؟

ـــ خمس وعشرون سنة .

ـــ اسمك ؟

ـــ رشيد .

ـــ قامتك ؟

ـــ لا أحد يعرف بالضبط والناس مختلفون في تحديد قامتي ، فالأمر بيد من يقيس .

ـــ كف عن شروحك وتفسيراتك الغبية واستقم في جلستك على كرسيك استقامة تامة . قامتك ؟

ـــ بين متر و68 ومتر و70

ـــ قامتك بكل دقة ؟

ـــ لاعلم لي بذلك بتاتا.

ـــ حدثنا عن غرفتك ؟

ـــ ماذا تعنون ؟

ـــ صف !

ـــ لقد زرتموها .

ـــ انه امر !

ـــ طيب ، هي غرفة طولها ثلاثة أمتار وعرضها مثل ذلك ! جدرانها بيضاء ولكنها تتناثر قشورا بسبب الرطوبة في فصل الشتاء وبسبب الشمس في فصل الصيف ...

ـــ لا تسهب وكن دقيقا في كلامك . كم بها من نافذة ؟

ـــ لها نافذة واحدة . لقد قلت ذلك من قبل .

ـــ صف هذه النافذة !

ـــ ولكن ...

ـــ لا تضع الوقت فإن أنفاسك معدودة

ـــ النافذة مستطيلة الشكل وبها ستة مربعات من البلور تكسر منها عدد كبير فوضعنا عليها قطعا من الورق المقوّى ولصقناها باستعمال شرائط «السكوتش» تحاشيا لحدوث مجاري الهواء ولتعويض الزجاج الذي وعدنا صاحب الدار باقتنائه ولم يف بوعده قط رغم ما قمنا به من مساعي لديه . ومع ذلك فقد جاء في نص العقد أن عليه اصلاح زجاج النوافذ

ودفاقة ماء المرحاض المعطلة عن العمل .

ـــ واصل !

ـــ لم يبق لدي ما أقوله

ـــ كلا ! لقد أغفلت عدة أمور .

ـــ وأي أمور ؟

ـــ من اللاهة أن تعتقد أننا سنذكرها لك . فليس ذلك من مشمولات عملنا. من تظننا ؟ صف غرفتك والنافذة ؟

ـــ لعل من الممكن أن أضيف على ما قلت أن معجون صمغ المصطكاء لجميع المربعات السلورية الأخرى آخذ الآن في التفتت وأن قطعا كبيرة منه تتساقط في الشارع عند ما تكون النافذة مفتوحة وداخل الغرفة حين تكون موصدة وتنتج عن ذلك أن فسدت علاقاتي مع جميع الناس أي مع سيلين التي لا تحب كنس البقايا ومع صيادي السمك الذين لا يستطيبون وقعها على سردينهم .

ـــ لماذا ؟

ـــ بسبب حرفائهم لأنهم يحتجون عليهم وينقطعون عن شراء السمك من عندهم اد السردين ليس بالشيء النادر في الصيف بالمدينة وأخيرا فإن ذلك لا يخدم مصلحة الباعة فيأخذون في التذمر من الكساد ومن الأزمة .

ـــ أي أزمة ؟

ـــ هم الذين يستعملون هذه الألفاظ . وأظن الأمر يتعلق بكساد السوق ليس إلّا . فهم لا يتعاطون السياسة .

ـــ لماذا تدافع عنهم ؟

ـــ ترى ما العلاقة بين هذا السؤال وبين النافذة ؟

ـــ صحيح ! واصل وصفها .

ـــ يمكن أن أضيف أنها كائنة في اتجاه الشرق وأن ذلك يقلقنا كثيرا إذ تلفحنا الشمس بنارها منذ الصّباح فتمنعنا من النوم .

ـــ أنت تكذب فجميع تقاريرنا تؤكد بأنك كثير النوم .
ـــ لعلي أتظاهر بالنوم لاسكات سيلين .
ـــ لا تمزح فأنفاسك معدودة . هل لديك ما تضيف بشأن النافذة ؟
ـــ لا ...
ـــ صف سريرك .
ـــ هو من حديد مطروق وفيه تمثال صغير دميم جدا يمثل وليدا يقبل صليبا .
ـــ لِمَ هذا الصليب في غرفتك ؟
ـــ لا بدّ أن ذلك راجع إلى من سبقني من المكترين ... فهمتم ؟ ...
ـــ لم نفهم شيئا قطعا .
ـــ أعني أن دينهم ليس ديننا .
ـــ حسنا جدا . واصل !
ـــ أواصل وصف السرير أم النافذة ؟
ـــ وصف السرير طبعا .
ـــ إطار السرير من خشب كثير الشقوق وكثير الثقب وذلك من فعل البق الذي أحدث فيه بقعا عريضة رماديّة اللون وعلى إحدى خشباته كتبت عبارة مخطوطة بحروف سوداء : « مصنوع بفرنسا » وفي ذلك دليل على أن هذا السرير قد صنع من خشب صناديق التغليف القديمة . على أنّ صاحب الدار كان ينكر هذا الأمر البديهي لكنه لم يصعد إلى الغرفة حتى يتثبت من صحة اتهاماتي ، وقد كان مصابا بداء الربوة . فلم ألحّ عليه في السؤال حتى أجنبه تجشم صعود عدة طوابق .
ـــ واصل .
ـــ ان الحشيّة جديدة وهي هدية من صديقتي .
ـــ هل تعرف أن الدين يحرم الاقتران الحر غير الشرعي بالنساء .
ـــ لا ... أعني نعم ولكن القضية ليست واضحة كثيرا في نظري .

ـــ لماذا تعيش مع أجنبية ؟

ـــ هي التي أرادت ذلك . بل قد رجعت إليّ واستهوتني من جديد بعد إقامتي بمستشفى الأمراض العقلية . لقد كنت أظن أن عشرتنا ستنتهي عند ذلك الحد وأنّها ستخاف وقوعي في نكسة محتملة ولكن عندما خرجت من المصحة ألحّت عليّ وطلبت مني أن أجيء وأعيش معها في منزلها .

ـــ وما شأن السرير في كل هذه الأمور ؟

ـــ لكن أنتم الذين ...

ـــ واصل وصفك للسرير وصفا دقيقا .

ـــ إطاره حديدي جديد .

ـــ لقد قلت لنا ذلك لا تكرر فأنفاسك معدودة .

ـــ هناك ملحفتان لم أعد أدري ما لونهما .

ـــ لماذا . أقصد أصبحت تتعمد الغموض والابهام .

ـــ لا .

ـــ شاذ . مضحك .

ـــ نعم .

ـــ آ ! فأنت أيضا ترى أنك شاذ ومضحك !

ـــ هناك أيضا مسند ليس بالغليظ كثيرا كنت أطويه على نفسه . لأن سيلين لا تحتاج إليه إذ تفضل النوم بدون مخدة حتى لا تشخر لأن نومي خفيف .

ـــ تحاش الاستطراد وابق في الموضوع .

ـــ موافق .

ـــ ليس لك أن توافق أو أن ترفض فأنت محكوم عليك بالاعدام .

ـــ كيف ؟

ـــ واصل .

ـــ هناك أيضا بطانية .

ـــ حدثنا عن هذه البطانية .

ـــ هي بطانية الكاهن الأكبر . وأنتم تعرفون حق المعرفة أنها في حوزتي الآن .

ـــ لقد سرقتها في المعسكر .

ـــ لا وإنما أورثنيها الميت .

ـــ لماذا استعملت لفظة « ميت »

ـــ لأن « الكاهن الأكبر » قد دفن بمشهد مني .

ـــ وماذا صنعت بهذه البطانية ؟

ـــ ما زالت موجودة بالغرفة .

ـــ لم نعثر عليها .

ـــ ومع ذلك فهي موجودة هناك ولكنها أصبحت لا يهتدى إليها إذ لم يبق منها الا شريط ضيق صار لا يصلح لتغطية أي شيء .

ـــ لماذا مزقتها ؟

ـــ تلك قصة طويلة .

ـــ قصها .

ـــ وما الفائدة من ذلك إذ لن تصدقوني .

ـــ قصها . فهو أمر .

ـــ سيلين هي التي مزقتها .

ـــ اشرح لماذا فعلت ذلك .

ـــ أصبحت لا أعرف من ذلك شيئا .

وبعد ذلك كانوا يرجعونني..وكانوا لا يسألونني عن شيء آخر سوى أن أصف غرفتي والنافذة والسرير وبضع أدوات ثانوية أخرى كنت لا أرى لها أهمية البتّة وذلك قبل أن يصلوا بي إلى وصف تلك البطانية المشهودة وإذ ذاك كانوا يطردونني على الفور مخفورا برجلين كان يعصبان عيني

ويصاحبانني إلى زنزانتي من خلال متاهة من الأروقة لا نهاية لها ، ومن الدرج المرعب الذي كنت أتكهن بشكله الحلزوني ومحاجزه المصنوع من المعدن الصّدىء ، أعلم ذلك بسبب رائحة الصدإ التي كانت تبقى عالقة بيديّ فترة طويلة من الزمن فيما بعد . وكان ينتابني موجة من القلق حين كنت أصعد درجات السلم وذلك لأنني كنت أخاف من أن تزل قدمي فأتدحرج إلى الاسفل . وكان الوقت يبدو لي على غاية من الطول فكنت أنهك قواي في محاولة عد الدرجات ولكنني كنت أغلط كل مرة في عدّها فكان ذلك يزيد في حدة حقدي على « العصابة » ، ولكن ذلك الحقد لم يكن يدوم طويلا إذ كان الخوف يبعث الفتور في نفسي فكنت أعدل عن كل تفكير في المقاومة وأسلم أمري إلى أهواء استنطاقاتي ومشيئة سجّانيّ الذين كانوا صامتين وكأن على رؤوسهم الطير حتى ليخيل إليّ أنني كنت باحدى المستشفيات التي فرض فيها الصمت طلبا لراحة المرضى ، لا بإحدى السجون . وكانت مقابلتي اليومية مع الاعضاء السريين تحطم في نفسي كل طاقة وكل بادرة عزم وتتركني فريسة لأشد اليأس لأنني كنت لا أفهم ما كانوا يريدون الوصول له ولا ما كانوا يؤاخذونني عليه بالضبط . وكانوا يستمرون في القاء نفس الأسئلة التي لا معنى لها مكررين إياها كل يوم حسب نفس الترتيب المحكم المضبوط الذي لا يتغيّر ولا يتنوع أبدا رغم جميع المحاولات التي قمت بها لحمل معذّبي على كشف نواياهم . فوصل بي الامر بسبب ذلك إلى تمني التعذيب البدني مصحوبا بأسئلة هامة تتعلق بأفكاري السياسية وبمحاولاتي التمردية الفردية الفوضوية عوضا عن هذه الاسئلة التي لا أساس لها ولا رأس بشأن ستائر غرفتي وزربيتي (والحال أنه لم يكن لي زربية قط) ومرحاضي ثم عن نافذتي، ثم عن نافذتي من جديد ! وكنت إذا تركوني وحدي وانصرفوا ، أحاول وسط ظلام عصابة عيني أن استعيد سياق الحديث الذي قد يعينني على تفهم الوضع ولكن بدون جدوى ! لم أكن أظفر بشيء بتاتا . لقد كنت خائفا من أن أموت

في ظلمة مطبقي النتية بدون أن أرى مصدر الطلقة التي سأقتل بها ، وبدون أن أتمكن من رؤية وجه ولا عيني من سيطلق علي الرصاصة القاضية . كانت العصابة تعمي عيني شيئا فشيئا فكنت أتمنى أن لو أنزلوني إلى صحن السجن وأعدموني هناك رميا بالرصاص في قلب الشمس على مرأى ومسمع من جميع الحراس وجميع الاعضاء . وكانت « الفيلا » مكتظة بحشد من النّاس أوقفوهم بنفس الصورة التي أوقفوني بها ؛ ولكنني كنت معزولا عنهم تماما فكان من العبث أن أحاول الاتصال بأي كان . وكنت، أعلم أن أعداء « العصابة » كثيرون وأن العصابة كانت تخاف كيدهم وذلك رغم ما كان يتظاهر به « الاعضاء السريون » من رباطة جأش أثناء الاستنطاق ، كنت متيقنا من وجود أمور أخرى تختفي وراء هذه المظاهر الخارجية والمواقف المصطنعة . وكنت قد فهمت تمام الفهم أن مستنطقي أنفسهم قد سئموا ذلك الوضع ولكنهم قد أمروا بمواصلة الاعتداء بالعنف على وقتا طويلا . وكنت أحاول في تلك الحالة المبئوس منها أن ألقّن نفسي بعض معاني البطولة ولكن عبثا كنت أحاول ذلك : فقد كان خوفي في ازدياد مطرد ، وانقطع رجائي في النجاة من الموت المحتوم . فكنت أترصد أدنى صوت بالرواق (ولكن لا صوت يحدث البتة!) وأتحين أقل اختلاجة في الهواء (ولكن لا اختلاجة في الهواء تحدث البتة !) فكان ينتهي بي الأمر لشدة ما كنت أركز انتباهي على ذلك الصوت الضعيف الذي قد يطرق مسمعي، إلى أن تنتابني أوهام مريعة كنت أبقى بعدها بلا قوة ولا قدرة على النطق . وأما بقية وقتي فقد كنت أخصصها لانتظار الجلاد الذي سيضع حدا لحياتي بدون أن يوجه لي أي خطاب بل وبدون أن يهز رأسه لمشهد خوفي الذي يرثى له وتوسلاتي التي لا جدوى لها (بما أنه لن يفعل بذلك إلا أن ينفذ الاوامر !) بل وحتى بدون أن يصافحني معبرا بذلك عن شيء من التضامن بل وبدون أن ينزع عني تلك العصابة التي كانت عيناي تلتهبان لها التهابا (بل لعله يقوم بعمله بلطف ...)

عيناي اللتان كادتا تصيران شيئا فشيئا رخوتين لزجتين مثل شراب الكرز كما لو نقعتا في الدموع والقيح (كانوا لا يسمحون لي بالنوم) وقد تغضن جفناهما بصورة نهائية فماتا قبل موتي التام الذي قرره الاعضاء . كان من المفروض أن أنتظر قدوم ذلك الرجل المكلف باعدامي . وكلما كان الباب يفتح كنت أرفع يدي أمام وجهي في حركة غريزية كما لو كنت أريد أن أدفع عن نفسي بعض الاعتداءات الفظيعة. ولكنّ ذلك لم يكن يصلح حتّى لاضحاك حراسي فقد كانوا ينتشلونني ببطء ويوقفونني على قدميّ ثم يسوقونني أمامهم نحو غرفة التعذيب الملعونة تلك الغرفة المعقمة التي تبعث على الدوار لشدة ما كانت فارغة وواسعة لا أثر فيها لاي نتوء ولا لأي شبح ظلمة ، تلك الغرفة المدمرة دمرتها تلك الأضواء الساطعة القاسية التي لا تبدو صادرة عن بعض النّوارات الكهربائية المعلقة بالسقف بل تبدو كأنها قد طلي بها المحل كطبقة من الدهن الباهر الذي يخطف بالأبصار . وبعد فترة زمانية كنت أشعر كما لو أن عيني كانتا في حالة غليان وسط محجريهما الغارقين في بعض السوائل المؤذية التي حقنهما بها الاعضاء بدون علم مني أثناء فترات نومي النادرة . وقد تسربت هذه الفكرة في نفسي المعذبة وبلغت منها مبلغا جعلني أقرر الانقطاع عن النوم ، مما زاد في إرهاق أعصابي وآلامي حتى أخذت في الهذيان ، فحسبت تلك الفيلا مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية وظننت مستنطقيّ من اساطين الاختصاصيين في الأمراض العقلية كنت قد قرأت اسماءهم في بعض المجلات المختصة .

ترى كيف انتهى بي الامر الى الافلات من قبضة العصابة ؟ لم أتمكن من معرفة ذلك قط. وكانت سيلين تقول لي غايتها من ذلك بدون ريب ان تنسيني تلك القضية التعيسة إن الأمر لم يكن سوى ثمرة من ثمار مخيلتي الخصبة، يساعدها على ذلك إصابتي بمرض الشغف باصطناع الاوهام الجنوني ولكن عندما ألح عليها بالسؤال كانت لا تنكر وجود «العصابة»

إلا أنها كانت تجيبني بصوت تتكلف فيه الهدوء والصبر (كصوت إنسان عاقل يكلم مريضا، ولكن ذلك الصوت كان في الواقع ذا نبرة عاتية جدا) بأنني أنزع الى تهويل جميع الأمور؛ وفي الواقع كانت تجيب اجابة بعيدة عن سؤالي الذي كنت اردده في عناد وإصرار فأفقد كل رجاء في ان يحظى بجواب. ترى هل كنت قادرا على البقاء في تلك الحالة من الشك وعلى احتمال تدخل العصابة (الوهمي او الحقيقي) في غرفتي ثم في حياتي ؟ وكنت اعود فأشك في سيلين من جديد واتهمتها بالتواطىء مع «الاعضاء السريين» ومع اولائك الممرضات المسنات اللائي كن شديدات الولع بالحشرات التي كن يربينها تحت اسرّة المرضى وذلك للتخلص منهم متى اصبحت اقامتهم هناك امرا لا يطاق. اولائك الممرضات اللائي كن يجتهدن في تجفيف مناديل مخاطهن على حافات النوافذ المفتوحة على حرارة الصيف وعلى الخليج. ترى هل اختلقت كل تلك القصة اختلاقا ؟ كانت سيلين تقول والزفرات تتصاعد من صدرها، إن تلك القصة قصة قديمة. ولكنها كانت لا تجيب عن سؤالي الدقيق جدا بلا ولا بنعم. كانت وهي تبتغي أن تخيفني وتحملني على الانقطاع عن تشويش راحتها تطلق كما لو كانت ساهية كلمات كانت تجمدني رعبا. كانت اذا ارادت لفظة «شفرة» قالت «جيلات» واذا ارادت لفظة «جورب نسائي» نطقت باسم نوع شهير من الجوارب النسائية، فكنت استنتج من ذلك أن كل تلك القصة المتعلقة «بالعصابة» و «بالدوبيات» لم تكن الا تعلة كنت أتعلل بها لاخفاء هلعي بعد أن قمت بمحاولة انتحار فاشلة أو بمحاولة قتل سيلين. الا أن الامور لم تكن على تلك الدرجة من البساطة وذلك لانني كنت واعيا تمام الوعي بانني قد قطعت مرارا تلك المسافة بين مقر «العصابة» وسجن الاشغال الشاقة ثم بين هذا السجن والمستشفى. وكنت اذا وافيت عشيقتي بالتفاصيل حول مدة اعتقالي وحول مدة اقامتي بالمستشفى تجيبني : «في ما تقول نصيب من الصحة» ! وبالفعل فقد

وجد ذلك التاريخ وذلك اليوم الذي كانت الصحف والاذاعة قد... يمكن ان تطمئن نفسي إلى ذلك لانني قد احتفظت بالجرائد التي وصفت وقائع ذلك اليوم وكان جميع الناس قد اعتبروه امرا غير منتظر وهناك ايضا العقارب فمن المستحيل أن أكون قد اختلقت قصتها لانني لم أر عقربا في السابق قط، وقد سألت أحد رفاقي بالمستشفى عن اسم تلك الدويبات التي كانت الممرضات ذوات العروق البارزة يطعمنها ويغذينها وذلك بمرأى ومسمع من إدارة المستشفى التي لم تكن تجرؤ على التدخل. وكانت سيلين تجيبني بخصوص هذه النقطة وقد اثيرت اعصابها الى أقصى حد «ذلك الامر لا معنى له» ولكنها كانت تضيف قائلة بصوت معسول مضحك كان يخرجني من طوري : «أنت في حاجة الى قسط كبير من الراحة» وكانت تلك الفترة هي الفترة التي حاولت اثناءها أن تنقلني من غرفتي المطلة على الميناء الى بيتها الكائن على المرتفعات والتي مزقت فيها تلك البطانية التشيكية الصنع المجلوبة من المعسكر (ولكن ترى أي معسكر) ؟ والموروثة عن شخص ما (ولكن ترى أي شخص هو بالضبط) ؟ والتي احتفظت بها مقابل خصام وصراعات كانت عاقبتها ظهور «الاعضاء السريين» الفجائي في تلك الليلة من ليالي شهر جوان. ومنذ ذلك التاريخ اعتقلوني بتلك «الفيلا» واستنطقوني وعذبوني تعذيبا اشرفت من جرائه على الهلاك قبل ان يبعثوا بي الى السجن بدون سبب ظاهر في جو مهلهل بلغ من الغرابة حدّا جعلني ذات ليلة وأنا في زنزانتي أطفق مقهقها وقد انتابتني نوبة من الضحك الجنوني لا نهاية لها دامت اياما وأياما. ترى هل خاف «الاعضاء السريون» من ذلك ؟ مهما يكن من امر فقد قرروا على كل حال انه كان بي مسّ من الشيطان وخلوا سبيلي. وكانت تلك الفترة هي الفترة التي أخفت فيها سيلين جميع الاشياء الحادة وعدلت فيها عن ارتداء الجوارب الطويلة متعللة بان الربيع قد حل قبل أوانه بينما كنت اقضي ايامي أقص عليها حياة القبيلة وموت «زاهر» والزنا بالمحارم

الذي أتيته مع زبيدة وليلى، أمّي طلقها سي زبير، رب العشيرة بدون منازع فكان ذلك الطلاق بداية تشتت الاسرة ثم انهيارها وقد وقعت في فخ نصبته لنفسها واستولى عليها عنف هو عنفها الذاتي فانتهى بها الامر الى أن أبيدت بعد صراع طويل نتج عنه في النهاية عند حلول أوان القسمة تلك الفتنة الداخلية التي خربت البلاد مثل الكارثة الطبيعية التي لا حول ولا قوة للانسان على دفعها لانها كانت مقدرة مسطرة في صلب عبقرية الاسرة.

وكانت سيلين تقول : واصل ذكر قصة دار يمّا.

ولكنني كنت لا أريد الوقوع في فخّها وذلك لأنني لئن كنت قد تحدثت طويلا الى حد ذلك الوقت عن القبيلة فقد كانت غايتي الوحيدة من ذلك أن أقيم لها البرهان على ما كنت قادرا عليه من إنسجام في التفكير. فقد كانت القضية بالنسبة الي هي أن اضبط من جديد وبصورة نهائية موقفي إزاء جميع تلك الحوادث ابتداء بقصة القبيلة التي يكاد لا يصدقها العقل وانتهاء بتيهي بين المستشفى (أو المصحة) والسجن أو (سجن الاشغال الشاقة او الفيلا). وكنت التزم الصمت التام الى أن يجد في موقف تلك المرأة أو في حياتنا معا بعض العناصر الجديدة التي من شأنها أن تحملنا على اعادة النظر في مجموع القضية الا انني كنت اعرف مسبقا أنه لن يجدّ شيء بمحض الصدفة وانّه علي أن استثير الاشخاص والاشياء وأحركها عساني أتمكن بذلك من تحوير مجرى حياتي. ولم تكن سيلين تتوق إلا إلى الراحة المطلقة والى اللامبالاة التامة تستولي على جحرنا الخرب (أو تستولي — وهو الافضل في نظرها — على تلك الشقة الجميلة التي تحصلت عليها بفضل مصالح «التعاون الفني» بينما كانت ازمة السكن ضاربة أطنابها بصورة مزمنة بسبب نزوح سكان البوادي الى العاصمة بل وأكثر من ذلك بسبب بروز تلك الجموع من الرعاع القادمين من جميع انحاء البلاد لاستغلال تلك الوليمة العظمى التي كانوا على وشك تنظيمها ارتجالا في ذلك الوقت الذي اصبحت فيه البلاد متحررة من ربقة الاجانب

والذي تبوأت فيه «العصابة» مقاليد الحكم). قلت ذلك الجحر الذي كان درجه ينذر كل يوم بالانهيار لأن خشب الدرجات كان قد نخر نخرا بمفعول الرطوبة البحرية وتبقع ببقع مستديرة خضراء وببقع مربعة بيضاء ونقرته بألف صورة وصورة جيوش جرارة من المخلوقات المؤذية (من قوارض وكائنات أحادية الخلية وأخرى غشائية الاجنحة) كانت تعيش في حياتنا اليومية فلا تدع ولا تذر شيئا بسبب تلك الغريزة الوراثية الجهنمية التي حكم من اجلها على الانسان والحيوان بأن تكون وظيفته الاساسية هي وظيفة السلب والنهب اذ فيها وحدها ضمان لاستمرار الحياة. كانت اذن تريد حملي على الكلام لتهدىء من وساوسها وقلقها؛ ولكني قررت أن أبدأ علانية مقاومة كل محاولة في امتلاكي. كنت أريد أن أبقي ذاكرتي على ذلك القدر من التهويم وعدم الوضوح وذلك لي أنا وحدي حتى أحدد بوضوح ما كنت أسعى إليه بانتقالي من سجن الى سجن ومن مستشفى الى مستشفى ومن غرفتي الخربة الى غرفتي الخربة وقد اصبحت اذ ذاك موضعا معروفا لدى الشرطة التي كانت تتهمني بأنني حررت بها بعض فواتح الخطاب المؤذية الشرسة مع مواصلة اقامة الاتصالات الروحية مع «الكاهن ومع روحه الشريرة» وبأنني قد أقمت فيها علاقات غريبة مع «متعاقدة فنية» أنا ذلك الجزائري الذي أصبحت متمردا منذ حدوث تلك الكارثة التي كانت العصابة مسؤولة عنها أساسا بل ومدبرة لها تدبيرا ملؤه التطيّر، وكذلك منذ افلاس البلاد شبه الروكمبولي لولا هزال الفلاحين الجالسين حلقات واسعة على أعقاب أقدامهم وعيونهم شاخصة الى الارض المعطاء التي فقدت زبدة نسغها، الذنب في ذلك دائما هو ذنب تلك العلاقات السحرية الموجودة بين افراد «العصابة» وبين بعض الالهة الخفية التي كانت تسمح لهم وهم في مأمن من غضب الغاضبين بأن يحملقوا متطلعين إلى الافق في أمن وهدوء وأن يفعلوا ذلك وهم مستمرون في افراز غوغائية مريعة قوامها الاكاذيب والمساومات الدنيئة وتصفية الحسابات التي

كانت في الحقيقة الى الخيال اقرب منها الى الواقع بالرغم من أن تخلص مختلف النزعات من خصومها بالقتل قد أصبح أمرا مبتذلا كل الابتذال.

وكانت مستمرة دائما في إلحاحها (واصل سرد قصتك !) وكان الامر ينتهي بي الى رفض الكلام والاعراض عن تلك الفترة الغريبة القائمة على طلب الشفاء بالافصاح عما في النفس من الاحاسيس المتلاطمة انطلاقا من تمرين من تمارين الخطابة كان من المفروض أن يساعدني على اجتياز مرحلة التعثر التي كنت فيها، والتي كانت سيلين تذكرني بها كلما كان صمتي يشنج اعصابها ويثير غضبها ويحملها على الاستسلام الى مشيئتي الحاقدة استسلاما تاما وذلك رغم أنها كانت منذ حين تتمنى صمتي بكل اخلاص. وكان الشك والريبة في تفاقم بيننا حتى بلغا ابعادا لا تطاق وذلك بالخصوص عندما كانت تظن نفسها قد هزمت فتترك كل بادرة في حملي على الكلام وتقيم حولها سياجا من الصمت المخلّ فتقضي في الآن نفسه على صمتي أنا لأنها ان سكتت فان موقفي يعدم كل معنى بتاتا. فكنت أظل معذبا أنتظر توسلا جديدا يصدر عن عشيقتي. وعبثا كنت أترقب حدوث ذلك الايام الطويلة حتى يبلغ بي الامر الى انفجار اعصابي يمزق كل شيء في نفسي تمزيقا. اذ ذاك كنت استسلم الى سيلين استسلاما لا رجعة فيه، سيلين التي كنت أعرف كيف استعيد بين يديها مواقف الصبي الوجل من احتضانه سرّا من الاسرار المخجلة. كان علي اذ ذاك أن أعيد تنظيم الاشياء والكائنات في ذهني وأن أنطلق من جديد في مسيرة عرجاء شاقة.

لقد خيّرت بين سجن الاشغال الشاقة والمستشفى فاخترت المستشفى لكي لا أتعرّض الى خور أسئلة «الاعضاء» الذين اصبحوا في ورطة شديدة منذ انتشار شائعات ملحة بالمدن وبالارياف مفادها أن «العصابة» كانت آخذة في التفتت والفناء وقد نخرتها الفتن الداخلية. فلم يبق لي من الحلول الا حل واحد : أن أجتنب إثارة حساسية «الاعضاء السريين» وأن أجعل القوم ينسون وجودي فابقى في احدى المستشفيات وانتظر هناك ان تتحقق تنبؤات «الكاهن» أعني افلاس العصابة وقد اصبحت هدفا لغضب الشعب الذي كانت جموعه تتوافد من الارياف والجبال لتهاجم عمارة الحكومة وتقتحمها اقتحاما. تلك العمارة ذات الخطوط الهندسية الطلائعية التي كانت تدخل بعض البلبلة في افكار المهاجمين الذين لم يغادروا «دوارهم» في السابق قط. وكنت أخشى أن يرميني المحيطون بي بالجبن واللؤم. ولكن سيلين كانت شاهدة على أن الامور لم تكن على احسن ما يرام في رأسي المسكين المتورم بفعول ذلك العدد العديد من آثار الضرب ومن التقلبات المفجعة التي حصلت منذ موت «الكاهن». وكنت قد ازمعت حتى على تنظيم النضال الثوري في صفوف المصابين بالامراض

العقلية ولما كنت عائشا معهم مثل السمكة في الماء فقد قررت أن أغافل يقظة تلك الشرذمة من الرعناء المرتدين لباسا ابيض والذين يقومون بدور الشرطة وانخيّل على استبداديتهم الرجعية. ترى هل كانت تلك المهمة فوق طاقتي ؟ لقد كانت سيلين تدافع عن عكس ذلك اذ ترى أنني بحكم كوني مريضا سأعرف كيف أكلم المرضى فيكفي أن أعزز اقتناعي بالقضية لكي انجح في المهمة وأصدق أقوال صديقي المقتول. بيد أن الخطر لم يزل كله بعد لأن عملاء «العصابة» كان مرخصا لهم في الاتيان الى المستشفى لتعذيب المرضى.

كان المستشفى دائما هو هو. الا أن الدوبيات قد اضمحلت. وعبثا كنت أبحث عن بعضها تحت السرير اذ كنت لا اجد منها شيئا. وكانت الممرضات ذوات السيقان المتورمة العروق قد ذهبن ايضا فعوضتهن عدد من المعالجات الشابات اليقظات الخفيفات الروح ولكنهن قد ورثن عن سابقاتهن تلك العادة الراسخة المقيتة عادة تجفيف مناديل مخاطهن على حافات النوافذ. فكنا لذلك لا نستطيع تصورهن بدون انتفاخ في عروق ارجلهن. وعبثا كن يعرضن على أنظارنا سيقانهن ويكشفن عنها الى حد الفخذين ليزدن في اقناعنا بنعومة ملمس بشرتهن وبياض ربلاتهن فقد كنا متشبثين بنفي الواقع. وكان الاطباء أتعس الجماعة حظا (ألم يبذلوا الجهود لتحسين نوعية الموظفين غير الطبيين ؟) ذلك ان العداوة بين المرضى وبين هؤلاء المستخدمين قد برزت من جديد منذ الايام الاولى التي تلت دخولي القاعة رقم 18. فكانت الخطة منذ ذلك الحين هي فتح جبهات اخرى في قاعات أخرى وفي إذكاء شعلة الغضب العام الذي كان يسود جميع أنحاء البلاد وفي تعزيزه في الامكنة التي لم يبلغ فيها حدة كافية. وكان عملي عملا شاقا عسيرا لأن المرضى كانوا يخشون ما قد نضطر الى مطالبتهم به من جهد في التأمل والتأليف بين الافكار. ورغم اعجابهم بطلاقة لساني فقد كانوا يلزمون الحذر لأنهم كانوا واعين كل الوعي أن الامر لم يكن هزلا بل

أن القضية تتعلق بمشاكل جدية حق الجدية. غير أن أمرا كان يشجعني على المضي قدما في خطتي التخريبية وهو أنه لم يقاطع الاجتماعات التي كنت انظمها في مختلف القاعات ولو مريض واحد. وكنت انظمها متواطئا مع طبيب نفساني قد انحاز منذ زمن بعيد الى قضية الشعب، ولكنه كان له صيت خطير وهو أنه كان شيوعيا. وكنت أكد وأجد رغم خيباتي الشخصية ومضايقات الادارة وحالتي العقلية الواهية (على حد قول الاطباء وسيلين) في القيام بهذه المهمة التي لم ينطها بعهدتي أحد ولكني كنت اعتبرها مهمة أساسية للتعبير عن الثورة الدائمة تعبيرا جديا. وبعد فترة من الزمن بدأت مجهوداتي تكلل بالنجاح ولكنه كان علينا أن ننتظر علامات مقنعة تصلنا من الخارج فنشنّ المعركة الحاسمة ضد «العصابة» المتبرجزة التي أكلتها غوغائيتها الذاتية. وكنت أخشى أن يصيب رفاقي شيء من الكلل والفتور. وكانوا رغم طول الانتظار ما زال الفرح يهزهم خلسة، الا أنه كان يستولي علي شعور ملح بالقلق والضيق. ترى هل كنت سليم العقل ؟ (وترى هل كان عالم النفس الذي كان يجري علي روائزه واعيا أنني كنت أستميله الى مذهبي ؟) كلا ! لان «الاعضاء» لم يرفقوا لي اثناء المدة التي قضيتها مسجونا بتلك الفيلا، وما زلت أحمل ــ إثر تصدع في عظم من عظام جمجمتي ــ علامات صريحة تدل على عدم التوازن العقلي وقد زاد في حدته ذلك الاختلاط الكامل الذي كان يعبث كل يوم بيقيني. ترى هل كنت حقا بالمستشفى ؟ لم أكن والله أدري عن ذلك شيئا. لقد كان لدي من الحجج على الجواب بالاثبات مثل ما لدي منها على الجواب بالنفي. وعلاوة على ذلك فقد كان يخامرني الاعتقاد في ان العصابة قد حبستني بموافقة أبي بسجن الاشغال الشاقة المعروف بسجن «لامباز»، رفقة عدد كبير من المعتقلين السياسيين كانت نفوسهم تتعفن هناك منذ سنوات عديدة بدون أن يحاكموا قط بل وبدون أن يحاطوا علما بالتهم المتعلقة بهم. وكلما حاولت أن أوضّح هذه المسألة فقدت الصلة بالواقع فكان كثيرا ما

يتفق لي أن يغمى علي أثناء اجتماع سياسي نظمته أنا شخصيا. وكانت سيلين تعودني فأحاول أن أظهر أمامها في مظهر مؤثر يثير الشفقة ولكنها كانت ترفض الرثاء لحالي لأن كل موقف من مواقف الشفقة تجاهي يكون وخيم العواقب ومن شأنه أن يعزز ميلي الى التظاهر والتكلف. فكانت بذلك تخرجني من جلدي غيظا وتذكي حقدي عليها هي تلك الانثى العاجزة عن السمو بموقفي البطولي الى أعلى مستوى ! ألم أكن بصدد تنظيم المقاومة الشعبية في نطاق المستشفى ؟ (أو سجن الاشغال الشاقة فالامران سيان بما انه من المحتمل كذلك أنني قد كنت بتلك الفيلا التي هيؤوها منذ الاحتلال الاجنبي وصيروها مركز تعذيب). لقد كانت تضع موضع الريبة والشك تلك الشائعات التي كانت صادرة من كل فج عميق في اطراف البلاد والقائلة بدنو ساعة الانفجار النهائي وكانت تتهلل فرحا وابتهاجا خلسة لكونها لم تعد مضطرة إلى احتمال وجودي كل يوم وذلك لأنها غادرت جحرنا منذ حدوث ذلك الحدث الذي كانت تطلق عليه اسم «نكستي» تحفظا. وكنت أحتج عليها وأعترض بمجرد أن أراها قادمة مهتزة الردفين، شاحبة اللون من «كثرة الأرق» (على حد قولها!) الذي نتج عن ذهابي عنها، وفي الواقع فقد كانت سعيدة لتخلصها من هذياناتي وبالخصوص هذياناتي عند مطلع الفجر التي كانت تزعزع الحلم والواقع وتتركها خافقة ترتعد من فرط شكها في إمكانية إعادة تهذيب عواطفي بعد ثبوت موت زاهر وبعد زيارة ليلى أختي اليهودية من أبي التي كدت أغتصبها ذات ليلة في غرفة من غرف دار أمي بينما كانت على سبيل اللعب تقبلني على فمي وتعري صدرها الرائع بمحضري.

إنها المأساة المرقشة بالألفاظ والاشارات، وينتهي بي الأمر إلى أن أشعر بحلقي يحرقني لفرط ما توسلت لكي أسمع على لسان عشيقتي اسم المدينة التي كنت بها سجينا. كانت ترفض الاستجابة لتطلعي الملح الى معرفة ذلك متعللة بأنها لو فعلت لأفسدت طريقة أطبائي في العلاج القائمة

على مذهب الارادية (ومن المحتمل أن يكونوا من المسؤولين التابعين لادارة السجون والمولعين بدراسة اجتماعيات جماهير المحتشدات ونفسياتهم)... فكانت بذلك تحملني ما لا يطاق، ويؤول بي الأمر في النهاية إلى ذكر لساني وهو يلعق بشرتها لعقات حارة مخضلة، وهيئتها وهي تصر بأسنانها صريرا وقد غابت عن الوجود لذة واعترافا وتتوسل إلي طالبة منّي أن ألحس فعري إبطيها المحلوقي الشعر المعطرين على الدوام مصرحة لي بان ذلك المكان هو أشد مناطق جسمها إثارة للذة الجنسية (وكانت تقول إنه بإمكانها أن تستغني عن وجود فرج بجسمها إذ أن إبطيها كانا يثيران فيها من اللذة ما يبلغ بها حدا يبعث شيئا من الألم في أسفل بطنها حيث كانت تحدث انقباضات أليمة إلا أنها مثيرة للذة الجنسية). وكان لا يعجبها مني تلك الكيفية التي كنت أذكر بها هيآتها ومواقفها في خلواتها : (أي رذائلها وانحرافاتها الجنسية) ولكنها كانت تبتسم مع ذلك حتى لا تتشنج أعصابها ولئلا تضطر إلى رفع صوتها خوفا من أن تثور ثائرة رفقائي المرضى إذ لو حدث ذلك لطفقوا يسخرون منها ويوبخونها بدون أي تحفظ. وكانت تنصرف دامعة العينين مهانة مكلومة النفس إلى حد أنني كنت أعد نفسي بتغيير موقفي منها عند زيارتها المقبلة.

لا يزال اللغز مرتبطا دائما بخرافة الجنين التي اختلقها زاهر عندما كنا صبيانا والتي لم يوضح سرها قط. لقد أصبحت الآن وقد مات أخي الأكبر واثقا من أنه أخفى عني أمرا ما وأنه قد كانت له حيلة سرية لوضع حد لذلك الوسواس الوخاز. ولم تكن تلك الخرافة متعلقة بمجرد البحث عن الوالد (الذي صرت أعده اليوم في عداد أعضاء «عصابة» تجار المجوهرات) ولكنها كانت تتعداه لتشمل تلك الفئة الحقيرة من البشر المتقاتلين فيما بينهم قتال الأخ لأخيه والمكونين لتلك القبيلة التي ظلت مغلولة مدة مائة وثلاثين سنة إلى هيكل اجتماعي يجلب الخزي والذل. وفي الواقع فقد كانت القضية متعلقة بعملية كان نصيبها الاخفاق أثناء مدة

طويلة جدا إذ لم يكن الجنين ذلك المولود الذي ستضعه زوجة الأب، الزوجة العشيقة في آن واحد وإنما كان تلك البلاد التي انحطت فآلت إلى علقة نفخ فيها إلى أن بلغت حد الجنين ثم هجرت وأهملت وظلت تنتظر في ذل وخنوع حدوث العنف المتباطىء. وركن العنف الى الجريمة. وزعم «الأعضاء السريون» أن موت «الكاهن» كانت الغاية منه القضاء على كل نوع من أنواع الغوغائية وذلك بفضل تعاون الطبقات الذي كانت العصابة (منذ أن استلمت مقاليد الحكم واشترت جميع المقاهي وجميع المواخير من أصحابها الاسبانيين والكورسيكيين وزرعت مثلما تزرع أجباح النحل خلال جميع أطرف البلاد «فيلات» للتعذيب أحسنوا تجهيزها أحيانا أكثر مما كان يفعل في فيلاتهم أولائك الرجال الحمر البشرة أثناء حرب السبع سنوات) تعاون الطبقات قلنا الذي كانت العصابة تحاول أن تجعل منه أمرا محتوما وذلك انطلاقا من الرجوع إلى الأصل رجوعا مزيفا خداعا ومن تلاقي جميع المواطنين من جديد في صلب ديانة الدولة. وكان الفلاحون وقد ضاقت أعينهم لفرط ما حلموا بالغد الأفضل يقعون في فخ الاتحاد الذي فيه ضمان النمو والرفاهية. فكانوا يصفقون ويهتفون إلى أن تؤلمهم أيديهم لهذر الرؤساء حول العظمة القومية والكرامة المسترجعة. وكان عملة رصيف الميناء وكلهم من أصدقاء أخي الراحل ومن المدمنين على شرب الخمر الحمراء البخسة الثمن يخونون تعاليم الفقيد وذلك بتنظيم ميليشيات مضادة للشيوعية. كانوا ينهبون المدن ويضرمون في الساحات العمومية حرائق هائلة يفعلون ذلك لا عن اقتناع سياسي ولكن لأنهم كانوا ضالين ضللتهم الذئاب ومهددين هددتهم الشرطة. ولم يكن سي زبير وهو من مناصري «العصابة» يساعدها ماديا ومعنويا من بين المتخاذلين في مقاومة المذاهب الأجنبية الهدامة. فقد كان يعتقد أنه من الواجب رفض كل ايديولوجيا مضرة بمصالح كبار التجار وكبار الملاكين العقاريين والتشبث بالتقاليد الرجعية التي تجمد كل شيء على منوال ما فعله الآباء

والأجداد وذلك لا للذود عن مذهب أخلاقي صارم ولكن لاحكام استغلال الطبقات الفقيرة وللتمكن من ابقائها في متناول اليد (ترى ما عسى أبي أن يصنع لو عدم أولائك المتسولات الصغيرات اللائي كن يجئنه كل صباح يطلبن الصدقة واللائي كن مقابل ذلك يسمحن له بملامسة فروجهن وقد تجمدن رعبا.

لقد كن يطاوعنه في ذلك خوفا من إضاعة ذلك الفلس الذي كان الوالد قابضا عليه في يده الأخرى بمثابة الطعم. ثم انهن كن يتعودن ذلك فينتهي بهن الأمر الى القدوم إلى المغازة لارضاء تلك العادات الجنسية القبيحة التي عرف سي زبير كيف ينميها في أجسادهن. ترى كم مرة فاجأته وهو متلبس بجريمة اغتصاب أولائك البنيات الصغيرات في أطمارهن ؟ وكان إذ ذاك يعرف كيف يستعيد هيبته ووقاره فيتكلف بعض الألاعيب الصبيانية ويشفق على أطمار الصبية الجائعة، ويستعيد فجأة صوته المرعد المشتاق إلى الوعظ والارشاد ويذهب إلى خزينة ماله الفولاذية باحثا عن المصحف المقدس ثم يفتحه في الصفحة المطلوبة بالضبط ويردني في صلف وبدون أن يفقد شيئا من حدته إلى الطريق المستقيم الداعي إلى إيتاء الزكاة التي أمر بها الله ورسوله فيعكس بذلك الآية ويعصرني بين انذهالي الجارح ورغبتي التافهة في قتل ذلك الوالد القذر الذي أفلت من خيط نسجي.

إنّي لا أجد في نفسي إلا شعورا بالشمس شعورا مفاجئا قاسيا لا يترك في قدحي وطعني إلا يأسا قوامه الظل الناعم والشعور بالبرد، رغم حرارة الطقس وباب ضيّق زرّق لونه الكلس والصمت. ثم إني كنت أطفو فجأة من ذلك الحلم الفظيع فأنطلق في الشارع راكلا جميع قطط الحي وقطاته التي كانت تبدو لي هائجة طالبة للسفاد. وأمضي في ذلك إلى حدّ الشعور بالألم في خصيتيّ).

ولكني علمت عندما كنت بسجن الأشغال الشاقة أن شيخ قبيلتنا لم

يكن راضيا عن الأعضاء كل الرضى فكان ينتقدهم لا عن سياستهم القمعية ولكن يعيب عليهم استعمال تلك الصيغ وتلك اللغة الثورية المزيفة رغم أنهم كانوا قد طمأنوه عدة مرات بأن الامر لا يعدو ان يكون مجرد طريقة تكتيكية لا بد منها لشد انتباه الرعاع فلا يترك لهم متسعا من الوقت للتفكير وكان الوالد يحلم بقيام دولة دينية تكون مقاليد الحكم فيها بيد رجال الدين. وكان يتذمر من الاباحية السائدة بالمدينة ومن تعاظم البغاء بها تعاظما مفجعا. فهل كان يدعو الى منع شرب الخمر والكحول واغلاق دور البغاء وحمل المواطنين وقد تطهروا من النجاسة الاجنبية على اقامة صلواتهم بحضور شاهد وجبر النساء على التزوج في سن التاسعة اقتداء بزوجة الرسول ؟ لو فعل ما استغربت ذلك منه اكثر من اللازم فقد عرفته زميتا متعصبا مخلصا : لقد كان يريد حقا انشاء الشعب على الخوف من الله وذلك لانه لئن كانت النخبة تعرف كيف تنظم سلوكها حتى وسط الدعارة فان الجماهير من جهتها عاجزة عن ذلك. وكانت هذه الفكرة ملازمة لذهنه كالوسواس لاتفارقه وكان له عليها انصار متحمسون تحمسا كبيرا ومنهم ذلك الاحدب المنتفخ بائع الشموع. ولكن العصابة كانت في نفس الوقت تحذر حدوث مثل تلك المؤامرة الدينية. فكانت تتنازل لهم عن امتيازات عريضة من ذلك مثلا انها كانت تشيد المساجد على يد مهندس معماري اشتهر بكراهيته للدين ورجاله الا انه قد بلغ به الشغف بالاقواس والحنايا حدا قبل معه ان يشيد بيوتا لله بدافع حب الجمال الفني في حين ان البشر كانوا في امسّ الحاجة الى مساكن ولكن ترى من كان يتذمر من ذلك ؟ لا احد بل اكثر الشعب كان يبارك اعمال العصابة ويثني على خطتها الدينية وعلى ورعها الفياض. فقد كان الزعيم الاكبر يظهر في مظهر الزاهد الحقيقي. وكان ما رآه من خطر انزلاق البلاد نحو اعتناق ايديولوجية مستوردة هو الشيء الوحيد الذي اخرجه من تلك التاملات الماورائية الطويلة التي اغرق فيها غداة الاستقلال الوطني على قمة جبل من

جبال البلاد لا يعرفه احد لاسباب امنية لان الزعيم الاكبر لم ينقطع ــ رغم المهام التي كانت تفرض عليه البقاء بمقر الحكومة ــ عن الذهاب الى ذلك الجبل والاقامة فيه فترات قصيرة ينتقل الى هناك على متن طائرة عمودية مرقشة باللون الاخضر يقودها طيّار فرنسي الجنسية متضلع في علم الطيران قد اعتنق الاسلام. وكانت البلاد تلهج بذكر اسلامه وكانت الصحف لا تترك فرصة تمر دون ان تتحدث عن ذلك الطيار الخارق للعادة الذي عزز اعتناقه للاسلام، في قلوب جميع المؤمنين ايمانهم الراسخ بان المخرج الوحيد من المشاكل الاقتصادية يكمن في التفرغ لعبادة الله تفرغا كاملا.

كانت سيلين تلهث وتقول انني اهذي هذيانا وان حالتي اصبحت أسوأ مما كانت عليه. ولم يسبق لها ان كلمتني بمثل تلك الصراحة وقد استغربت ذلك منها، فطفقت اتوعد ــ وقد دخلني الهلع ــ بالاغراق في الهذيان وبالموت هناك على الفور وذلك بأن احبس في دماغي المريض جميع الافكار الموسوسة التي تعلمت كيف اوضحها بصورة سطحية مؤقتة، الى ان تختنق خلاياي العصبية اختناقا كاملا والى ان يشلّ مهادي البصري في دماغي شللا نهائيا. فكانت تسرع باحضار احد الاطباء فكان عوض ان يوبخني ويعظني يصافحني ويشجعني على ثورتي باعتبارها الطريق الوحيدة المؤدية الى شفائي. وكان يصل به الامر الى ان يوحي الى بان اتخلص من عشيقتي الفرنسية وكانت هي لا تفقه من القضية شيئا فتقرر ان جميع الناس في ذلك المستشفى مجانين. فقد كانت تثير أعصاب رفاقي فكانوا عوض ان يقذفوها بالسكاكين ــ على غرار ما كانوا يفعلونه لو كانت الحالة عادية ــ يلفظون في وجهها اقوالا وشواهد ثورية لانهم كانوا يعلمون علم اليقين انني كنت رغم الظواهر متعلقا بها شديد التعلق.

وكانت تظل هادئة ثابتة وتوفق لشدة ما كانت تنظر اليهم الى ان تجعلهم يشفقون على نفوسهم بالذات فكانوا يضلون سواء السبيل ويتيهون

فيغورون في اقصى اقاصي كيانهم بحثا عن بعض الطمانينة القصوى او عن ضرب من ضروب الجنون الضرورية لموقف اللامبالاة الذي كانوا يريدون ان يقفوه تجاه سيلين. وكانت هي اشد بأسًا منهم وقد خارت عزيمتها من جراء ذلك الوابل من المصائب الذي انصب عليها ، فلم يكن لها بالبلاد الا علاقات زائفة استحالت الى علاقات عابرة منذ ان عرفتني. وكانت تعرف كذلك ان لا مخرج لها من تلك الورطة الا في الانصراف والاستيطان من جديد في مجتمع يتدفق فيه معجون الاسنان امواجا. ولكن لما كانت تكره غسل اسنانها كرها شديدا فان ذلك الحل لم يكن يناسبها بالدرجة التي قدرتها. كانت لا تريد الانصراف ولكنها كانت كذلك لا تستطيع البقاء. وكنت اطلق على هذه الورطة عددا كبيرا من عبارات الهزء والسخرية اللاذعة على انه لم يكن لذلك اي مفعول في الواقع ! الا انه كان يدعم اعتقادي بان سيلين لم تعد تدللني كما كانت تفعل من قبل. بيد ان الحياة بالمستشفى كانت تستنفذ كثيرا من وقتي فكنت سرعان ما انسى مشاكلي مع تلك المراة الاجنبية حتى اتفرغ وانكب على النظر في مسائل كانت اهم في نظري : مثل سر اختفاء بنات وردان والحشرات الاخرى كالعقارب ومثل دور الممرضات الشابات المؤذي ومثل التنظيم السياسي لتلك الجماهير المتخلفة ذهنيا. وكان هناك بالخصوص مشكل كان يلازمني اكثر فاكثر كالوسواس وذلك منذ أن زارتني ليلى اختي اليهودية من اني اذ ادهشتني هيئتها المتكلفة طوال مقابلتنا فقد وددت لو علمت اكثر مما كنت اعلم بشان ما جرى بيننا عندما اقامت هي تلك الاقامة القصيرة بدار يمّا . فقد تظاهرت بالاستغراب وزعمت انها لا علم لها بحدوث اي شيء شاذ بيننا سوى انني قد اعطيتها عنوان «هيماتلوس» الذي كان اذ ذاك مقيما باسرائيل. ترى هل اوحيت لليلى بذلك العنوان فعلا ؟ لقد كانت جازمة بذلك قطعا. فتوسلت اليها الا تقول عن ذلك شيئا من شانه ان يبلغ مسامع «الاعضاء السريين» فيتعللون به ليهجموا علي في ضراوة

ويسلموني للشعب يصب علي خزيه ولعنته، اذ لا يمكنه ان يغفر لي مثل تلك الاهانة. وفعلا فان جميع الناس كانوا واعين بافلاس البلاد افلاسا يرثى له ويبحثون عن الخلاص من تلك الورطة بابداء شيء من العداوة المكبوتة حتى ان سكان المدينة اصبحوا لذلك حانقين كمن علقت به الادران والاقذار .

وكانت ليلى لا تفهم انفعالي فكنت اتهمتها بالمشاركة في ذلك الجهاز القمعي الهائل الذي اقامته السلطة الحاكمة لارهاب جميع من كانوا على شاكلتي والذين قد يتجاسرون على قلب نظام الامور. ولكنها، باتت تضحك من نزعتي وميلي الى اعادة تاويل جميع الامور من جراء قوة مفرطة في ذاكرتي كانت تخيفها على حد قولها. ترى هل كان في قولها ذلك تلميح الى نسيانها الحاد لعملية الزنا بالمحرمات التي كادت تقذف بنا خارج الامة الغيورة على امتيازاتها وعلى محرماتها والتي لم تعدل البتة عن رجم من كان يطيب له ارتكاب السوء والفحشاء من رجال ونساء ؟ كانت تشعر بالخوف وهي تصغي الي لانها كانت تعرف انني كنت على علم بمحاولات الانتحار العديدة التي قامت بها. فقد كانت عند كل محاولة تجرّح أوردة معصمها. وقد كان في ميل هذه المرأة الى الحرية ما من شأنه أن يهيج مطالب جميع الذكور العدوانية وقد صمموا على معاقبة كل محاولة تصدر عن النساء في سبيل تحررهن، بدون شفقة ولا رحمة. وغدا ذلك التحرر امرا منسيا وموضوعا للسخرية والاستهزاء اذ ظلت جميع البلاد متشبثة بتلك المكرمة الوحيدة التي لم يكن أحد يتجاسر على اعادة النظر فيها : ألا وهي حشد النساء في زرائب كالمواشي وتربيتهن كما يربى دود القز ثم تركهن يمتن في ذلك الكفن الابيض الذي كانوا يكفنونهن فيه منذ خروجهن من سن الطفولة. وكانت اختي من أبي تزعم أنها تعرف من الامر ما فيه كفاية لها : فقد كانت جميع نساء البلاد بصدد تنظيم صفوفهن في الخفاء، ويستعددن للقيام بمسيرة عملاقة قبلتها قصر الحكومة، غايتهن

الاولى من حركتهن ان يضربن ضراطا يختنق له الزعيم الاكبر الى أن يلقي حتفه. وكن قرأن لكل شيء حسابه. ففي صورة ما اذا ظهر أن لروح الرئيس من القوة والثبات ما يمكنها من الرجوع الى البلاد ثانية فإنهن قد هيأن خطة طويلة المدى لتخليص جميع المنطقة من تلك الكارثة الطبيعية المكدرة المعرقلة لمساعيهن. وكان رفاقي المرضى،وقد اعلمتهم بذلك السر شخصيا، يصفقون فرحا وقد ابتهجوا بقرب الانفجار المقبل. لقد كانوا سعداء بهذا الاجماع حولنا وحول جميع من كانوا يمهدون السبيل لظهور عالم جديد تتخذ فيه القرارات بغلق جميع مستشفيات الامراض العقلية وبارجاع جميع المرضى الى ذويهم وقد كانوا حتى ذلك الحين منقطعين عن الواقع، وكان الانفعال يبلغ احيانا اقصاه عندما يرد في بعض اللوائح التي صودق عليها بالاجماع ان وجود السجون في صلب حكم المستقبل أمر يتنافى مع طبيعته القائمة على الحرية والشعبية وانه يجب ان تغلق جميع السجون وان تحول الى مدارس ليلية لتعليم البطالين الذين قد يوجدون بفعل معجزة من المعجزات الخارقة للعادة، وذلك رغم الجهود المنظمة التي بذلها النظام الحاكم ورغم ثقته فيما كان يرصده من طاقات بشرية. لقد صرنا لا نحيا بل صرنا نرقص من الصباح الى المساء. وبدأت الممرضات يأخذننا مأخذ الجد وأصبحن قلقات بشأن مستقبلهن في صلب مجتمع ينعدم فيه المرضى بعقولهم المحتاجون الى علاجهن فكن بالتالي يلتحقن فورا بصفوف الرجعية وصفوف «العصابة» المعادين لكل تغيير في الاوضاع. ترى مما كنا نتذمر ؟ ألم تختف بنات وردان وبقية الحشرات والدوبيات ؟ ألم يكن جيشنا أقوى جيش بالمغرب العربي ؟ ألم نكن أعضاء ذوي نفوذ وسلطة في منظمة الامم المتحدة ؟ ألم يرتفع ثمن النساء المخطوبات من آبائهن فارتفعت بالتالي القيمة الجوهرية للمرأة ؟ وكانت هذه الحجج الصادرة عن اولائك الممرضات عميلات النظام المتعفن المتلاشي لا تخلو من اثارة البلبلة والحيرة في نفوسنا. لقد كان

ينقصنا الذكاء الكافي لدحض مثل تلك الاعتراضات دحضا مدعما بالحجج بيد اننا كنا نستعيض عن الذكاء بحماسنا الفياض. فكان الامر يبلغ بنا الى حد التصريح بعبارات ملؤها التهديد باغتصابهن، هن عدواتنا في الطبقية، فكن يضحكن من ذلك الى ان تغرورق اعينهن بالدموع ويرجعننا فجأة الى وضعنا الحقير وضع رجال مصابين في عقولهم وعاجزين مؤقتا عن القيام باية عملية جنسية. ترى كيف التوصل، الى اغتصاب اولائك المهرات، اللائي كن يتبخترن متبرجات بين اسرتنا تبخترا متزايدا ، ويتداعبن بان يلامسن سررهن امامنا وقد خررنا وتهنا في بحر لا حدّ له من التأملات، محاولين ــ للحفاظ على ماء وجهنا ــ ان نتلقف بعض اشلاء الكوابيس او اذا اعوزنا ذلك بعض بدايات الرّؤى ؟ ولكن لا شيء من ذلك كان ينفع لقد كنا حقيقة مجنونين تمام الجنون وكان هذياننا على قدر عظيم من التفكك والاضطراب. لقد كانت الدبابات أشد فعالية من تمحّكات المساجين السياسيين الذين كانوا ينقلونهم على الدوام من سجن الاشغال الشاقة الى المستشفى ومن المستشفى الى سجن الاشغال الشاقة بينما كانت الجماهير في الخارج مبتهجة لعلمها باننا كنا في وضع لا يمكّننا من ايذاء اي كان، فكانوا يقاتلون جيراننا بسبب بضعة امتار من الصحراء ويرسلون وحدات من المتطوعين الى بلد من بلاد القارة الافريقية وذلك لاقامة البرهان على رجولتهم وعلى ان الله على كل شيء قدير.

لقد استيقظت في عالم كنت لا اعرف فيه اي مكان يحتل رأسي من جسمي، وكنت احتاج الى تلمس بدني تلمسا طويلا ملؤه الحيطة والاعتناء لاهتدي بعد فترة من الزمن طويلة ثقيلة الوطأة الى العثور على وجودي ابتداء من رأسي الذي كنت اهزهزه كل صباح بعنف متزايد كما لو كنت اريد التخلص من وجع حل بعنقي. وكانت النوبات العصبية ليلا والعلاج بالصدمات الكهربائية نهارا. كان الاعضاء السريون يأتون احيانا لزيارتنا وللاطلاع على تطورنا السياسي وارهابنا بتهديدنا بالموت. وكان لنا دائما

امكانية الركون الى التظاهر بالجنون التام وكان من شان ذلك ان يحرجهم ويضايقهم فكان الامر يؤول بهم في النهاية الى الانصراف وقد امتلأت نفوسهم شكا وتخوفا وذهب الظن بهم الى ان بعضنا قد بلغ بعد مراتب الاولياء الصالحين (وكان ذلك يتعلق باشدنا اصابة) وخافوا ان يكون لذلك البعض منا بعض القوى المؤذية التي من شانها ان تجلب لهم الموت او ان تغرس فيهم بعض الامراض المؤذية المؤلمة التي قد تشدهم بقية حياتهم الى سرير بائس قذر باحدى المستشفيات فكانوا يباعدون بين الزيارة والزيارة فلا نراهم خلال فترات طويلة من الزمن كان الامل يعود فيها الى نفوسنا. لقد كان المستشفى ــ السجن غاصا على الدوام فاضحى جلادونا لا يهتدون الى القيام بعملهم كما ينبغي. كانوا يحلمون بصدور قانون لا يرسل بمقتضاه الى السجون والى مستشفيات الامراض العقلية الا انصار النظام وهم اقلية قليلة جدا يمكن لهؤلاء الجلادين ان يعتنوا بافرادها اعتناء احسن بكثير من اعتنائهم بتلك الجماعة من الوحوش التي لا تحصى ولا تعد والتي كانت قادرة على جلب جميع المصائب وتنظيم جميع المؤامرات. ولكنهم كانوا في اعتباراتهم تلك لا يقرؤون حسابا لعزمنا الراسخ على مقاومة مثل تلك المشاريع المضرة باهدافنا الاساسية : الا وهي تعفن النظام في صلب بلاد البربر المنفتحة على البحر وعلى الاثار الرومانية والمشرومة بشورم وخلجان واسعة كان انبهارنا لا ينفك يتعاظم فيها ونحن نبحث عن نشقات من الهواء نستنشقها بشره ونهم وقد اخرجنا رؤوسنا من المغطس الذي مرّ به اخواننا قبلنا فلم يتركوا به اثرا لكيانهم المعذب سوى شيء من القيء النخامي غير الشفاف كنا نبحث فيه عن علامة ورموز تمكننا من تحسين طريقة الاتصال بهم من خلال سعير الصدمات الكهربائية (او جهنم إلكترودات التعذيب الدهماء) ومن البحث وسط ضعفنا وخوفنا عن يقين قد يكونون تركوه هناك ، يقين سيكون بمثابة الكارثة في نفوس معذبينا وبمثابة زهرة الغائط تفوح رائحتها النتنة في حياشيم الاعضاء السريين. وكان

تطيرنا المفرط يضايقهم ويزعجهم وكانوا لا يريدون القضاء علينا بالقتل بل كانوا يبتغون ان يخرجوا من اجسادنا تلك الجرثومة المنغرسة في عقولنا المتشنجة، المضطربة، لا بسبب الآلام، ولكن بسبب تلك العلامات الملعونة التي كانت اشد تعبيرا من اي الم من الآلام. علينا ان نتجنب التلاشي خلال دلالة الاشياء وان نتعلق بمطلبنا الحيوي وقد تجرّد من كل مبرر قد يفقده عصمته ويجعله عرضة للمطاعن وان نستمد قوانا من حقن الدم (جميع الدم !) الذي كان يسيل على وجوهنا المرضوضة الممزقة بمفعول اللطمات باليد والركلات بالارجل التي كانت وجهتها لنا تلك الجماعة من اوغاد الشرطة الذين خرجوا هم انفسهم منذ زمن قصير من المحتشدات والسجون والفيلات التابعة للسلط الاستعمارية. فما ان تحرروا من القمع والعنف حتى اندفعوا مثل الصواريخ فغاروا في اشلاء حطام اجسامنا المشوهة شر تشويه وسط ضحكات السخرية الصادرة من افواه اولائك الاوباش وكانوا يتلذذون من وضعنا البائس فتبلغ بهم اللذة درجة لا يتمالكون معها ــ وهم يجيشون جيشانا ساديا ــ عن ملامسة اعضائهم الجنسية من خلال قماش سراويلهم وقد انفعلت التذاذا بخوفنا من الضربات والتمزيقات ذلك الخوف المرتبط بطفولتنا الخفاقة في صلب القبيلة وفي صلب جموع الذراري ووسط الاواني ووسط الدم (دم الاضاحي ودم النساء الحائضات). ولم يكن المستشفى الا تعلة الغاية منها اخفاء مرارة سجن الاشغال الشاقة وقسوته عن يمّا ، ولم يكن الجنون المتكلف الا موقفا دفاعيا ضد الجلادين الذين كان يرعبهم صمتنا المطلق متى ازمعوا على استنطاقنا عن تفاصيل نشاطنا السري ضد «عصابة» تجار المجوهرات وكبار الملاكين العقاريين، تلك العصابة التي كانت مشغولة بالاثراء بدون حياء ولا خجل وبقمع كل من تحدثه نفسه بمنعها عن الايذاء والضرر قمعا وحشيا.

وفي الواقع فان خيبة «العصابة» كانت واضحة لا غبار عليها ولكنهم

كانوا يعيبون علينا اننا اكدنا القول على تلك الحقيقة التي كان من الواجب ان نخفيها بل ان نسكت عنها. الا ان الشائعات كانت في تعاظم وتفاقم بالبوادي التي كان الفقر والحاجة والجوع فيها في ازدياد وبالمدن حيث شرع الناس في تنظيم صفوفهم وذلك بعد افلاس القادة وقد تذبذبوا بين مصالحهم المالية الخاصة وبين ضرب من الحنين الى الاصلاح صاروا لا يدرون كيف يتخلصون منه. ترى هل ساستمر طويلا في الضرب بين المستشفى وسجن الاشغال الشاقة جيئة وذهابا ؟ لم اكن ادري الجواب الان وقد انتهى الامر بسيلين الى التخلص من خوفها عليّ والى الرجوع الى فرنسا بلادها تاركة اياي في بلبلة فكرية لم يسمع بمثلها قط. ومنذ قطيعتي مع تلك العشيقة صار يتفق لي اكثر فاكثر ان اطفق في مناجاة نفسي بصوت مرتفع وانا بزنزانتي فاحدث بتلك الصورة وبدون قصد كوابيس تتخلل نوم حراسي. وكنت في السجن عندما علمت بخبر موت امي التي لم ارها منذ ان القي القبض علي والتي بقيت مدة طويلة تجر مرضا مزمنا عند احد أعمامها . وبالسجن أيضا بلغني خبر زواج أبي للمرة الثالثة ، أعلمتني بذلك زبيدة وهي تتوسل الى بان انقطع عن تعاطي السياسة (ترى هل كانت مشاركة في المؤامراة هي الاخرى ؟).

الليل اظلم قاتم في مطبقي ولكن الصاغة يتكاثرون في المدينة، ينظمون انفسهم طوابير من المليشيا للدفاع عن محتويات واجهات محلاتهم المهددة تهددها شراسة شعب البطالين الدائمة (وعددهم يزداد بمائتي الف شخص كل سنة حسب احصائيات «العصابة» نفسها !) فقد كانوا بالمرصاد يتحينون ادنى فتور في الحراسة لا لسرقة كل شيء بل لتدمير كل شيء وتخريبه. ان الليل الاظلم قاتم بمطبقي. غدا ستبلغ مسمعي انشودة المساجين (ومنهم الشاعر عمر) يطلقونها من صحن السجن ساعة جولتهم اليومية بها. اما انا فما زلت معزولا عن بقية المساجين الى حد الآن (وقد ظللت كذلك منذ عدة سنوات). السلام عليّ؛ فقد حلّ الليل، وخيّم

السكون حول هذياني الجنوني،الابدي. واما رفاقي في المطبقات والزنزانات الاخرى فانهم يعرفون انني لست محكوما على بالهذيان والجنون ابد الدهر ولهذا فعلي ان استمر في الصمود وقتا ما...

COURONNES
66, Rue des Couronnes
75020 PARIS

ص 7 : (1) **algarade**

،، ،، : (2) يمّا : لفظة أمّي كما ينطق بها في القطر الجزائري

،، ،، : (3) الصبية : نبات من فصيلة الحلفيات .

ص 17 : (4) الأيبان : جنس من القشريات البحرية المشابهة الأقدام .

ص 19 : (5) زورو : شخصية خيالية لمغامر غيور على الضعفاء في صنف من الأفلام الأمريكية .

،، ،، : (6) لونابارك : مركب من الألعاب المتنوعة .

ص 73 (7) التول : قماش رقيق شفاف نسبة إلى قرية « تول » بفرنسا .

ص 96 : (8) « لول غير ريح » : كلمة علقت به لصدف في مشيته .

ص 159 : (9) الحرفية **Le Lettrisme** : نظرية فنية أدبية تحصر الشعر والجمال في موسيقى الحروف .

ص 187 : (10) « لوكوك » أي الديك .

تم تصفيف وطبع هذا الكتاب

في شهر [illegible] 1982

سلسلة عودة النصّ (إدارة محمد كمال قحة)

□ سلسلة أدبية تعنى بنقل آثار كتبها أدباء من المغرب العربيّ مباشرة باللّغة الفرنسية إلى حقل الأدب العربي .

□ سلسلة ترمي إلى تخطي مرحلة الارتجال في ترجمة الآثار الادبية وتسهر على احترام الجوانب الفنيّة والجمالية في الأثر المترجم .

التطليق

رشيد شابّ جزائريّ يبسط أمام خليلته « سيلين » ملامح العنف الذي تسلّطه المجموعة ممثّلة في شخص أبيه سي زبير على غير العاقلين من أفرادها ، أي على الاناث وعلى من شذّ عن نمط حياتها المنخرم من أمثال رشيد وأخيه زاهر . والتطليق هنا عمليّة نبذ لكائن حيّ لا يبرّرها إلّا التكالب على اللّذة عند سي زبير ورغبته في الزّواج من زبيدة التي تبلغ من العمر خمس عشرة سنة . ويردّ رشيد على عنف القبيلة بعنف أكبر فيبني سلوكه على نقيض النمط الذي اختارته ويبيح لنفسه ما أنكرت ملتذّا بالنيل من حرمتها وبكشف عورتها هل يبشّر رشيد بولادة إنسان مغربيّ جديد أم هل هو ضحيّة مجتمع يرفض التحوّل الأخلاقيّ والسياسيّ ؟

رشيد بو جدرة

ولد سنة 1941 بالعين البيضاء بالقطر الجزائري . تحصل على الاجازة في الفلسفة من جامعة السّوربون سنة 1965 ، ثم على شهادة الدراسات العليا بعد مناقشة بحث حول أعمال « لوي فارديناند سيلين » . له ديوانا شعر ومقالات عديدة وروايات من أشهرها « التطليق » (La répudiation)؛ « الصالب » (L'insolation) و « الحلزون العنيد » (L'escargot entêté) صدر له أخيرا وباللّغة العربية « التفكك » الذي ترجم بالفرنسية تحت عنوان (Le démantèlement)

2d,600 La Répudiation